

christianlib.com
إيروثيئوس
مطران نافباكتوس
الحياة بعد الموت
www.christianlib.com
ترجمة
دكتورة / نيڤين سعد
coptic-books.blogspot.com

الحياة بعد الموت

تأليف

إيروثيئوس

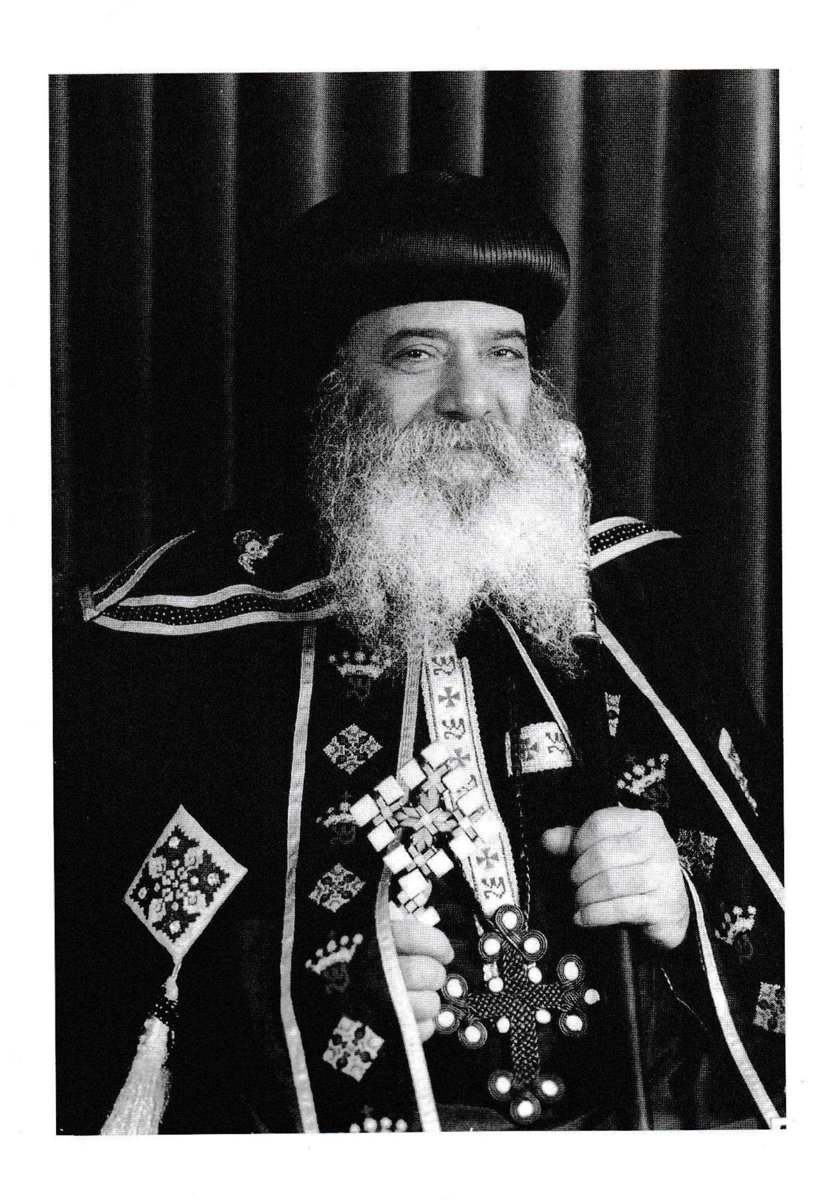
مطران نافباكتوس- اليونان

ترجمة

دكتورة / نيڤين سعد

كتـــاب: الحياة بعد الموت
مترجم بإذن من المؤلف والناشر عن كتاب:
Life after Death
المؤلــف: **Hierotheos – Metropolitan of Nafpaktos**
الناشر للطبعة الإنجليزية:
Birth of the Theotokos Monastery, 1995, 1996,1998, 2000, 2005
P.O. 107, 321 00 levadia, Greece

المترجــم: دكتورة / نيڤين سعد
تصميم الغلاف: (عن غلاف الطبعة الإنجليزية)
للفنـــان: **Yannis Yeremtzes**
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢١٠١٤ / ٢٠١٠
رقم الإيداع الدولي: 997-17-9792-1
المطبعــــــة: مطبعة الدلتا - delta PRESS
www.deltapress.net
٢٤ ش الدلتا سبورتنج - ت: ٠٣/ ٥٩٠١٩٢٣ ٢٠+



قداسة البابا الأنبا شنودة الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

الفهرس

جزيل الشكر

لنيافة *المتروبوليت/* ***إيروثيئوس فلاخوس*** لتفضله بمنحي هذه البركة الكبيرة بترجمة هذا الكتاب العميق الذي يصحح الكثير من المفاهيم الشائعة، ويعطي معنى جديداً ليس فقط للموت ولكن للحياة أيضاً.

كما أشكر حضرة *الأب/* ***أنطوان ملكي*** لتفضله بالمراجعة الدقيقة للترجمة، ومضاهاها بالنص اليوناني الأصلي، وتزويد الترجمة بالنصوص الأصلية للصلوات الطقسية الواردة بالكتاب

د. نيفين سعد

استشاري الطب النفسي

مقدمة

من الملاحظ في هذه الأيام انتشار الاهتمام بالحياة بعد الموت. فالناس مهتمون بشدة بلغز الموت. ومن الطبيعي أن يرتبط ذلك بما يسمى أسئلة وجودية تُطرح داخل كل أحد، وخصوصاً الشباب. ومن أمثلة هذه الأسئلة: من أنا؟ ما هو معنى الحياة؟ أين سأذهب بعد الموت؟ هل توجد حياة بعد مغادرة الروح للجسد؟ وما إلى ذلك.

وبالطبع لا ينشغل بهذه الأسئلة الأشخاص المعاصرون فقط، ولكن ينشغل بها بوجه عام أناس من كل الأجناس والعصور. والفلاسفة، بصفة خاصة، يهتمون بأصل الحياة ووجود الروح ودخول الشر إلى العالم والموت. وعلى الرغم من أن هذه المسائل تبدو معاصرة، إلا أنها شغلت عقل الإنسان على مر العصور.

ونحن لو كنا نلاحظ ازدياد الاهتمام بهذه المسائل هذه الأيام، فإن السبب في ذلك هو ازدياد الشعور بعدم الأمان الذي يشعر به الناس الآن. **إذ أنه من الطبيعي أن يُكَثَّف اهتمام الناس بالأسئلة الوجودية عندما تتلاشى الضمانات، وعندما يشعرون بالخوار أمام الأحداث المختلفة.**

لقد واجهت الكنيسة مثل هذه الأسئلة باستمرار، وخصوصاً المشكلة الأكثر جوهرية واللغز الأعظم، أي لغز الموت. وفي الحقيقة كان هدف تجسد المسيح هزيمة قوة الموت والشيطان. فلقد أعطى انتصار المسيح على الموت للإنسان إمكانية أن يستطيع هو أيضاً أن يهزم الموت في حياته الشخصية، والكنيسة هي المكان الذي يتحقق فيه ذلك.

وعندما تتكلم الكنيسة عن الموت فليس لكي تخيف الناس وتبث الذعر، ولكن لكي تساعدهم على التغلب عليه. ومن الواضح أنه ليس أمراً سهلاً بأية حال من الأحوال مواجهة مشكلة الموت، إذ أنه ليس حدثاً بسيطاً. **فالمرء يولد قابلاً للفساد والموت، والذي يولد هو نفسه الذي سوف يموت، وكل حياة الإنسان هي سلسلة من الميتات.** فالأمراض والفساد العام الذي يصيب الجسد يُظهر أن الإنسان يحمل حمل الموت، كما أن ردود أفعالنا السلبية المختلفة تنبع من خبرة الموت. **وبالتالي يكون حديث الكنيسة عن هذه الأمور مساعدة فعالة، إذ أنها تنشر الرجاء والتعزية بدلاً من الخوف والهلع، وتعطي بهذه الطريقة فرحاً للحياة.**

سوف نواجه في هذا الكتاب بعض الأسئلة التي تشغل الناس في هذه الآونة، مثل ما هو الموت؟ ما هي الروح؟ ماذا يحدث عندما تغادر الروح الجسد؟ أين تذهب الروح بعد انفصالها عن الجسد؟ هل يتلاشى المرء عند موته؟ ما هي النار المطهرة؟ ما هو الفردوس والجحيم؟ ماذا سيحدث في المجيء الثاني للمسيح؟ وما إلى ذلك من الأسئلة.

إنني أود في هذه المقدمة أن ألفت الأنظار لبعض الملاحظات العامة.

أولاً كل ما قيل في هذا الكتاب مستوحَى من تعليم الوحي الإلهي كما أُظهر لقديسي كل عصر، وسُجل بواسطة الكتاب المقدس وحياة وتعاليم الآباء القديسين الذين هم أنفسهم حاملون للوحي الإلهي.

ثانياً كان من المستحيل تجنب بعض التكرار في وضع الفصول المختلفة للكتاب. فعلى سبيل المثال، عندما تناولنا موضوع النار المطهرة بحسب القديس مرقس آفيانيكوس كان من الضروري أن نتحدث عن ملكوت الله والفردوس والجحيم. كما أننا اضطررنا في الباب الذي عنوانه " الأخرويات السرمدية" إلى تكرار بعض المواضيع من فصول سابقة. بالإضافة إلى ذلك فنحن نعلم أن المواضيع اللاهوتية، كما هو الحال في الحياة ذاتها، لا يمكن فصلها عن بعضها البعض فصلاً مطلقاً وتفسيرها بمعزل عن بعضها البعض.

يجب علينا أن ننبه القارئ أيضاً أن بعض أجزاء الكتاب صعبة الفهم بسبب كونها تفسيراً وتحليلاً لاهوتياً لهذه الموضوعات. فمن غير الممكن تبسيطها جميعاً. فعندما تُبَسَط الموضوعات جداً تُشَوه وتفقد قيمتها. فلو حدث أيها القارئ وواجهت بعض الصعوبات فلا تيأس بل استمر في القراءة حتى تصل لمواضع أسهل وسوف تحصل على فهم أفضل لموقف الكنيسة من موضوع الحياة والموت وعما يحدث بعد أن تغادر الروح الجسد.

إننا نتناول في هذا الكتاب موضوعات تبدأ من أول انطلاق الروح وحتى الحياة بعد المجيء الثاني للمسيح. وهذه المنطقة صعبة لأنها مشوبة بالغموض. فهناك العديد من الأشياء التي لا نعرفها وليس من السهل تفسير كل شيء. إننا نعرف فقط ما أعلنه لنا المسيح والقديسون. لذا ينبغي على القارئ أن يتذرع بالصبر حيث أنني واجهت بعض الصعوبات أثناء الكتابة.

إن الكنيسة التي هي جسد المسيح القائم من الأموات هي المكان الذي نختبر فيه انتصاره المجيد على الموت، وهي المكان الذي نشارك فيه ملكوت الله كعربون. وطلبتنا جميعاً هي أن نعيش في الكنيسة تماماً كما يريد المسيح، ذاك الذي هو الرأس، حتى نستطيع أن نختبر الحياة الأبدية. وفي هذه الحالة، لا يعود هناك احتياج لتحليل ذهني وفهم منطقي لهذه المواضيع الأخروية لأننا سوف نكون عائشين الآخرة في الزمن الحاضر.

أثينا في ٤ ديسمبر ١٩٩٣
في عيد أب الكنيسة العظيم
يوحنا الدمشقي مؤلف
لحن خدمة الجناز
المتروبوليت / إيروثيئوس س. فلاخوس

الباب الأول

الحياة بعد الموت بحسب مثل الغني ولعازر

سوف نشرح بالتفصيل في الفصول التالية من الكتاب المواضيع المرتبطة بالحياة بعد الموت، وعلم الأخرويات والحياة الأبدية. وسوف نشرح هذه الموضوعات بحسب تعاليم آباء الكنيسة القديسين الذين بلا شك يُعبِّرون عن التعليم الأرثوذكسي طالما أنهم حاملو الوحي الإلهي. وسوف نستشهد عند الحاجة ببعض الأشياء الفلسفية.

يقدم هذا الباب الأول مقدمة عامة لموضوعنا بأبسط طريقة ممكنة. من أجل ذلك عبَّرنا عن المفاهيم الرئيسية لموضوع "الحياة بعد الموت" بأفكار مختصرة وكلمات بسيطة لكي نمنح القارىء فهماً معقولاً للموضوع ثم نتعمق فيما بعد مع القارىء الأكثر مثابرة.

إننا نعتبر مثل السيد المسيح عن الغني ولعازر هو المساعدة الملائمة جداً لإرشاد القارىء في موضوع "الحياة بعد الموت"، وبالتالي سوف نحلل فيما يلي هذا المثل بأبسط طريقة ممكنة.

كان يجب علينا أن نستعين بالعديد من النصوص الآبائية التي تفسر مثل الغني ولعازر. إلا أننا لن نفعل ذلك لأننا، كما قلنا من قبل، نهدف في كل ما يلي إلى تمهيد القارىء لتعاليم الكنيسة فيما يخص "الحياة بعد الموت".

(١) مثل الغني ولعازر

" كان إنسان غني وكان يلبس الأرجوان والبز وهو يتنعم كل يوم مترفهاً. وكان مسكين إسمه لعازر الذي طُرح عند بابه مضروباً بالقروح. ويشتهي أن يشبع من الفتات الساقط من مائدة الغني. بل كانت الكلاب تأتي وتلحس قروحه. فمات المسكين وحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم. ومات الغني أيضاً ودُفن. فرفع عينيه في الجحيم وهو في العذاب ورأى إبراهيم من بعيد ولعازر في حضنه. فنادى وقال يا أبي إبراهيم إرحمني وأرسل لعازر ليبل طرف إصبعه بماء ويبرد لساني لأني معذب في هذا اللهيب. فقال إبراهيم يا إبني أذكر أنك إستوفيت خيراتك في حياتك وكذلك لعازر البلايا. والآن هو يتعزى وأنت تتعذب. وفوق هذا كله بيننا وبينكم هوة عظيمة قد أثبتت حتى إن الذين يريدون العبور من ههنا إليكم لا يقدرون ولا الذين من هناك يجتاوزون إلينا. فقال أسألك يا أبت أن ترسله إلى بيت أبي. لأن لي خمسة إخوة. حتى

يشهد لهم لكيلا يأتوا هم أيضاً إلى موضع العذاب هذا. قال له إبراهيم عندهم موسى والأنبياء. ليسمعوا منهم. فقال لا يا أبي إبراهيم. بل إذا مضى إليهم واحد من الأموات يتوبون. فقال له إن كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياء ولا إن قام واحد من الأموات يصدقون" (لو١٦: ١٩-٣١)

(٢) التفسير التحليلي للمثل

يستطيع الدارس لمثل السيد المسيح المشهور أن يلاحظ العديد من الأمور. فمن الممكن أن يتناول أبعاده الاجتماعية أو حتى يستخلص منه العديد من الاستنتاجات الأخلاقية. إلا أننا على أية حال نفضل أن ننحصر في الموضوعات المرتبطة بالحياة بعد الموت، أي أننا سوف نهتم بتحليل المثل من منظور علم الأخرويات.

النقطة الأولى

لا يتعلق المثل كما نرى بالحياة بعد المجيء الثاني للمسيح، ولكن بحياة الروح في الفترة ما بين موت الشخص عندما تغادر روحه جسده والمجيء الثاني للمسيح. تُسمى هذه الفترة "الحالة المتوسطة للأرواح". توجد أقوال أخرى للسيد المسيح تتكلم عن مجيئه الثاني عندما يأتي ليدين الناس. وقبل ذلك ستحدث قيامة للأجساد، عندما تعود الأرواح لأجسادها ثانية، ويجني المرء ثمرة أعماله في حياته على الأرض.

النقطة الثانية وهي تشير إلى وجود الموت في حياة الإنسان.

لقد مات كل من الرجل الغني ولعازر. والموت هو انفصال الروح عن الجسد. تسمى هذه الحالة أيضاً "رقاداً" لأن قيامة المسيح غلبت الموت. **لقد غلب السيد المسيح الموت على المستوى الوجودي بواسطة آلامه وصلبه وقيامته، وأعطى الإنسان إمكانية التغلب عليه بأن يعيش في الكنيسة.** تظهر حقيقة كون الموت رقاداً وحالة مؤقتة في الطريقة التي يموت بها القديسون، إذ أنهم جميعهم لديهم رجاء في المسيح ، ويكون هذا معلناً في رفاتهم التي لا تفسد وتصنع المعجزات.

لم يخلق الله الموت، ولكن الموت اندسّ في الطبيعة كثمرة لخطية الإنسان وانفصاله عن الله. يوجد موت للجسد وموت للنفس. وموت النفس هو تخلي نعمة الله عنها، وأما موت الجسد فهو انفصال النفس عن الجسد.

وحيث أن الجميع يرثون الفساد والموت، يتذوق جميع الناس الغموض المروع الذي للموت. وبمعنى آخر، **نحن نولد لكي نموت. فالموت هو الحدث المؤكد الأكيد في حياتنا.** حتى الفلاسفة الوجوديين المعاصرين يقولون أن الحقيقة المؤكدة هي **"الوجود من أجل الموت"**.

وعلى الرغم من أن الموت هو الحدث الأكيد، إلا أن يوم وساعة الموت هما غير معروفين فلا أحد يعرف متى سيموت. ولكن الأمر الأهم هو أن يعيش المرء بطريقة حسنة بحيث تصبح كيفية الموت هي حياة أبدية.

يقول الكتاب في نص المثل: " فمات المسكين" و"مات الغني أيضاً ودفن". **الموت هو إذاً أكبر ديمقراطية لأنه ليس فيه استثناءات.**

النقطة الثالثة

بعد أن تركت نفس لعازر جسده، استقبلته الملائكة وحملته إلى حضن إبراهيم. وهذا يعني أنه توجد ملائكة. **وبالطبع فإن الملاك الحارس لكل شخص هو الذي يستقبل نفس البار ويحملها إلى الله.**

وعلى عكس ذلك، يقول مثل آخر أن الشياطين تستقبل نفوس الخطاة غير التائبين. فقد سمع الغني الغبي صوتاً من الله يقول له: " يا غبي!! هذه الليلة تُطلب نفسك منك. فهذه التي أعددتها لمن تكون؟" (لو١٢: ٢٠). إن فعل "تطلب" يوحي بالشياطين التي تطلب نفس الشخص الخاطىء لكي تتحكم فيه إلى الأبد.

وبالتالي ففي ساعة الموت الرهيبة ، عندما تنفصل النفس عن اتحادها بالجسد بالقوة، تحدث أمور مرعبة. تستقبل الملائكة نفوس الأبرار، وتستقبل الشياطين نفوس الخطاة. تتحدث تعاليم آباء الكنيسة عن "المحطات الجمركية" التي هي الشياطين، أرواح الهواء التي تريد وتحاول أن تحكم نفوس كل الناس إلى الأبد. وبالطبع فإن نفوس القديسين التي كانت قد اتحدت بالمسيح وتحمل ختم الروح القدس لا يمكن أن تحكمها الشياطين.

عندما يتحدث آباء الكنيسة عن "المحطات الجمركية" فإنهم يعنون كلاً من الكراهية والغضب العدواني الذي للشياطين، ووجود الأهواء التي تطلب الإشباع ولكنها لا يمكن أن تُشبَع بسبب عدم وجود الجسد. إن هذه الحالة بالضبط هي التي تخنق النفس والتي تشعرها بضيق رهيب. يشبه عذاب النفس هذا بالحبس الانفرادي التام لشخص ما في سجن بدون وجود أية إمكانية للنوم والطعام وملاقاة أي شخص وما إلى ذلك، وعندئذ تصبح أهواؤه وكل كيانه في حالة هياج.

إن حقيقة استقبال نفوس الناس إما بواسطة الملائكة أو بواسطة الشياطين هي حقيقة نسبية تعتمد على حالة الشخص. وكما يقول الآباء فإن الملائكة والنفوس هي أرواح عاقلة بالمقارنة بالجسد المادي، ولكنها بالمقارنة بالله تكون مادية إلى حد ما. من أجل ذلك تسمى الملائكة كيانات أثيرية، فهي ليست غير مادية بصورة مطلقة. بالإضافة إلى ذلك فإن النفس مخلوقة، وهذا يعني أنها مخلوقة بواسطة الله. إنها خالدة بواسطة النعمة لأن الخلود هو عطية الله. كل خليقة لها بداية ونهاية. وطالما أن النفس مخلوقة، فهي لها بداية محددة ولكن ليس لها نهاية لأن الله أراد لها ذلك.

النقطة الرابعة

لقد ذهبت نفس لعازر لحضن إبراهيم ونفس الرجل الغني إلى الجحيم. ومع هذا يقول المسيح في المثل أن لعازر ذهب إلى حضن إبراهيم وأن هذا الرجل الغني ذهب إلى الجحيم. ثم يقول بعد ذلك أن الرجل الغني "رأى إبراهيم من بعيد ولعازر في حضنه".

إن هذا القول مهم جداً لأنه يعني **أنه على الرغم من انفصال النفس عن الجسد، فإن الأقنوم أو الجوهر أو الشخص لا يُفقد.** في الواقع، لم توجد النفس قبل الجسد ولكنها خلقت في نفس الوقت مع الجسد، ومع ذلك لا تُحتسب لا النفس وحدها ولا الجسد وحده كمكّون للإنسان. بالإضافة إلى ذلك، وعلى الرغم من الانفصال المؤقت للنفس عن الجسد إلا أن الشخص لا يُفقَد. يظهر ذلك في حقيقة أن النفس تحتفظ بوعيها، وكما يشرح الآباء فإن نفس الإنسان تتعرف على مكونات جسدها الخاص الذي يبقى في الأرض والتي قد تكون متفرقة أو متحللة إلى العناصر التي تكونها. وفي المجيء الثاني، وبنعمة الرب سوف تتحد هذه العناصر مع جسدها وسوف يتجمع الإنسان بكليته، وستصبح بالطبع أجساد كل من الأبرار والخطاة

روحانية، بمعنى أنها لن تحتاج للطعام ولن تكون محصورة بمسافات ولا بمحدودات. **إن القيامة هي منحة موهوبة لكل الناس الأبرار والأشرار.**

يجب علينا أن نلاحظ أن السيد المسيح في هذا المثل يذكر اسم الرجل الفقير ولكنه لا يعرف اسم الرجل الغني. وهذا يعني أن لعازر بسبب أنه عاش مع الله كان "شخصاً" من منظور خلاصي، أي أقنوم حقيقي، على حين أن الرجل الغني على الرغم من كونه إنساناً لم يكن له أقنوم من منظور خلاصي. **وهذا يعني أن الإنسان الحقيقي ليس هو مجرد من له نفس وجسد، ولكنه من يقتني نعمة الله في نفسه وجسده.** وعلى الرغم من أن الذي لا يقتني الروح القدس هو شخص من المنظور الوجودي، إلا أنه ليس شخصاً بالنسبة لله وذلك بسبب بسيط جداً وهو أنه استُعبِد للماديات، وبدلاً من أن يتحول نحو الله، تحول عقله نحو المادة واستُعبِد لها.

النقطة الخامسة

يقول المثل أن الرجل الغني إذ وجد نفسه في الجحيم رأى إبراهيم ولعازر في حضنه. يُفهم هنا شخص إبراهيم على أنه يعني الله. يعني الوجود في حضن الله الوجود في شركة مع الله.

في الحضن وراء الصدر يوجد قلب الإنسان. والقلب الذي هو مصدر الحياة البيولوجية هو رمز للحب. وكلما زاد الحب كلما زادت المعرفة، طالما أن المعرفة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحب. وفي الواقع يشكل هذا الحب الشركة والاتحاد. وبالتالي فإنه لكي يكون الشخص في الحضن عليه أن يكون مرتبطاً بالمحبوب، وهذا يعني وجود اتحاد بينهما.

وبالتالي فإن القول بأن لعازر في حضن إبراهيم يشير إلى اتحاده بالله، وهذا الاتحاد يرتبط بالمعرفة الروحية والحب. إننا عندما نتحدث عن معرفة الله نقصد "الشركة في الوجود". **فهي ليست معرفة ذهنية ولكنها معرفة مرتبطة بالحب وبملء الحياة.**

لم يبدُ أن لعازر كان مرتبكاً بالمشكلة الرهيبة التي واجهها الغني. إنه لا يرى الهاوية على حين يرى الرجل الغني مجد الفردوس. وفي الواقع كما يقول الآباء، فإن الشخص الذي يعيش في النور غير المخلوق وفي الرؤية العظيمة لله ينسى العالم. فالنور

يكون عظيماً وباهراً لدرجة لا تسمح للشخص بأن يرى أي شيء آخر. وهذا لا يعني أن القديسين لا يصلّون لأجل العالم كله. إنهم يصلون ويتوسلون لله لأنهم في الحقيقة لديهم شركة كبيرة معه، إلا أنهم في حالة لا نستطيع أن نفهمها. ولن نفهمها إلا لو أمعنا النظر في الخبرات الإلهية للقديسين.

النقطة السادسة

بينما كان لعازر في حضن إبراهيم، كان الرجل الغني يحترق في الجحيم حتى أنه طلب من إبراهيم أن يرسل لعازر ليبرد لسانه لأنه كما عبَّر هو عن نفسه: "لأني معذب في هذا اللهيب". هنا يتعلق الأمر بالجحيم وليس بجهنم. لأن جهنم تبدأ بعد المجيء الثاني للمسيح والدينونة الآتية، على حين تختبر نفوس الخطاة الجحيم بعد رحيلها من الجسد. **وبحسب تعاليم الآباء القديسين فإن الجحيم هو مكان مدرَك بالعقل، إنه عربون جهنم حيث يتلقى الشخص قوى الله الحارقة.**

لقد دارت محاورات كثيرة حول هذه المسائل في مجمع فيرارا- فلورنسا حيث أعلن مرقس آفيانيكوس عن آرائه وتم الاحتفاظ بها. ليست النار التي كان الرجل الغني يحترق فيها هي ما يسميه اللاتين النار المطهرة أو "المطهر" الذي ينبغي على كل الناس العبور عليها. فهي ليست ناراً مخلوقة بل غير مخلوقة. **إننا نعني أنه حتى الخطاة يتلقون أشعة النور الإلهي، ولكن لأنهم يموتون وهم غير تائبين ولم يحصلوا على الشفاء فإنهم يختبرون القوى الحارقة للنور. وبالتالي يستقبل الناس نفس النعمة إما كنور وإما كنار بحسب درجة شفائهم أو مرضهم.**

يجب علينا أيضاً أن نلاحظ أن الرجل الغني رأى إبراهيم ولعازر في حضنه. لقد رأى مجد إبراهيم دون أن يكون له نصيب فيه. وعلى العكس من ذلك رأى لعازر مجد إبراهيم واشترك فيه. هذه نقطة مهمة لأنها تظهر أن **كل واحد سوف يرى الله في الحياة الآتية**، ولكن البار وليس الخاطيء هو الذي سيحصل على شركة واتحاد. إن المثال المميز على ذلك ما قاله المسيح عن الدينونة الآتية، فسوف يرى الجميع القاضي وسوف يتحدث الجميع معه، ولكن البعض سيتمتعون بمجده والبعض الآخر سيختبرون القوى الحارقة للنعمة الإلهية.

النقطة السابعة

لقد كان الرجل الغني منشغلاً بإخوته العائشين في العالم وطلب من إبــراهيم أن يرسل لعازر ليــبشرهم بالتوبة. وبالتالي فإنه على الرغم من انفصال نفس الإنسان عن العالم الحاضر إلا أنه لا يزال على علم بما يحدث فيه، ولا يزال لديه اهتماماً اجتماعياً.

تــُظهر هذه الحقيقة، بالإضافة إلى عناصر أخرى، ما قلناه من قبل عن أن مثــل الغني ولعازر لا يخص الحياة بعد المجيء الثاني للمسيح ولكنه يتعلق بالحياة حــتى المجــيء الثاني. إنه يتعلق بصورة واضحة بما يسمى الحالة المتوسطة للنفوس.

يهتم القديسون بخلاص العالم، فهم بنعمة الرب يسمعون صلواتنا ويرفعونها لله. وهذا هو السبب الذي يجعلنا نصلي للقديسين. والهدف من الأعياد المخصصة لذكراهم هو إظهار كونهم قديسين، وكونهم متحدين بالله، وكونهم منــتظرين قيامة أجسادهم، وكونهم بخلودهم قد تلقوا بالفعل عربون الدهر الآتي. ونحن أيضاً نهتم بأولئك الراقدين. إننا نصلي للقديسين لكي يصلوا لله من أجلنا ونطلب شفاعتهم، بينما نصلي لله أيضــاً لكي يرحم كل الآخرين الذين تنيحوا. بخلاف كون هذا دليلاً على التواصل بيننا، فهو يعبر في نفس الوقت عن شيء أكثر عمقاً.

بحسب تعاليم الآباء القديسين فإنه عندما يدخل شخص ما في حالة توبة، أي في مرحلة التطهير، فإنه يتقدم باستمرار. ويستمر السعي نحو الكمال في كل من المرحلــة المتوسطة وفي الحياة بعد المجيء الثاني. إن مراحل الحياة الروحية هي التطهير، والاستنارة، والاتحاد بالله. ولا يمكن اعتبار هذه المراحل كحالات جامدة ولكن كــدرجات مــن الاشتراك في نعمة الله. فلو يجاهد شخص ما لكي يتطهر، فإن نعمة الله التي تطهره تسمى "قوة مطهرة". وعندما يستنير النوس، فإن هذا يعني أنه يتلقى قوة الله التي تمنحه استنارة، وهذه تسمى "القوة المنيرة". وعندما يدخل في عملية الاتحاد بالله، فإن هذا يحدث مــن خلال نعمة الله التي تسمى "مؤلهة". هذه العملية تكون مستمرة. وبالتالي يتقدم أولئــك الذين تابوا قبل رحيل نفوسهم من الجسد ويستقبلون نعمة الله غير المخلوقــة بــإطراد. وهذا هو السبب الذي يجعلنا نصنع تذكارات ونصلي للراقدين.

على أية حال، طالما أن أولئك الذين لم يتوبوا قبل أن تترك نفوسهم أجسادهم لا تكون لديهم رؤية روحية، فإنهم يختبرون قوة الله الحارقة فقط ولن يشتركوا أبداً في مــا هو صالح. إلا أننا نصلي من أجل الجميع لأننا لا نعرف حالتهم الروحية الداخلية.

النقطة الثامنة

يقول المثل أنه كانت هناك "هوة عظيمة" بين الجحيم الذي وجد فيه الرجل الغني وبين المكان الذي وجد فيه إبراهيم، وأنه كان من المستحيل العبور من مكان إلى آخر.

من البديهي أن الأمر لا يتعلق بأماكن محددة ولكن كما قلنا من قبل يتعلق الأمر بطرق حياة خاصة. يوجد فرق بين الفردوس والجحيم كطرق حياة خاصة.

لا وجود للفردوس والملكوت في منظور الله، ولكن في منظور الإنسان. فالله يرسل نعمته لكل الناس طالما أنه "يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين". ولو أن الله أعطانا وصية أن نحب الجميع وحتى أعدائنا، فإنه بلا شك يفعل نفس الشيء. فمن المستحيل ألا يحب الله الخطاة أيضاً، **إلا أن كل شخص يشعر بمحبة الله بطريقة مختلفة بحسب حالته الروحية.**

للنور خاصيتان: الإنارة والحرق. ولو كان لدى شخص ما إبصاراً جيداً فإنه يستفيد من خاصية الإنارة التي لنور الشمس ويستمتع بكل الخليقة. ولكن لو وجد شخص آخر محروماً من عينيه وإبصاره فإنه يشعر بالضوء على أنه حارق. هكذا هو الحال أيضاً في الحياة الآتية وفي حياة النفس بعد مغادرة الجسد. سوف يحب الله الخطاة أيضاً، ولكنهم لن يكونوا قادرين على استقبال هذا الحب كنور، ولكنهم سيستقبلونه كنار حيث أنهم لن يكونوا مقتنين لعين وبصيرة روحية.

يشبه هذا ما يحدث في القربان المقدس. يستطيع الجميع التناول منه ولكنه يكون نوراً وحياة للمستعدين، على حين أنه يكون دينونة وحكماً لغير المستحقين.

تظهر الكنيسة ذلك في أيقونة المجيء الثاني حيث نرى القديسين في النور المشع من عرش الله، ومن نفس العرش ينبع نهر من النار موجود فيه الخطاة غير التائبين.

من أجل هذا تعطي الكنيسة الأرثوذكسية اهتماماً كبيراً لشفاء الإنسان. وتُعتبَر الكنيسة كمستشفى روحي ومصحة تشفي العين الروحية التي هي العقل المريض المحتاج للشفاء. هذا هو كل عمل الكنيسة.

النقطة التاسعة

لم يجب إبراهيم على تضرع الرجل الغني بأن يرسل لعازر إلى الأرض ليعظ أخوته لكي يتوبوا. وبرر إبراهيم هذا بقوله أن الذين لا يسمعون لموسى والأنبياء "ولا إن قام واحد من الأموات يصدقون".

لا يستطيع الشخص الجسداني أن يتوب مهما كان عدد المعجزات التي قد يراها في حياته. إنها حقيقة، إذ أنه يعيش في غفلة مميتة. **فعندما لا تكون حرية الشخص فعالة، لا توجد توبة.** فكل شيء لا يحدث إلا بنعمة الله وتعاون الإنسان.

إن أعظم حقيقة في التاريخ هي تجسد المسيح وقيامته وتأسيس الكنيسة التي هي جسد المسيح القائم المتجسد، الإله الإنسان. ولو لم يتأثر الشخص بهذه الحقيقة المذهلة، ولو لم يقتنع بحياة العديد من القديسين الذين هم أعضاء في جسد المسيح القائم من الأموات، فإنه لن يقتنع ولا حتى بأعظم معجزة.

ليس خلاص الإنسان وولادته الثانية مسألة سحر وشعوذة، ولكنه ثمرة لتعبيره الحر عن إرادته، إنه ثمرة للألم والجهاد والعمل الشاق.

ومع الأسف، يرضي الكثيرون أنفسهم في هذه الأيام بالأحداث الخارجية الخارقة. إن الاقتناع بوجود حياة أخرى هو مسألة حساسية روحية داخلية. لأنه حتى لو قام واحد من الأموات فسوف يُساء فهمه على أنه خيال.

ينتشر اليوم بكثرة الحديث عما يسمى "خبرات ما بعد الموت" حيث يدَّعي بعض الأشخاص أن أرواحهم تركت أجسادهم أو أنها قاربت الخروج ثم عادت ثانية إلى الجسد، ويعددون كل الأشياء الرهيبة التي رأوها وواجهوها.

إننا في الكنيسة الأرثوذكسية نقول أنه توجد حالات عادت فيها الروح إلى الجسد ثانية، بمعنى أنهم أقيموا من الموت بقوة المسيح. ولكنها بأي حال من الأحوال حالات استثنائية لا تحدث لكل أحد. يوجد قديسون تعرضوا لخبرات فظيعة عندما رأوا أثناء حياتهم الشخصية الفردوس والجحيم، واختبروا نيران جهنم، ورأوا ملائكة وشياطين. ولكنهم عندما رجعوا لأنفسهم عاشوا حياة التوبة ونادوا بها للآخرين. على أية حال إننا نرى أن معظم خبرات ما بعد الموت تكون إما شيطانية، أو ثمرة لخبرات مكبوتة أو خيالات، أو أنها نتيجة لعقاقير منومة ومهدئة تُعطى لمنع الألم في محنة المرض المرعبة. من المؤكد أن الأمر يتطلب تمييزاً كبيراً لملاحظة الفرق بين هذه الحالات إن كانت من عند الله أو الشيطان أو من اضطرابات نفسية وعضوية.

إننا في الكنيسة لا ننتظر قيامة قديسين أو خبرات مثل هذه لكي نؤمن. فلدينا الكتاب المقدس، وسيرة الأنبياء والرسل والقديسين، ولدينا أقوالهم وتعاليمهم، بالإضافة إلى رفاتهم، ونحن نؤمن بوجود حياة أبدية. **وفي الوقت الحالي وهب الله لكل واحد منا أن يختبر في قلبه ما هو الجحيم وما هو الفردوس.** وبخلاف هذه الأمور، فنحن نحفظ وصايا المسيح لكي نحصل على الشفاء وحتى نحل العديد من المشاكل الوجودية والشخصية والاجتماعية والبيئية. لذا يجعلنا التمسك بوصايا الله أشخاصاً متزنين.

النقطة العاشرة

يقترح مثل الغني ولعازر الطريقة التي ينبغي علينا اتباعها لكي نحصل على الشفاء، وبالتالي نختبر الله كنور وليس كنار بعد الموت وبعد المجيء الثاني للمسيح. فلقد قال إبراهيم للرجل الغني: "عندهم موسى والأنبياء..."، أي أنه ينبغي علينا أن نراعي الناموس ونطيع أنبياء كل عصر.

النبي هو شخص يرى بنعمة الله أسرار الدهر الآتي، كما أنه يكون قد تذوق بالفعل ملكوت السموات. يوجد العديد من أولئك الأنبياء في كل من العهدين القديم والجديد. لقد تلقوا هم أنفسهم الوحي، وعاشوا ملكوت الله بأنفسهم واعتادوا على أسراره ثم أعلنوها للناس.

يقوم الأنبياء، مثلهم مثل اللاهوتيين الحقيقيين والآباء الروحيين، بتجديد الناس وقيادتهم نحو الحياة. فالإرشاد الروحي يرتبط بإعادة الولادة الروحية للإنسان.

إننا في الواقع لا نستطيع أن نتجدد ما لم نرتبط بشخص متحد بالله، أي بنبي. وحتى في أيامنا هذه يوجد أنبياء يكرزون بالتوبة، ويحوِّلون قلوبنا نحوالله ويوصون بطريقة تفكير وحياة مختلفة. وحتى لو لم نستطع الالتقاء بمثل هذا النبي فلدينا كلمات الأنبياء التي نستطيع قراءتها فنتعلم ما هو ملكوت السموات وما ينبغي علينا فعله لكي نحصل عليه.

لقد قمنا هنا ببلورة هذه الأفكار العامة التي هي نقاط رئيسية في علم الأخرويات الأرثوذكسي. وفعلنا ذلك بطريقة مختصرة بسيطة. ويمكن للقارىء أن يجد تفاصيل تحليلية لهذه المواضيع مدعمة بتعاليم الآباء القديسين في الفصول التالية. كما أنه سوف يستطيع أيضاً أن يفهم ما سيقرأه بمساعدة هذه النقاط الرئيسية.

الباب الثاني

انفصال النفس عن الجسد

إنني أعتقد أن هذا الباب مهم جداً لأنه يضع أساس ما نحتاج أن نعرفه عن النفس والحياة بعد الموت. فسوف نرى هنا ماهية النفس، وكيف خُلقت، وكيف تتم المحافظة على الشخصية بعد انفصال النفس عن الجسد، وما هي المحطات الجمركية التي تكلمت عنها نصوص الآباء، بالإضافة إلى حقائق أخرى. وهكذا يكون هذا الباب مهماً جداً، ويشكل أساس موضوع "الحياة بعد الموت".

١- تعريف النفس

إنه ليس أمراً ضرورياً أن نتوقف طويلاً عند هذه النقطة، لأن القارئ يستطيع أن يرجع للدراسات الموجودة عنها في كتبي الأخرى[١]. ولكن ينبغي علينا هنا أن نؤكد على الأمور الرئيسية بالأكثر لكي تقودنا هذه الأمور لموضوعنا.

يُعرِّف القديس غريغوريوس النيصي النفس على أنها جوهر مخلوق، فهي جوهر حي وعاقل، وهي تعطي بذاتها قوة الحياة للجسد العضوي والحسي، كما تعطيه استقبال انطباعات الحياة طالما أن الطبيعة التي تستطيع استقبال تلك الانطباعات تحافظ على وجودها[٢]. والنفس تجلب قوة حيوية داخل الجسد لكي تنشط الحياة[٣]. وهذا يعني أن الجسد يتحرك بواسطة قوة وطاقة النفس. تكون النفس إذاً مخلوقة، ومولودة، ومصنوعة من قِبَل الله، وهي كيان حي، وتنقل الحياة للجسد بمساعدة قوى الله، طالما أن اتحاد النفس والجسد لا يزال قائماً.

يعطينا نيكيتا ستيثاتوس تعريفاً كاملاً للنفس فيكتب قائلاً: "إن جوهر النفس، كما وصفه آخرون أيضاً بصورة رائعة، هو جوهر بسيط، غير حسي، حي، غير مائت، غير مرئي، لا يُرى بأعين الجسد، ذكي وعاقل، بلا شكل، مُقتَنٍ بواسطة جسد عضوي، وبالتالي منتج لحركة حيوية ونمو وإحساس وتكاثر، وهو ذو نوس يُعتبر أنقى جزء فيه، وهو أب ووالد للكلمة. كما أن جوهر النفس مستقل بالطبيعة، وله إرادة، وهو نشط ومتغير لأنه أيضاً مخلوق"[٤].

---

[1]- See Bishop of Nafpaktos Hierotheos: Orthodox Psychotherapy, ed. Birth of the Theotokos Monastery, 1994, p. 97ff.

[2]- Gregory of Nyssa: On the Soul and the Resurrection , ch. 6. SVS 1993, p. 37f.

[3] - Ibid. ch. 3, p. 49.

[4] - Nicetas Stethatos: Mystika syggrammata, Pan. Christou, Thessaloniki 1957 , p. 98 (Gk).

يُظهر هذا التعريف عدة حقائق. أول كل شيء هو أن النفس مخلوقة، ومصنوعة من قِبَل الله. ويظهر هذا في حقيقة كونها متغيرة، ومستقلة، ولديها إمكانية اختيار الخير والشر؛ وإمكانية الاختيار التي تشكل ما يسمى الإرادة الأخلاقية هي سمة مميزة لكونها مخلوقة، وبالتالي تشكل عدم كمال الطبيعة بالمقارنة بالله غير المخلوق.

الموضوع التالي الذي سوف نقدمه هنا هو علم الوجود الخاص بالنفس. تكون النفس غير مرئية لأعين الجسد، وهي غير جسدانية وبسيطة. فلا يستطيع أحد أن يرى النفس بأعينه الجسدية، وهذا يعني أنها عاقلة، وأنها بسيطة مقارنة بالجسد. إن جسد الإنسان مركب ومصنوع من عدة عناصر: الماء، والهواء، والتراب، والنار كما يظهر ذلك في كتابات الفلاسفة القدماء. وهذا هو السبب الذي يجعل الجسد يتحلل إلى العناصر التي تكونه بعد أن تغادره النفس. يعني كون النفس بسيطة أنها غير مركبة من عناصر مختلفة، وهذا هو السبب الذي يجعلها لا تتحلل بعد مغادرتها للجسد.

وعلى الرغم من كون النفس بسيطة وغير منقسمة، إلا أن لها عدة قوى. فالنوس* هو أنقى جزء في النفس وهو يكشف أو يسلّط الضوء على الكلمة. وبالتالي تكون النفس ذكية وعاقلة. وتعطي النفس للجسد الحياة والحركة والإحساس والطاقة بسبب قواها وطاقاتها. وهكذا يتكون الجسد ويُحكم بواسطة النفس. وهو لا يحتوي النفس ببساطة، بمعنى أن الجسد ليس سجناً للنفس كما قال الفلاسفة القدماء، ولكن تعطي النفس الحياة للجسد وتحكمه. هذا هو السبب الذي يجعل الجسد يموت وينحل بمجرد أن تغادره النفس بناء على إرادة الله.

٢- خلق النفس وتكوينها

خلق النفس هو أحد المواضيع الرئيسية التي شغلت كلاً من الفلاسفة القدماء واللاهوتيين الأوائل. وبوجه عام توجد ثلاثة نظريات مقترحة عن منشأ النفس[5].

* فضلنا استعمال كلمة "نوس" Nous كما هي نظراً لعدم وجود كلمة في اللغة العربية تعبر عن الترجمة الدقيقة للكلمة. فتارة يرى النوس وكأنه هو النفس، وتارة يرى على أنه واحداً من قواها. ويرى في مرات وكأنه عين النفس وفي مرات أخرى وكأنه جوهرها. والنوس ليس هو العقل فإظلام النوس يؤدي إلى مرض روحي على حين أن إظلام العقل يؤدي إلى مرض نفسي (المترجمة).

5 - See Athenagorou Kokkinaki's introduction to the works of Gregory of Nyssa, EPE 1, p. 84 (Gk).

تنادي النظرية الأولى والتي وضعها أفلاطون بالوجود السابق للنفس. وتنص على أن النفس تنتمي لعالم الأفكار، وبالتالي كانت موجودة قبل الجسد. وبعد سقوطها من عالم الأفكار، انحبست في الجسد كما في سجن. وارتبطت أيضاً نظرية تناسخ الأرواح بنظرية الوجود السابق للنفس. ولقد رفضت الكنيسة كلاً من نظرية الوجود السابق للنفس ونظرية تناسخ الأرواح التي تنادي برجوع النفس ثانية لجسد آخر حتى تتطهر. لقد قام القديس غريغوريوس النيصي بنقد الرأي القائل أن النفس موجودة سابقاً وأنها محبوسة في الجسد بسبب ميلها نحو الشر. وبحسب هذا المفهوم لا يمكن خلق لا إنسان ولا حيوان ما لم تدخل فيه نفس. ولكن حيث أن دخول النفس في الجسد يتطلب سقوطها من عالم الأفكار، وحيث أن الشر هو سبب السقوط، فهذا يعني أن الشر هو بداية تكوين المخلوقات. على كل حال، ليس لهذه النظرية أي أساس من الصحة، وهي نظرية خادعة ومنحرفة لأننا نؤمن أن الله، وليس الشر والخطية، هو علة الخليقة[6]. **ليس الشر أقدم من الحياة، فحكمة الله هي بداية الحياة[7].**

لا تقتضي فكرة عدم وجود النفس قبل الجسد أن تكون مخلوقة بعده وأن تكون أحدث منه، لأنه ما من أحد يؤمن أن الجسد يقتني في ذاته طاقة للحركة والنمو. وهذا يعني أن الجسد يُعطَى حياة وحركة فقط من خلال النفس التي لها طاقة حياة وحركة. وبالتالي نؤمن في الكنيسة الأرثوذكسية أن النفس والجسد مخلوقان من قِبَل الله في نفس الوقت. "للنفس والجسد بداية واحدة متماثلة"[8].

تنمو الشجرة عندما يوضع فرع مقطوع من الجذر في الأرض. وتماماً مثلما لا تمنح الأرض طاقة وقوة، لكنها تعطي فرصة للنمو، هكذا الحال في هذا الأمر أيضاً. يعطي الجسد الفرصة للنفس لكي تعطي الحياة والحركة. وتزداد قوة النفس بنمو الجسد، تماماً كما تنمو بالتدريج نحو الكمال قوة بذرة النبات.

في البداية تُظهر النفس في الجنين في رحم الأم قوة التغذية والنمو، ثم تعطي نعمة الإدراك الحسي للمواليد الخارجين للنور، وأخيراً تظهر قوة التفكير كثمرة تنمو بالتدريج. وهكذا نؤكد على أن الإنسان مكون من وجود النفس والجسد في نفس الوقت دون وجود سابق لأي من الجسد والنفس[9].

---

[6] - Gregory of Nyssa: On the Soul and the Resurrection, ch. 8, SVS p. 94.
[7] - Ibid. p. 96.
[8] - Ibid. ch. 9, p. 100.
[9] - Ibid.

النظرية الثانية لخلق النفس هي نظرية النقل والتي تنادي بأن "نفس الطفل تكون مثل فرع ينبت من نفس الوالدين". لقد تبنى الفلاسفة الأبيقوريون والعديد من الهراطقة القدماء هذه النظرية. على حين أننا لا نستطيع أن نقبل الرأي المنادي بأن نفس الجنين هي "جزء من نفس الوالدين كما لو كانت برعماً من فرع آدم". ففي كل مرة يُحبَل بجنين يحدث تكرار للخلق الأول ولتكوين آدم. لقد كون الله جسد آدم ثم نفخ فيه "فصار آدم نفساً حية" (تك ٢: ٧). يحدث نفس الشيء الآن أيضاً مع الفارق في أنه بدلاً من أن يأخذ الله تراباً من الأرض فإنه يأخذ حيواناً منوياً من الرجل وبويضة من المرأة وفي الحال تنغرس فيهما نفساً. يوجد تعليم رئيسي في الكنيسة أن الله يوجه العالم بنفسه. **وبالتالي لا تكون النفس تدفقاً من نفس الوالدين، ولا هي عابرة من وجودهما، ولكنها مخلوقة من قبل الله.**

ينبغي علينا أيضاً في هذه النقطة أن نذكر نظرية تبناها العديد من الفلاسفة القدماء والهراطقة، وهي مرتبطة بما نقوله هنا عن النظرية الأولى المنادية بوجود سابق للنفس. وقد حلل القديس غريغوريوس النيصي هذه النظرية ودحضها.

لقد قلنا بالفعل أنه بحسب نظرية أفلاطون فإن النفوس تنتمي لعالم الأفكار، وهي محبوسة في الأجساد بسبب سقوطها. يوجد إذاً هراطقة ينادون بأن النفوس التي سقطت من عالم الأفكار تتابع العلاقة الجنسية للأزواج بهدف الدخول في أجسادهم لكي تولد. يرى القديس غريغوريوس النيصي أن هذه النظرية منافية للعقل. لأنه لو رفض الزوج العلاقة الجنسية، وتحررت الزوجة من ضرورة الولادة، فإن الشر سيثقل النفس. ولو كانت هذه هي الطريقة التي تسير بها الأمور، لكان الزواج فرصة للشر لكي يعمل على النفوس، أو حتى بدون وجود زواج لاستطاع الشر التأثير على النفوس.

توجد أيضاً مشكلة أخرى. فلو قُطِعَت نفس من الجنة بسبب شرها، ولم تجد جسداً تدخل فيه، فإنها سوف تهيم "مثل لاجئ بلا مأوى في نوع من السجن"، وسوف تستمر في التجوال دون أن تجد مكاناً لإقامتها. هذا هو بالضبط ما يجعلنا نحكم على هذا الرأي بأنه منافٍ للعقل وغير منطقي[10].

النظرية الثالثة عن وجود النفس تخص خلقها. وهي تنادي بأن الله يخلق النفس في نفس وقت تكوين الجسد، وتظهر أو تُعَبِّر عن نفسها بتناسق مع نمو جسد الجنين

---

[10] - Ibid. ch. 8, p. 95.

والطفل والشخص بوجه عام. هذا هو الرأي الآبائي والأرثوذكسي الخاص بوجود النفس. ومن ضمن الكثيرين، يدعم القديس كيرلس السكندري هذا الرأي. وهكذا تكون النفس غير مادية، ومخلوقة من قبل الله، وهي ليست جزءاً من جوهر الله، ولكن يخلقها الله بواسطة الروح القدس. فالنفس هي خليقة ومخلوقة.

٣- الموت والخطية الجدية

عندما نتحدث عن الموت والخطية الجدية، فإننا لا نعني أن الموت أتى في البداية كشيئ موروث في الطبيعة البشرية ثم تبعته الخطية الجدية. ولكننا نعني أن الموت ارتبط ارتباطاً وثيقاً بخطية أبينا الأول آدم كنتيجة لها. وبالتالي يجب علينا أن نتكلم عن الموت في هذه النقطة، والذي لم يكن في البداية أمراً طبيعياً للإنسان، ولكنه دخل إلى الطبيعة البشرية وبالتالي يعمل كما لو كان متطفلاً.

يكرر الكتاب المقدس أن الله لم يصنع الموت، ولكن الموت دخل إلى العالم بواسطة خطية آدم. أود هنا أن أذكر نصين كتابيين.

النص الأول هو من العهد القديم ويقول: "إذ ليس الموت من صنع الله ولا هلاك الأحياء يسره. لأنه إنما خلق الجميع للبقاء فمواليد العالم إنما كونت معافاة وليس فيها سم مهلك ولا ولاية للجحيم على الأرض لأن البر خالد" (حك ١: ١٣-١٥). من غير المستحيل أن ينبعث الشر من الله طالما أن الله خير. ولهذا عندما خلق الله الإنسان لم يخلقه لكي يموت. وكما نرى في التقليد الآبائي، فمن الطبيعي أنه لم يصنعه لا مائتاً ولا غير مائت، ولكن صنعه بإمكانية أن يصبح مائتاً أو غير مائت.

والنص الثاني هو من رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية: "... كأنما بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم وبالخطية الموت وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس... لكن قد ملك الموت من آدم إلى موسى" (رو٥: ١٢-١٤). يُرى الموت في هذا النص على أنه دخيل ومتطفل على الطبيعة البشرية، ونتيجة وثمرة لخطية آدم. يتعلق الأمر إذاً بالموت الذي دخل إلى الطبيعة البشرية، وبالتالي اجتاز إلى كل الخليقة.

الخطية التي تولد منها الموت هي سقوط آدم في فردوس النعيم. عندما أمر الله الإنسان الأول ألا يأكل من الثمرة المحرمة أعلمه في نفس الوقت: "لأنك يوم تأكل منها

موتاً تموت" (تك ٢:١٧). وبعد هذه الخطية، دخل الموت إلى الطبيعة البشرية، أولاً الموت الروحي الذي هو انفصال الإنسان عن الله، ثم الموت الجسدي الذي هو انفصال النفس عن الجسد في الوقت المعين. لقد مات آدم روحياً في اليوم الذي أخطأ فيه، ومات جسدياً أيضاً ولكن بطريقة أبطأ.

على حين أن هذا هو موقف الكتاب المقدس من الموت، وعلى حين يشترك الآباء القديسون في هذه الرؤية، إلا أن علم اللاهوت الغربي يتطلع للأمور بطريقة مختلفة كما سنرى فيما يلي. ينظر علم اللاهوت الغربي للموت على أنه طريقة الله لعقاب الإنسان بسبب خطيته، ويرى ميراث الموت في كل الجنس البشري كميراث للذنب. لقد دحض الأب جون رومانيدس هذه الآراء الخاطئة التي لعلم اللاهوت الغربي في دراسة أصيلة ومهمة، كما قدم تعليم الآباء القديسين عن هذه الأمور[11].

يتبع علماء اللاهوت الغربيون افتراضات أوغسطينوس، وبالتالي يرون الموت كنتيجة لقرار الله أن ينظر للإنسان كمذنب وأن يعاقب الجنس البشري على الخطية التي ارتكبها آدم. ويرى بعض البروتستانت الموت على أنه حقيقة بسيطة، ولكن تقودهم مثل هذه المفاهيم لاستنتاج أن الله هو علة الموت[12].

توجد رؤية أخرى أيضاً مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بهذا المفهوم، وهي النظرية القائلة أن الشيطان هو أداة الله في تنفيذ قراره بمعاقبة الجنس البشري. لا يستطيع علم اللاهوت الغربي بمثل هذه المفاهيم والآراء أن يعطي شرحاً سليماً للغرض من تجسد المسيح، الذي هو التغلب على قوة الشيطان والموت. كما أنه لا يستطيع أن يفسر بطريقة سليمة الغرض من الأسرار ومن كل الحياة الكنسية.

يبدو في تعليم الآباء كما قلنا أن الموت ليس عقاباً من الله ولكنه ثمرة ونتيجة لخطية آدم. يُستعمل تعبير "موت" لكي نعني عزلة وانفصال الإنسان عن الله الذي فيه الحياة الحقيقية. وبالتالي فإن أي شخص يبتعد عن الحياة أي عن الله فإنه يموت. وكما يؤكد القديس غريغوريوس بالاماس في هذا المعنى قائلاً: "إن أول من عانى هذا الموت هو إبليس الذي ابتعد عن الله بسبب عصيانه. لقد نقل الشيطان المائت الموت إلى الإنسان أيضاً، لأن الإنسان استمع لنصيحته وعصى الله وفقد نعمته"[13].

---

[11] - See John Romanides: The Ancestral Sin, ed. Domos 1989 (Gk).
[12] - Ibid. p. 7f.
[13] - Gregory Palamas: Homily 16. EPE 9, p. 434ff (GK).

يقول القديس مكسيموس المعترف أننا عندما نتكلم عن الموت فإننا نعني بصورة رئيسية الانفصال عن الله. ويحدث هذا الانفصال من خلال الخطية، فالخطية هي إذاً مركز الموت. ولأن الإنسان لم يُطع وصية الله، ولأنه ابتعد عن الله "كان من الضروري أن يتبع ذلك موت الجسد"[١٤].

يرى أيضاً القديس يوحنا الدمشقي الأشياء في ضوء ذلك. فهو يؤكد على أن أصل كل الناس هو من الله، ولكن الفساد ونتيجته، الذي هو الموت، يأتي من شرنا الخاص. "لقد أتى الموت مع عقوبات أخرى من خلال الإنسان، أي من خلال تعدي آدم". خلق الإنسان هو إذاً عمل قوة الله الخالقة، واستمرار حياتنا هو عمل قواه المانحة للتماسك. والموت هو نتيجة اختيارنا الخاص ونتيجة الشر، وهو ليس عقوبة وفعل من الله[١٥].

بحسب القديس يوحنا الدمشقي دخل الموت إلى العالم "مثل حيوان مفترس متوحش لكي يدمر حياة الإنسان"[١٦]. هذا تشبيه جميل جداً ويعبِّر بصورة حية عن الحقيقة بجملتها. في الواقع، يشبه الموت حيواناً متوحشاً غير مروَّض يتلف ويدمر حياة الناس. ونحن جميعاً نتذوق بحق وحشية الموت عندما يموت أحباؤنا.

يتكلم القديس غريغوريوس بالاماس بصورة تفصيلية وبدقة رائعة كما رأينا ذلك في رأيه الجوهري في موضوعنا. عندما سمعت حواء نصيحة الشيطان المكار "رأت، واشتهت، وأكلت، وماتت، وأغوت الرجل، وصنعت لها شريكاً في كل من الأكل والسقوط"[١٧].

بالطبع عندما نقول أن آدم مات فإننا لا نعني أن الطبيعة البشرية قد دُمرت تدميراً تاماً. ولكن لأنه اختبر أولاً الموت الروحي، فإنه اختبر الموت الجسدي بعد ذلك، ولكن دون أن يؤول ذلك إلى عدم الوجود. لقد انفصل الإنسان عن الله، واهتز بهذه النتائج ولكن دون أن يُدَمَر كلية. وكما يخبرنا القديس مقاريوس المصري بطريقة مميزة: "ومع ذلك نحن لا نقول أنه ضاع تماماً وأُبيد من الوجود ومات. لقد مات بمقدار ما اختلّت علاقته بالله، ولكنه لا يزال يعيش في طبيعته"[١٨].

---

14 - Second Century on Love, 93, Philokalia 2, ed. Faber, p. 81.
15 - John of Damascus: The Orthodox Faith, BK, 2, 28. FC37, p. 259.
16 - Ibid. BK. 3, 1, p. 268.
17 - Gregory Palamas: Homily 40, EPE 10, P. 542 (GK).
18 - Macarius of Egypt: Homily 12, 2, CWS p. 97.

بعد سقوط آدم، ألبسه الله من خلال محبته وشفقته، أقمصة من جلد. إننا نرى في تعليم الآباء أن أقمصة الجلد هذه هي الفساد والموت الذي دخل جسد الإنسان بعد خطيته. ويتكون الفساد من الأمراض، والضعفات، وصعوبات الحياة الإنسانية، وكيفية الحبل به، والحمل به في الرحم، وولادته، وأخيراً مسيرته نحو الموت[١٩]. **في الواقع تكون حياة الإنسان بجملتها سلسلة من ميتات متوالية، فهي موت بطيء**[٢٠].

من الواضح مما قلناه حتى الآن أن سبب الموت ليس الله، ولكن الخطية التي ارتكبها الإنسان الأول في الفردوس بحرية اختياره. **لكن من الواضح في تعليم الآباء أن الله سمح بدخول الموت إلى الطبيعة البشرية من حبه ومحبته للبشر.**

أول كل شيء، نستطيع أن نقول أنه على الفور بعد خطية آدم كان من المحتمل أن يموت الجسد أيضاً. لكن الله سمح له أن يعيش حتى بعد الخطية "مانحاً له طريقاً للتوبة" وإمكانية تحقيق حياة روحية[٢١]. **وبالتالي أصبحت كل الآلام المرتبطة بالفساد والموت فرصاً للاشتياق للحياة العليا ولتحقيق الشركة مع الله.**

وبحسب القديس باسيليوس الكبير، سمح الله بالموت لكي لا يبقى الإنسان إلى الأبد في موت حي[٢٢]. لقد بلورت الكنيسة هذه الرؤية في صلاة الحلّ التي يصليها الأسقف في خدمة الجناز. فهو يقول من ضمن أشياء أخرى أن **الله في محبته لجنس البشر، ولكي لا يصبح الشر أبدياً خالداً، سمح لرباط النفس والجسد غير القابل للكسر أن ينحل بإرادته، أي أنه سمح للموت أن يحدث**[٢٣].

ينبغي علينا أيضاً أن نقول شيئاً عن مشكلة ميراث الموت، لأنه يوجد اختلاف على هذه النقطة أيضاً بين علم اللاهوت الغربي وعلم اللاهوت الشرقي. فبحسب المفهوم الغربي يكون ميراث الموت هو ميراث الذنب؛ كما لو كان كل شخص قد أخطأ في شخص آدم وبالتالي يكون كل واحد هو المتسبب في موته الخاص. ولكن في تعليم الآباء القديسين، **لا يتعلق الأمر بميراث الذنب ولكن بميراث نتيجة خطية آدم والتي هي**

---

19 - See Panagiotis Nellas: Deification in Christ, p. 48, etc.
20 - Georgios Mantzaridis: Palamika, p. 49. (GK), cf. Mantzaridis: The Deification of Man, SVS 1984, pp. 22ff.
21 - Gregory Palamas: To the nun Xenia, Philokalia 4, p. 299.
22 - Basil the Great. Homily: That God is not the cause of evils, PG. 31, 345 ab.
23 - Mikron Euchologion, Apostolic Diaconate 1972, p. 213. (GK), cf. Service book, comp. I. F. Hapgood, 4th ed., p. 366

الفساد والموت. وبمقدار ما ضعفت الطبيعة البشرية بواسطة خطية آدم، بمقدار ما أصبح من الطبيعي أن كل شخص لكونه جزءاً لا يتجزأ من هذه الطبيعة لا يستطيع أن يهرب من الفساد الذي سيطر عليها. بالإضافة إلى ذلك، يوجد رباط لا ينحلّ بين كل الخطايا والأهواء من جهة، والفساد والموت من جهة أخرى. بالتالي، ليس الموت نتيجة للخطية فقط ولكنه سبب لها أيضاً. ويأتي هذا القول الأخير من وجهة نظر أن الفساد والموت اللذين نرثهما من آبائنا يتسببان في تكوين الأهواء العديدة مثل التهاون، البخل، محبة المجد الباطل؛ وبوجه عام يتسبب الموت في وقوعنا في العديد من الخطايا[٢٤]. إننا نستطيع بهذه الافتراضات أن نتكلم عن انتقال الموت وليس ببساطة عن انتقال الذنب كما يتمسك بذلك علم اللاهوت الغربي.

لقد تمسك أوغسطينوس، الذي كان له تأثيراً عظيماً على علم اللاهوت الغربي النظري وعلى موضوع ميراث الموت، بأننا نرث كل خطية آدم؛ على حين أنه من الواضح في تقليد الآباء أننا نرث نتائج الخطية التي هي الفساد والموت، وتنتقل تلك عند ميلاد الجسد. وبحسب القديس يوحنا ذهبي الفم، يكون الميراث البيولوجي للفساد الذي دخل إلى الطبيعة البشرية لنسل آدم مبرراً. "وهو إذ صار فاسداً، هكذا أيضاً صار الأولاد الذين أنجبهم". يقول القديس كيرلس السكندري نفس الشيء: "بعد السقوط في ذلك (الموت) أنجبا أطفالاً. ولكونهم ثمرة آتية من فساد، فإنهم أُنجِبوا فاسدين"[٢٥]. وفي الحقيقة يشير القديس يوحنا ذهبي الفم إلى أننا نعمد حتى الأطفال "على الرغم من كونهم بلا خطية"، بحيث قد يُضاف "التقديس، والبر، والتبني، والميراث، والعضوية في أخوية المسيح، والصيرورة كمسكن للروح"[٢٦].

لقد كان الهدف من تجسد المسيح هو تدمير الموت والخطية، وهزيمة الشيطان. وفي الحقيقة، اتخذ المسيح جسداً مائتاً وضعيفاً لكي يهزم الموت. فقد غلب الموت من خلال صلبه وقيامته، وأعطى الإنسان أن يغلبه هو نفسه في حياته الشخصية بعد أن يتحد به. ويتحقق هذا الهدف من خلال **أسرار الكنيسة التي لا تحرر الإنسان مما يسمى الشعور النفسي بالذنب، ولا هي تستعطف الله عن خطية آدم، ولكنها تهزم الموت.**

---

[24] - See Romanides op. cit. p. 158ff (GK).

[25] - Theodorou Zisi: Man and world in God's economy according to John Chrysostom, Thessaloniki 1971, p. 120 and note 7 (Gk).

[26] - Ibid. p. 119.

إننا نصبح من خلال المعمودية أعضاءاً في جسد المسيح القائم، ومن خـــلال التنـــاول المقدس من جسد ودم المسيح نتناول دواء عدم الموت. ليست النفس فقط هي التي تتحد بالله، ولكن الجسد أيضاً يتلقى شعوراً بهذا التغيير الداخلي وبتحول النفس. ويُرى ذلك بوضوح في رفات قديسي الكنيسة.

وبالطبع توجد حقيقة عميقة المعنى، وهي أنه **حتى بعـــد المعموديـــة والتنـــاول المقدس يبقى الموت.** لأنه، كما يشرح القديس مكسيموس المعترف، ما حدث في حياة المسيح يحدث هنا أيضاً. ففي ولادة المسيح التي هي بلا خطية بقي فساد جسده من أجل غرض معين، وهو أنه بفضل آلامه المخلصة يستطيع أن يهزم الموت. وهكذا، تبقى طبيعة الشخص المعمد قابلة للهلاك بعد المعمودية ليس كعقاب لطبيعته الخاطئة، ولكن كوسيلة لإدانة الخطية والقضاء عليها[٢٧]. يصبح الإنسان بواسطة المعمودية، ومن خـــلال حريـــة إرادته قادراً على محاربة الخطية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بهلاك وموت جسده. ومن هـــذا المنطلق، يكون خلاص الإنسان عملية إلهية، ولكنه أيضاً تعاون بشري.

إن كل هذه الأمور التي قدمناها حتى الآن مذكورة بوضوح شـــديد في رســـالة بولس الرسول إلى أهل رومية. ولكوننا لا نستطيع أن نقدم هنا تحليلاً مستفيضاً لكل ما يقوله الرسول، فسوف نؤكد باختصار على نقاط قليلة.

النص التالي هو الذي يقدم تلك الحقيقة: "فإني أُسَر بناموس الله بحسب الإنسان الباطن ولكني أرى ناموساً آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهني ويســـبيني إلى نـــاموس الخطية الكائن في أعضائي. ويحي أنا الإنسان الشقي من ينقذني من جسد هذا المـــوت. أشكر الله بيسوع المسيح ربنا"(رو٧: ٢٢-٢٥).

لو درس أحد بعناية الإطار الذي قيلت فيه هذه الأشياء، فإنه سوف يقتنع بـــأن الرسول يشير هنا إلى زمن الناموس عندما كان يحاول من خلال نـــاموس الله أن يحـــرر نفسه من ناموس الخطية ولم يستطع. ولكنه نجح في ذلك بقوة المسيح المتجسد. وهكذا، نستطيع أن نرى هنا قيمة المسيح المتجسد بالمقارنة بناموس العهد القديم، وأننا نخلـــص ليس بطاعة الناموس ببساطة، ولكن بالاشتراك في قيامة المسيح في حياتنا الشخصية.

---

[27] - Artemiou Rantosavlievits: The mystery of salvation according to Maximus the Confessor, Athens, 1975, p. 109 (GK).

من الواضح في النص الذي استشهدنا به أن الإنسان الباطني يخدم ناموس الله ويُسر به، مما يعني أنه يقتني الصلاة الداخلية والاستنارة النوسية. ونحن نعلم جيداً أن رجال العهد القديم الأبرار اقتنعوا أيضاً بالصلاة الداخلية. فالإنسان يتنقى من الأهواء بواسطة الناموس ويصل لتذكر الله الدائم.

ولكن بينما يُسَر الإنسان الباطني بناموس الله فإنه في نفس الوقت يشعر بناموس الخطية في أعضائه. وناموس الخطية هذا هو الفساد والموت الذي خلق فرصاً للخطية لكي تأخذ اليد العليا. تساعد الأمراض، والضيقات، وعملية الموت ورحلته أهواء النفس على التعبير عن نفسها على عكس الطبيعة، كما أنها تعطي الشيطان فرصة لكي يشن حرباً ضد الإنسان. وهذا هو بالضبط ما يتحمله القديسون. ولذلك يعبر الرسول عن مراثي كل أناس العهد القديم الأبرار الذين وجدوا أنفسهم تحت سلطان الموت وغير قادرين على تحرير أنفسهم بواسطة الناموس عندما قال: "ويحي أنا الإنسان الشقي من ينقذني من جسد هذا الموت".

يأتي هذا التحرر مع تجسد المسيح ومع آلامه وقيامته التي يختبرها الإنسان في الكنيسة التي هي جسد المسيح. وهذا هو السبب الذي يجعله محتاجاً إلى تقديم الشكر القلبي لله. ثم بعد ذلك يقول الرسول: "لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية والموت"(رو٨:٢). فالمسيح فعل ما لم يستطع الناموس أن يفعله بإدانته الخطية والموت في جسده (رو ٨:٣) وبالتالي صار الإنسان ودُعي "روحانياً".

ولكي نكمل موضوع الموت ينبغي علينا أن نقول أن الموت لم يُخلَق بواسطة الله، بمعنى أن الإنسان لم يُخلَق من قِبَل الله ككيان مائت. **ولكن الموت دخل إلى الطبيعة البشرية كدخيل بعد خطية آدم من خلال صبر ومحبة الله. لأنه بفضل الموت لا يستطيع الشر أن يبقى خالداً وأبدياً.** الموت يُوَرَث بسبب ضعف الطبيعة البشرية وليس كذنب الإنسان وكعقاب الله. وفي الوقت المعين، ومن خلال تجسد ابنه، أعطى الله للإنسان إمكانية القضاء على الموت. لقد تم القضاء على الموت الروحي أولاً عندما اتحد الإنسان بجسد المسيح القائم بواسطة الأسرار، ثم بعد ذلك تحرر من الموت الجسدي أيضاً.

٤- سر رحيل النفس عن الجسد

يُسمى الموت في تقليد الكنيسة سراً. وفي الحقيقة هو ليس سراً بمعنى الأسرار التي نشترك بواسطتها في نعمة الله غير المخلوقة، ولكنه سر من منظور أنه في ساعة الموت وما يليها تحدث أمور غامضة لا يستطيع عقل الإنسان أن يعيها بعد.

بالإضافة إلى ذلك، يكمن سر الموت في حقيقة أن وحدة النفس بالجسد تنحل. إننا نعلم جيداً من تعليم كنيستنا أنه توجد رابطة وثيقة ووحدة عظيمة بين النفس والجسد. لقد وجدت هذه الوحدة مع خلقة الإنسان فور الحبل به في رحم أمه، وهي تستمر حتى ساعة موته. الإنسان هو كيان نفسجسماني، مما يعني أن نفسه لا تكوِّن الإنسان بجملته ولا جسده أيضاً. وبالتالي تحدث أمور سرية في اللحظة التي تنفصل فيها النفس عن الجسد بالموت. **فالنفس لم تَعِش قبل خلق الجسد وبالتالي هي لا تريد أن تعيش بدونه. تُقهَر النفس لكي ترحل عن الجسد بالقوة، وهذا هو سر الموت.**

نحن بالطبع نجد أن سر الموت هو أمر رهيب لأنه يكسر الوحدة بين الأحباء حيث أننا نفقد شخصاً نحبه. إنه حقيقة كبرى يختبرها أولئك الذين فقدوا أحباءهم. **ولكن لا ينبغي علينا أن ننسى أن الأمر المروع من جهة الموت هو أن انفصال النفس عن الجسد يأتي رغماً عنا.**

إننا نرى هذه الحقيقة بوضوح في التسبحة التي كتبها القديس يوحنا الدمشقي والتي تُرتَل في خدمة الجناز عند رحيل النفس عن الجسد. إنه يقول: "إن الأمر الأكثر رعباً هو بحق سر الموت، وكيف تُقهَر النفس لكي تغادر الجسد وتغادر تآلفها وتقطع الرابطة الطبيعية جداً بالإرادة الإلهية"[٢٨].

تظهر هنا العديد من الحقائق العظمى. الأولى هي وجود رابطة قوية وطبيعية جداً بين النفس والجسد ووجود تآلف عظيم بينهما. والحقيقة الثانية هي أن هذه العلاقة تنحل بالقوة، وهذه القوة هي التي تشكل سر الموت الرهيب. وبالتالي، كما سنرى فيما بعد، تضطرب النفس وترتعب. والحقيقة الثالثة هي أن هذا الفصل يحدث بإرادة الله. ليس الله هو سبب الموت، ولكنه سمح له بأن يدخل إلى حياة الإنسان لأنه لا شيء يحدث في العالم بدون إرادته.

---

[28] - Funeral service, tone 4, Mikron Euchologion p. 205 (GK).

تكون إذاً ساعة الموت رهيبة لكل أحد. والشيء المروع عن الموت ليس أنه يتعين علينا أن نترك هذا العالم الذي ارتبطنا به، ولكن حقيقة أن أسراراً عديدة تبدأ في العمل، والتي لم نستطع إدراكها من قبل بسبب كثافة حواس أجسادنا.

في هذا الوقت الحرج يفهم الشخص نفسه جيداً دون أن يكون قد استعد لذلك؛ فتظهر أمامه كل الحياة التي عاشها مثل فيلم صور متحركة. يقول القديس يوحنا السلمي أن المفتخرين الذين كانوا يظنون في أنفسهم أهم بلا أهواء "يكتشفون مدى فقرهم فقط بعد موهم"[29]. وهذا يعني أن المفتخرين يرون عندئذ فقرهم الروحي. وكم بالأكثر يكون أولئك الذين انخرطوا في العديد من الأعمال الأخرى التي فعلوها بواسطة قوى نفوسهم وأجسادهم. يقول أب معاصر مبجل أنه عند ساعة الموت سوف يرى المرء حتى أصغر الأعمال التي عملها في حياته تماماً كما يرى المرء شائبة صغيرة في كوب ماء في جزء من الثانية.

ولكن يأتي الخوف في مواجهة سر الموت من حقيقة أن الشخص يبدأ حياة جديدة ترتبط بالطبع بالحالة الداخلية لنفسه وجسده. وبحسب القديس ثيئوغنسطس تكون ساعة الموت ميلاداً جديداً حيث يخرج الشخص، وبالأخص البار، كما لو كان من رحم ثانٍ مظلم ويدخل إلى عالم روحاني منير. وبالتالي ينصح الشخص أن يبتهج طالما أنه يُحمَل خلال الموت نحو تكميل رجائه. ولكنه بالإضافة إلى ذلك ينصحه أيضاً أن يكون يقظاً "بسبب الشياطين الشريرة التي تحيط بنا" والتي تحاول إيذاءنا حتى آخر لحظة. لذلك ينبغي على الشخص أن يبتهج لأنه يُقاد إلى نعيم البركات الأبدية، ولكن ينبغي عليه أيضاً أن يكون صاحياً ويقظاً بسبب الشك فيما هو آتٍ طالما أنه عرضة للتغيير بهذه الدرجة[30].

بحسب شهادة رجال قديسين يمر المرء بالعديد من الخبرات، ليس فقط بعد أن تغادر نفسه جسده، ولكن أيضاً عند اقتراب رحيل نفسه. تكون هذه الحالات حقيقية حيث أن الشخص يكون على الحافة، بمعنى أنه قد يرى رؤى لقديسين ونوراً إلهياً وما إلى ذلك، ولكنه قد يرى أيضاً شياطين تحاول أن ترعبه أكثر وأن تمسك به.

جزء أيضاً من محبة الله للبشر أن يجعل الأبرار يرون قديسين بحيث أهم كما يقول القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات لا يرتعبون عند مجيء الموت إذ يرون أي نوع من

---

[29] - John of the Ladder, Step 23,CWS p. 210.
[30] - Theognostos: On the practice of the virtues, 65, Philokalia 2, p. 374.

الصحبة ستكون لهم وبالتالي "ينحلون من رباط اللحم بدون ألم وخوف"[٣١]. إننا نرى هنا ثانية ما قيل من قبل، وهو أن الانفصال يولد ألماً، وأن الجبن والمخاوف تُطرَد بهذه الطريقة.

يذكر القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات قصة واحدة تدعى تارسيلا، في وقت موتها وبينما كان الكثيرون بالقرب منها رأت يسوع مقترباً، فصرخت لكل الحاضرين بلهفة عظيمة "تراجعوا، تراجعوا، يسوع قادم!". وإذ رأت هذه الرؤيا، رحلت نفسها عن جسدها[٣٢]. يخبرنا أيضاً نفس القديس عن إمرأة تدعى موسا رأت أم الله قادمة إليها قبل أن ترحل نفسها. وبعد ذلك احمَّر وجهها جداً من الخجل والتبجيل وأجابت بصوت وديع: "ها أنا آتية يا سيدتي، ها أنا آتية"، ثم أسلمت روحها[٣٣].

على حين يرى الأبرار مثل هذه الرؤى الإلهية التي تسعدهم وتعطيهم فرحاً عظيماً، فعلى العكس من ذلك فإن الخطاة الذين لم يتطهروا خلال حياتهم يرون رؤى شيطانية. توجد العديد من مثل هذه الأمثلة محفوظة في التقليد الآبائي وأود أن أذكر حالتين منها.

يخبرنا القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات عن حالة رجل كان قد اقترب جداً من الموت وأتى إليه العديد من الرهبان وكانوا يصلون. ثم رأى الرجل تنيناً آتياً ليبتلعه ولكنه لم ينجح في ذلك بل لم يستطع سوى أن يأخذ رأسه في فمه بسبب وجود الإخوة. وهنا توسل الرجل المريض إلى الإخوة الذين حثوه على أن يرشم ذاته بعلامة الصليب. ولكنه أجابهم أنه على الرغم من أنه يريد أن يرشم الصليب إلا أنه لا يستطيع ذلك. فصلى الإخوة وبعد قليل قال الرجل: "أشكروا الرب لأن التنين الذي كان مزمعاً أن يبتلعني قد مضى بفضل صلواتكم و لم يستطع أن يبقى هنا"[٣٤].

الحادثة الثانية موجودة في قصص آباء البرية. كان أحد الآباء المبجلين خارجاً من قلايته ليبيع عمل يديه فجلس عند باب رجل غني. وعندئذ رأى "رجالاً سود اللون مخيفين" راكبين على خيول سوداء وحاملين طبولاً. ثم وصلوا إلى البوابة ونزلوا عن الخيول ودخلوا البيت. وفي الحال عندما رآهم الرجل المريض صرخ: "ارحمني يا رب وساعدني". فأخبروه أن الوقت قد فات وأنه لم يعد له أي رجاء في الخلاص أو النياح "وهكذا انتزعوا نفسه منه بالقوة ومضوا"[٣٥].

---

31 - Evergetinos Vol. 1, p. 70, Athens 1957 (GK).
32 - Ibid. p. 74.
33 - Ibid. p. 75.
34 - Ibid. p. 82.
35 - Ibid. p. 86.

تحدث العديد من الأسرار عندما تستعد النفس لمغادرة الجسد، وهي أسرار غامضة وربما تبدو غريبة لنا الآن. ومع ذلك، لا نستطيع إنكارها لأنها مشهود لها من قِبَل رجال قديسين. بالإضافة إلى ذلك، نحن نعلم جيداً مثل السيد المسيح عن الرجل الغني الغبي الذي في وقت موته سمع صوت من عند الرب: "يا غبي هذه الليلة تُطلَب نفسك منك، فهذه التي أعددتها لمن تكون" (لو١٢: ٢٠). لا يوجد إذاً مجال للشك. يقول القديس مقاريوس المصري: "إنه سر عظيم يحدث عند مغادرة النفس للجسد"[٣٦]. تبدأ هذه الأسرار في الحدوث عندما تُهيأ النفس للرحيل.

لا تحدث الأمور السرية قبل الرحيل فقط ولكن أيضاً أثناء مغادرة النفس للجسد. توجد نصوص آبائية تعلن لنا أنه في بعض الحالات عندما تغادر النفس الجسد تعلن عن رحيلها وأيضاً عن حضورها في البيت الذي يرقد فيه الشخص المتوفى. يحدث هذا غالباً مع رجال قديسين. وسوف يُظهر ما سنقوله أن النفس ليست مجرد طاقة للجسد، ولكنها العنصر الروحي في كيان الإنسان الذي خُلِق بواسطة الله ولن يفنى أبداً لأن هذه هي إرادة الله.

يصف القديس فيلوثيئوس كوكينوس النهاية المباركة للقديس غريغوريوس بالاماس ويقول أنه في ساعة مغادرة نفسه لجسده سطع نور عجيب من كل الغرفة التي كان القديس غريغوريوس راقداً فيها ثم أضاء وجهه أيضاً. وفي الواقع هو يقول أن رجلين معينين من تسالونيكي، أحدهما كان كاهناً والآخر كان راهباً وكلاهما متعدد الفضائل، رأيا هذا النور "الذي للنفس المغادرة الجسد". بمعنى أن النفس أشعت ضوءاً عند خروجها من الجسد. وكان كل الناس شهوداً على تألق شخصه الفائق للطبيعة. وإذ يفسر القديس فيلوثيئوس هذه الحادثة بطريقة لاهوتية، فإنه يقول أنها كانت بسبب نعمة الروح القدس الذي كان حالاً في نفسه وفي جسده[٣٧]. ومن الطبيعي أن يكون لمعان هذا النور بسبب حقيقة كون القديس غريغوريوس شريكاً في هذا النور بل ومبشراً به طوال حياته.

لقد كانت مثل هذه الخبرات موجودة في حياة القديس بنديكتوس المعروف بكونه رجل الله. فقد قيل عنه أنه في أحد المرات بينما كان في قلايته ينظر إلى السماء، رأى نفس أخته القديسة "كما لو كانت على شكل حمامة منيرة مرفوعة إلى السماء". وفي مرة أخرى بينما كان يصلي في الليل رأى فجأة نوراً عظيماً في السماء، ورأى العالم

---

[36] - Macarius of Egypt, Homily 22, CWS p. 155.
[37] - Philotheou Kokkinou: Life of Gregory Palamas, EPE 70, p. 438 (GK).

كله مجتمعاً كما لو كان تحت شعاع واحد من الشمس، ورأى في نفس الوقت نفس جيرمانيوس أسقف كابوا "داخل كرة من نار محمولاً إلى السماء بملائكة"[38].

إننا نجد نفس الحادثة تقريباً في سيرة القديس أنطونيوس الكبير. ففي طريقه للقديس الأنبا بولا ليقدم له ملابس أثناسيوس الكبير وإذ اقترب من المغارة رأى أنطونيوس في السماء صفوفاً من الملائكة، وجموعاً من الرسل، وجوقات من الأنبياء، ورتب من الشهداء، وفي وسط كل أولئك كانت نفس القديس الأنبا بولا تسطع أكثر من الثلج "صاعدة إلى السماء بفرح عظيم"[39].

تُظهر حقيقة أن القديسيْن المذكوريْن رأيا وتعرفا على نفسي القديسيْن المعنييْن، أنه على الرغم من مغادرة النفس للجسد وانحلال الوحدة بينهما إلا أن الشخص أو الأقنوم لا يفنى. عندما يرى القديسون نفوس الذين كانوا قد رقدوا فإنهم يتعرفون عليهم. إننا سوف نحلل فيما بعد حقيقة أن الشخص لا يفنى ولكننا هنا نكتفي بذكرها.

يصاحب مغادرة النفس الجسد، وخصوصاً نفس القديس، علامات عديدة. فالقديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات يقول أنها ظاهرة معتادة أنهم يسمعون تسبيحاً في السموات عندما تغادر نفوس القديسين الجسد، ويحدث ذلك حتى لا يشعرون بأنهم ينفصلون عن اللحم[40].

سمع شخص يدعى سيرفولوس تسابيحاً في السماء في وقت انتقاله، فطلب من الحاضرين أن يلزموا الهدوء قائلاً: "أسكتوا! ألستم تسمعون التسابيح المدوية في السماء؟". وفي الحقيقة يقال أنه عندما غادرت نفسه جسده امتلأ الحضور برائحة عطر، وكان المكان بجملته عطر الرائحة[41]. لقد حدث نفس الشيء مع تارسيلا، فعندما غادرت نفسها جسدها فاحت "رائحة عطر رائعة" وفهم الجميع أن "صاحبة العطر كانت حاضرة"[42]. وحدث نفس الشيء أيضاً مع إمرأة تدعى ريديمبتا حيث أنها عند رقادها بزغ نور من السماء وغمر كل القلاية، وسُمع أيضاً صوت عالٍ وأصدرت أبواب القلاية صريراً كما لو كان جمعاً غفيراً يدخل إليها[43].

---

[38] - Evergetinos, op. cit. p. 94f.
[39] - Ibid. p. 90.
[40] - Ibid. p. 71.
[41] - Ibid. p. 72.
[42] - Ibid. p. 64.
[43] - Ibid. p. 73.

هذا الأمر طبيعي جداً طالما أننا نؤمن في كنيستنا بوجود شركة بين الأحياء والأموات. فنحن نرى حضور كل الرسل عند نياحة العذراء. ويلاحظ هذا أيضاً عند رقاد القديسين العظماء حيث يكون القديسون والملائكة حاضرين ويستقبلون نفوسهم. **إن نياحة قديس معين تكون مُمجَدَة تماماً مثل حياته.**

لقد رأينا حتى الآن أن أسراراً عظيمة تحدث عندما يقترب الموت، وأيضاً أن القديسين وُهِبوا بطرق متنوعة أن يعرفوا اللحظة التي تغادر فيها نفوس الأبرار أجسادهم. يجب علينا الآن أن نفحص أيضاً كيف أن نفوس القديسين تُقاد بواسطة ملائكة، ونفوس الخطاة غير التائبين تُقاد بواسطة شياطين شريرة.

يعلم القديس مقاريوس المصري أنه لو وجد شخص ما غير تائب في وقت انتقاله فإن "فرقاً من الشياطين والملائكة الساقطين تقترب، بالإضافة إلى قوى الظلام التي تأسر تلك النفس وتجرها كأسير إلى موضعها". وعلى العكس من ذلك، فإن خدام الله الذين لديهم ملائكة تحيط بهم حتى في هذه الحياة، يُحاطون بأرواح الخير ويُمنحون في لحظة انتقالهم "جوقات من الملائكة تستقبل نفوسهم وتحملهم لمكانهم الخاص في الأبدية النقية، حيث أنهم يقودونهم إلى الرب"[٤٤]. ويقول القديس مقاريوس المصري في موضع آخر أنه عندما لا تقتنى النفس عربون الروح القدس، فإنها في وقت انتقالها من الجسد تمسك بها الشياطين ولا تدعها تصعد للسماء[٤٥].

بالتالي، فإن أولئك الذين لهم ختم الروح، وهم مسيحيون حقيقيون لا يشعرون بالرعب ولكنهم يبتهجون لأن لهم مسكن غير مصنوع بأيادٍ الذي هو قوة الروح القدس الساكن فيهم[٤٦].

ولكن هذا التعليم لا يأتي فقط من الآباء ولكنه مشهود له بغير منازع من فم السيد المسيح نفسه. ففي مثل الغني ولعازر يقول أن لعازر حملته الملائكة إلى حضن إبراهيم. "فمات المسكين وحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم"(لو١٦: ٢٢). وفي مثل الغني الغبي يعلمنا المسيح أن نفوس الخطاة غير التائبين تستقبلها الشياطين. وهذا ما قاله للرجل الغبي: "يا غبي! هذه الليلة تُطلَب نفسك منك"(لو١٢: ٢٠) بمعنى أنها تُطلَب بواسطة الشياطين.

---

44 - Macarius of Egypt: Homily 22, CWS p. 155.
45 - Ibid. Hom. 16, 13, CWS p. 134.
46 - Ibid. Hom. 5, 7, CWS p. 72.

لقد انتقل هذا التقليد أيضاً في عبادة كنيستنا. فتوجد تسبحة تُرَتَّل في خدمة الجناز تظهر صراع النفس لحظة خروجها من الجسد. فنفس الخاطئ تلجأ لكل من الملائكة والناس إلا أن لا أحد يستطيع مساعدها.

تقول هذه التسبحة: "ويحي أنا الإنسان! فأية محنة تحتملها النفس عندما تغادر الجسد! ويحي! فكم ستكون عندئذ دموعي! ولن يكون هناك من يشفق! إنها تحول نظرها نحو الملائكة، ولكن جميع صلاتها تكون بلا جدوى. إنها تمد ذراعها للناس ولا تجد من ينجدها"[٤٧].

يكون المسيحي واعياً لتلك الحقيقة لأنه في خدمة صلاة النوم التي يقرأها كل مساء قبل أن يأوي للفراش يطلب من العذراء أن تساعده في ساعة الموت لكي يتجنب وجوه الشياطين المظلمة: "وفي ساعة انتقالي من هذه الحياة اعتني بنفسي البائسة، وابعدي عنها الوجوه المظلمة التي للشياطين الشريرة".

في الواقع تحدث أمور سرية بعد مفارقة النفس للجسد، وهي أمور لا نستطيع أن نتخيلها الآن والتي أعلنها لنا الآباء القديسون، لا لكي يرعبونا ولكن لكي يشجعونا على الاستعداد لتلك الساعة الرهيبة. فكل حياة المسيحي هي استعداد للموت. **وبالطبع لا يتم هذا الاستعداد بالقلق**، ولكن بالفرح والتفاؤل حيث أنه موحى به من قبل نعمة الله وأنه يجعل الحياة أكثر إنسانية. **لأن الذي يستعد لانتقاله يعرف أفضل طريقة لمواجهة كل ما يحدث في الحياة ويكون أكثر الأشخاص اجتماعية.**

٥- فرض الضريبة على النفوس

يرتبط أيضاً بما سبق تعليم كل من الكتاب المقدس والآباء القديسين عن موضوع فرض الضريبة على النفوس. سوف نفحص هذه النقطة بعناية، لأن لها علاقة بسر الموت الرهيب. إننا نجد هذا الموضوع في كل التقليد الآبائي، وهو يتفق مع حقيقة نريد أن نفحصها لكي نعد أنفسنا لساعة الموت الرهيبة. **لم يُكتَب ما سيلي بهدف إثارة القلق، ولكن للحث على التوبة التي نهايتها الفرح.** لأن الذي له عطية الروح القدس والذي هو متحد بالمسيح يتجنب الحضور الرهيب لشياطين المحطات الجمركية ونشاطها.

---

47 - Funeral Service, Tone 2, Hapgood, p. 385.

بحسب تعاليم آباء الكنيسة تشعر النفس، عند مفارقتها الجسد وأيضاً عند استعدادها للرحيل، بحضور الشياطين التي تسمى شياطين المحطات الجمركية ويتملكها الخوف لأنه يتعين عليها المرور خلال المحطات الجمركية.

يجب علينا بالطبع، أن نقول من البداية أن شياطين المحطات الجمركية ليس لها سلطان على الأبرار الذين اتحدوا بالمسيح. وليس فقط أن الأبرار لن يعبروا خلال "المحطات الجمركية"، ولكنهم أيضاً لن يكونوا خائفين من ذلك. سوف نرى ذلك بطريقة أفضل عندما نقارن تعاليم الآباء. إن تشبيه مرور النفس على الشياطين كمحطات الجمارك مأخوذ من مشهد جباية الضرائب في هذا الوقت. قد نعبر باختصار على هذا الموضوع لكي نفهم لماذا شبه الآباء مرور النفس على الشياطين بالمرور خلال المحطات الجمركية.

في الأزمنة القديمة، كان لقب جباة الضرائب يُعطَى لأولئك الذين كانوا يشترون الضرائب من الولاية ثم يجمعونها من الناس[٤٨]. وكان جباة الضرائب يُصَنَفون إلى فئتين. الفئة الأولى تشكل ما يسمى "جباة الضرائب من عامة الشعب (مصادري الأملاك) أو العشارين"، والذين كانوا أغنى فئة وقوة السلطة. أما الفئة الثانية فتشكل "جامعي الضرائب". لقد كان العشارون هم جباة عامة الشعب الذين اشتروا الضرائب من الولاية، على حين أن جامعي الضرائب كانوا خدامهم المأجورين الذين كانوا يجمعون الضرائب من الشعب ويعطونها للعشارين.

لقد كان العشارون ظالمين لأنهم كانوا يجمعون ضرائب أكبر من التي كان ينبغي عليهم دفعها لولاتهم. وهذا هو السبب الذي جعل سمعتهم سيئة جداً في المجتمعات القديمة. لقد قال أفلاطون أن جامعي الضرائب كانوا مستبدين ليس عندما كانوا يجمعون الرسوم على الواردات الظاهرة للعيان "ولكن عندما كانوا يبحثون عما هو مخفي بتحرشهم لمعدات وشحنات الآخرين". وبالتالي عندما سُئل ثيوكريتاس ما هي الحيوانات الأكثر ضراوة أجاب: "الدببة والأسود في الجبال، وجباة الضرائب والمتملقون في المدن".

وفي محاولات جامعي الضرائب لجمع أكبر قدر من الضرائب، وخصوصاً لكي لا يدعوا أحداً يهرب إذ يكون رافضاً للضريبة الثقيلة جداً والظالمة، فإنهم اخترعوا عدة وسائل: فقد كانوا يجلسون منتظرين في الأزقة ويمسكون العابرين ويجبرونهم

---

[48] - see extended analysis in G. Konstantinou: Dictionary of holy Scriptures, ed. Grigori, op. 966 (GK).

على إعطائهم ما يجب عليهم دفعه. لقد كان ذلك شيئاً كريهاً وبغيضاً جداً بالنسبة لشعب هذا الزمان.

هذه هي بالضبط الصورة المألوفة والكريهة التي استعملها الآباء لكي يعطوا للناس في ذلك الوقت فهماً لسر الموت الرهيب، وللأمور الرهيبة التي تتكشف عندما تستعد النفس للرحيل، وخصوصاً عندما تترك الجسد. يقول القديس مقاريوس المصري بطريقة معبرة: "مثل جامعي الضرائب الذين يجلسون في الأزقة ويمسكون بالعابرين والمحزونين، كذلك أيضاً الشياطين تراقب بعناية النفوس وتلقي القبض عليها. تلك التي عندما تعبر خارج الجسد ولو كانت غير مطَهَرة بالتمام، فإنه لا يُسمَح لها بالصعود للمنازل السماوية لملاقاة ربها. إذ أنها تُقاد لأسفل بواسطة شياطين الهواء"[٤٩].

من المؤكد أن صورة جامعي الضرائب تنتمي لواقع ذلك الزمان. ولكن التعليم بأن الشياطين تحاول القبض على نفس الشخص عند انتقاله مذكور في العديد من نصوص الكتاب المقدس وآباء الكنيسة. لقد رأينا بالفعل أنه بعد الموت تُستَقبل نفوس الأبرار بالملائكة ونفوس الخطاة وغير التائبين بالشياطين. وبالحقد الذي تكنه الشياطين من نحو الناس فإنها تحب أن تسود على كل أحد، وأن تضع الناس تحت سلطانها إلى الأبد، ولكنها لا يكون لها سلطان على الأبرار.

يوجد نص رئيسي يفسره آباء الكنيسة على أنه يشير لشياطين المحطات الجمركية وهو ما قاله المسيح قبل آلامه مباشرة: "لأن رئيس هذا العالم آتٍ ولكن ليس له فيّ شيء"(يو١٤: ٣٠). إن رئيس هذا العالم هو الشيطان. وهو يُدعى رئيس هذا العالم ليس لأنه الرئيس بحق، ولا لأنه السلطة العليا في العالم كله، ولكن لأنه يسود على عالم الأشرار. يعلن المسيح أن الشيطان ليس له سلطاناً عليه، وهو يشير هنا بالتأكيد إلى الشيطان والموت.

يشير القديس بولس إلى الموتى الروحيين الذين كانوا محرومين من نعمة الله فيكتب قائلاً: "وأنتم إذ كنتم أمواتاً بالذنوب والخطايا التي سلكتم فيها قبلاً حسب دهر هذا العالم حسب رئيس سلطان الهواء، الروح الذي يعمل الآن في أبناء المعصية"(أف٢: ١-٢). يشير هذا النص إلى أن الناس يموتون بالخطايا وبعمل الشيطان.

---

49 - Macarius of Egypt: Homily 43, 9, CWS p. 222.

بالمثل يوصف الشيطان بأنه رئيس سلطان الهواء لأنه موجود في الجو ويشن حرباً على الناس باستمرار. هذه هي بالضبط الصورة التي كانت في ذهن الآباء عندما قالوا أنه عندما تغادر النفس الجسد وتعبر خلال الهواء نحو السماء فإنها تقابل رئيس الهواء. يذكر أيضاً النص أن هذا الرئيس يعمل الآن أيضاً في أبناء المعصية.

توجد العديد من النصوص في العهد القديم التي يستعملها الآباء لكي يشيروا إلى ما يسمى دفع النفوس للرسوم الجمركية. وأود أن أذكر اثنين منهما. الأول موجود في مزمور داود حيث يتكلم النبي الملك عن الله قائلاً: "يا رب إلهي عليك توكلت. خلصني من كل الذين يطردونني ونجني لئلا يفترس كأسد نفسي هاشماً إياها ولا منقذ"(مز٧: ١-٢). والنص الآخر موجود في سفر أرميا النبي حيث يقول: "فكان في قلبي كنار محرقة محصورة في عظامي فمللت من الإمساك و لم أستطع لأني سمعت مذمة من كثيرين. خوف من كل جانب. يقولون اشتكوا فنشتكي عليه"(أر٢٠: ٩-١٠).

الآن وقد استشهدنا بالنصوص الرئيسية التي فسرها الآباء، سوف ننتقل إلى تعليمهم عن "فرض الضريبة" على النفوس. يجب علينا أن نقول أننا سوف نقوم أولاً بمقارنة تعليمهم عن فرض الضريبة على النفوس، ثم نتحدث عن التفسير النسكي لهذه الحالة. وكما سنرى بوضوح أكثر فيما يلي، **فإن نفوس الأبرار لا تخاف طالما أن لها نعمة الله وليس للشياطين سلطاناً عليها. أما نفوس غير التائبين فتبقى في ضيق، إذ تكون عرضة لتأثير الشياطين ولعمل الأهواء أيضاً.** فعلى الرغم من وجود شياطين، إلا أن دفع الضرائب يعني أيضاً عمل الأهواء. لا ينبغي علينا أبداً أن ننسى هذه النقطة لأن الذي لا يعيها يختلق مفاهيماً خاطئة. ويجب على قارئ هذا الباب أن يكون حذراً في دراسة التعليم الآبائي على الأخص.

يفسر القديس باسيليوس الكبير نص المزمور: "خلصني من كل الذين يطردونني ونجني لئلا يفترس كأسد نفسي"(مز٧:٢) فيقول أن الناس الشجعان الذين جاهدوا على مدار حياتهم ضد العدو غير المرئي "سوف يبحث عنهم رئيس الدهر" قرب انتهاء حياتهم لكي يأسرهم إن وجد فيهم جروح أو علامات أو ندبات للخطايا. ولكنهم إن وُجدوا غير مصابين وغير ملطخين فعندئذ "لكونهم محصنين وأحراراً يعطيهم المسيح نياحاً". بالتالي فإن من يكون تحت سلطان الموت، ولأنه يعلم أنه "واحد هو الذي

يخلص، وواحد هو الذي يفدي" فإنه يصرخ إلى المسيح المخلص: "خلصني في وقت البحث عني هذا لئلا يفترس كأسد نفسي هاشماً إياها ". فيرد عليه المسيح طالما أنه كان حراً من الخطية: "الآن رئيس هذا العالم آتٍ وليس له فيّ شيء". وعلى أية حال سيكون كافياً بالنسبة للإنسان أن يقول أن رئيس هذا العالم آتٍ، وسوف يكون له فيّ "أشياء صغيرة وضئيلة"[٥٠].

تكون ساعة الموت رهيبة ليس لأن الشخص يتذكر خطاياه فقط ، ولكن أيضاً لأنه يرى أشياءً مرعبة. يشهد القديس يوحنا ذهبي الفم أنه يوجد العديد من الأشخاص الذين حكوا عن رؤى رهيبة لا يستطيع الشخص الراحل أن يحكي عنها. إنها تكون رؤى مرعبة لدرجة أن "كل فراشه يهتز بقوة وأنه ينظر بهلع للموجودين".

هذا يعني أن كل جسده يرتعش بسبب خوف نفسه وأنه يعمل حركات مضطربة كثيرة. يضيف القديس يوحنا ذهبي الفم أننا لو كنا نرتعب لرؤية أشخاص مرعبين، فكم بالحري سنكون مرتعبين عند رحيل نفسنا عن جسدنا حيث نرى "ملائكة تهددنا وقوى متجهمة....". عندئذ تنتحب النفس التي غادرت الجسد ولكن بلا فائدة[٥١].

يتكلم القديس سمعان اللاهوتي الجديد عن ذلك، مؤكداً على الأخص أن **الذي يقتني نور الله يغلب الشياطين التي تقترب منه لأن الشياطين تحترق بالنور الإلهي**. هذا هو الحال حتى في هذه الحياة الآن، حيث أن الشخص يعيش في رؤية الله ويلتحف بنور الله. وسوف يكون ذلك بالأكثر عندما تغادر النفس الجسد. يقول القديس سمعان أن المسيحي لا يستفيد من الجهاد الروحي الذي يدخل فيه ما لم يحترق الشيطان بواسطة نور الله. وهذا يعني أن جوهر وهدف الحياة الروحية هو الاتحاد بالنور. يكتب القديس سمعان قائلاً:

"ما المنفعة من كل ما يحدث داخلي الآن
ما لم يرَ أمير الظلام المجد المصاحب لي عندما يأتي،
وما لم يخزَ بالكلية ذاك الذي هو ظلام يحترق بالنور غير المقترب منه،
وما لم تهرب كل قوى الشر الموجودة معه عندما ترى علامة الختم،
بينما أعبر وأنا واثق في النعمة، فأقترب منه وأسجد له بجسارة كاملة؟"[٥٢].

---

50 - Basil the Great: Homily on Psalm 7, 2. PG 29, 232B, D.
51 - John Chrysostom: Homily 44 on Matthew, EPE 11, p. 170 (GK).
52 - SC 174, p. 310.

يصف القديس ديادوخوس من فوتيك الشياطين التي تريد أن تقبض على نفس الشخص حتى في آخر لحظة بأنها مثل رؤساء التتار، أي أنها رؤساء الهاوية. لن يكون الشخص الذي يحب الله خائفاً لأن المحبة تطرد الخوف خارجاً، ولأنه سيتخطى بحرية "رؤساء التتار". إن نفس الشخص التي تتمتع بمحبة الله "تُرفَع بواسطة ملائكة السلام فوق كل جيوش الظلام"[٥٣] عند ساعة موتها.

وهكذا لا يكتفي الآباء القديسون بالتأكيد على وجود الشياطين وعلى غضبهم العدواني الموجه ضد الناس، ولكنهم يؤكدون أيضاً على الطريقة التي نستطيع بها أن نهرب من تهديداتهم. يتحرر الشخص تماماً من جبنه وخوفه بالاعتراف بخطاياه وبالامتلاء بمحبته لله، وهكذا يتخلص من شرور الشياطين فليس لإبليس سلطاناً عليه.

يسمي الأنبا أشعياء الشياطين التي تقترب من النفس عند مغادرتها الجسد "رؤساء الظلام" و"رؤساء الشر". إنه يُعَلِّم أنه عندما تترك نفس الإنسان جسده فإن الملائكة تعبر معها، ولكن تخرج أيضاً قوى الظلام لملاقاتها وللتسلط عليها. **وفي تلك اللحظة لا تقاتل الملائكة الشياطين ولكنها تحيط الشخص بالأعمال الصالحة التي فعلها. وعندما يغلب الشخص الشياطين بسبب الأعمال الصالحة التي عملها في حياته فعندئذ "تبتهج معه الملائكة إذ تراه محرراً من قوى الظلام"**. ولهذا يحثنا الأنبا أشعياء على محبة السلام، وعلى محبة الآخرين، والتفكير في الله وبره، والتخلي عن الاحتياج للعالم ولمجده، وما إلى ذلك[٥٤].

تحتوي أقوال آباء البرية على تعليم ثيئوفيلس رئيس الأساقفة عن الموضوع الذي نتناوله. إنه يقول أنه في وقت الانتقال تحدث دعوى قضائية بين الملائكة والشياطين. فتقدم الشياطين "كل الخطايا المقترَفة سواء بالإرادة أو عن جهل منذ الولادة وحتى آخر ساعة" ويوجهون للشخص اتهاماً. وبالمثل تجلب الملائكة الأفعال الصالحة التي فعلها هذا الشخص. **وعندئذ تكون النفس في خوف عظيم وهي خاضعة للمحاكمة**. فلو غلبت الشياطين فإنها تسمع القول: "خذوا بعيداً النفس غير التقية حتى لا تعاين مجد الله". ولكنها إن انتصرت ومُنحت العتق فإن الشياطين تخزى وتستقبل الملائكة النفس وتقودها "إلى هذا المجد والفرح الذي لا ينطق به"[٥٥].

---

[53] - Diadochus of Photiki: On spiritual knowledge, 100, Philikalia 1, p. 295.
[54] - Evergetinos, op. cit. p. 101f.
[55] - Ibid. p. 102f.

إننا نجد هذه الآراء في العديد من النصوص الآبائية. فالقديس هيزيخيوس القس يصلي طالباً أن يجد خطاياه قليلة وتافهة عند مجيء رئيس الظلام[٥٦]. إنه يعلم أنه عندما يكون يسوع مع النفس "فإنه سوف ينتقم منه سريعاً"[٥٧].

وبالمثل يقول القديس ثيوغنسطس أن النفس البارة تصعد إلى السماء وتمضي في سلام "لملاقاة الملاك المنير المبتهج الذي ينزل من أجلها لكي يعبر معها في الهواء بدون عائق ولكي يحميها تماماً من الأرواح الشريرة"[٥٨].

لا يُعَلِّم الآباء القديسون كل هذه الأشياء من مخيلتهم ولكن من خبرات استنارة. وفي بعض الأحيان تكون هذه الأشياء قد أُعلنت لهم من قِبَل رجال قديسين، وفي أحيان أخرى يكونون هم أنفسهم قد استناروا من قِبَل الله وخاضوا مثل هذه الخبرات المرعبة.

لقد توصل القديس أنطونيوس الكبير في مرة من المرات لرؤية مثل هذه الأشياء المرعبة بنفسه. لقد كان جالساً في قلايته، فدخل في حالة من الدهش ثم رأى نفسه خارجاً من جسده وسائراً في الهواء مقاداً بملائكة بوضوح. ثم منعتهم بعض الشياطين المرعبة والمريرة من الصعود إلى السماء وطلبت تبريراً للعديد من الأفعال. ثم حاربت الملائكة التي كانت تقود أنطونيوس الكبير الشياطين المرعبة قائلة أن الله قد غفر له كل أعماله منذ ولادته وأنهم ينبغي عليهم توجيه الاتهام له منذ اللحظة التي صار فيها راهباً فقط. "ثم اتهموه ولكنهم لم يجدوه مذنباً وهكذا صار طريقه مفتوحاً وبلا عائق"[٥٩].

قيل في رواية مخيفة عن أنطونيوس الكبير ما يلي: أيقظه صوت في أثناء الليل وحثه على أن يخرج خارج قلايته وينظر. فرأى في الواقع شخصاً "طويلاً بدون شكل جسدي ومرعب"، وكان هو إبليس واقفاً، منتصباً، رافعاً يديه، مانعاً بعض الأشخاص من الصعود بأن يمسك بهم وصَارّاً أسنانه على آخرين لأنهم هربوا وكانوا صاعدين للسماء. لقد أُعلِن لأنطونيوس الكبير أن هذا المشهد المرعب كان "انتقال النفوس"[٦٠].

يصف القديس يوحنا السلمي مشهداً مروعاً رآه إستفانوس الناسك الذي كان ناسكاً في جبل سيناء بالقرب من مغارة إيليا النبي. ففي اليوم السابق لموته بينما كانت

---

[56] - Hesychios: On watchfulness and holiness 161, Philok. 1, p. 190.
[57] - Ibid. 149, p. 188.
[58] - Theognostos: On the practice of the virtues 61, Philok. 2, p. 373.
[59] - Evergetinos, op. cit. p. 99.
[60] - Ibid. p. 100.

عيناه مفتوحتين دخل في رؤيا وبدأ ينظر عن يمين ويسار فراشه. وسمعه الحاضرون يجيب كما لو كان خاضعاً لتحقيق. لقد كان يقول أحياناً: "بالطبع هذا صحيح! وهـذا مـا جعلني أصوم لعدة سنوات". أو كان يقول أيضاً: "نعم هذا حـق ولكـني انتحبـت وخدمت إخوتي". أو أيضاً: "لا! أنتم تتهموني باطلاً". أو أحياناً: "نعم هـذا صـحيح بالفعل، فليس لي عذراً، ولكن الله رحوم". ويضيف القديس يوحنا السلمي أن "هـذا التحقيق غير المرئي والقاسي كان بحق مشهداً مرعباً ومروعاً". وأسوأ ما في الأمر أنـه كان يُتَهَم بأشياء لم يفعلها"[٦١].

يـبدو مما قيل أن كل تقليد الكنيسة يتحدث عن وجـود شـياطين المحطـات الجمركية، أرواح الهواء التي تحارب الإنسان بحقد وشرور ليس فقط على مدار حياتـه ولكن على الأخص قبل وبعد رحيل نفسه من الجسد.

على كل حال، من الواضح في تقليد الكنيسة أنه ليس سلطان للشياطين علـى أناس الله ، لأن أولئك الذين لبسوا المسيح لا يخوضون مثل هذا الاستشـهاد. فلـو أن رئيس هذا العالم ليس له سلطان على المسيح، فهذا حق أيضاً بالنسبة لأولئـك الـذين اتحدوا به. هذا هو السبب الذي يجعل الآباء ينصحوننا أن نعيش داخل الكنيسة بتوبـة واعتراف وأعمال روحية، وأن نعيش ونموت في الكنيسة بإيمان أرثوذكسي وصـلوات آبائنا بحيث لا يكون لرئيس الظلام وأرواح الشر سلطاناً علينا.

إنها على أية حال حقيقة أنه أثناء مغادرة النفس للجسد تحدث حـرب كـبيرة وبصورة رئيسية مع الأشخاص الذين لم يتطهروا بصورة كافية. الأمر المـروع هـو أن العديد من الناس في وقتنا هذا يموتون دون أن يكونوا واعين لساعة الموت الرهيـبة. بمعنى أن الأمراض الموجودة في زماننا، بالإضافة إلى العقـاقير القويـة تشـوه البنيـان النفسجسماني للإنسان وتجعل من الصعب عليه المرور بهذه الساعات الحرجـة بانتبـاه ومخافة الله وصلاة. بالطبع تساعدنا العقاقير ألا نشعر بألم أمراضنا، ولكنها أيضاً تـؤثر على بنياننا النفسجسماني، ولا تسمح لنا بإدراك ما يحدث وبأن نطلب مراحم الله.

تكون تلك الساعات حرجة جداً. وهذا ما يجعل كل الذين يخـافون الله ولهـم معرفة روحية بتلك اللحظات الحرجة يصلّون لكي يـبقوا واعين بأحداث هذا الوقت.

[61] - John the Ladder: Step 7, CWS p. 142.

إنها فرصة حقيقية للشخص لكي يتوب عن كل ما اقترفه وأن يطلب مراحم الله. فالعمل الأكثر أهمية هو أن يكون المرء يقظاً في هذه الساعة الرهيبة. وهذا ما يجعل الكنيسة تصلي إلى الله لكي يخلصنا من "الموت المفاجئ".

ولكن ينبغي علينا أن ننظر لوجود المحطات الجمركية من جانبين. الجانب الأول هو حقد الشياطين، والجانب الثاني هو وجود الأهواء. إننا نجد أيضاً في تعليم الآباء أنه **يوجد تفسير آخر للمحطات الجمركية**. أود أيضاً أن نحول انتباهنا عند هذه النقطة إلى التعليم النسكي الذي لآباء الكنيسة عن المحطات الجمركية دون أن نغفل بالطبع التعليم بوجود رؤساء الظلام وأرواح الشر.

لقد قلنا أيضاً من قبل أنه عندما تكون نفس الشخص على وشك مغادرة الجسد فإن ذكرى الخطايا التي اقترفها في حياته تعود إليه. إنها حالة غير محتملة بحق، ويتكلم عنها القديس يوحنا ذهبي الفم فيقول أنه في اليوم الأخير من حياة الإنسان على الأرض "تسود الخطايا على نفسه". أي أنها تفرض نفسها على نفسه. والمقصود بذلك الأهواء "التي تصعد من أسفل القلب"[٦٢]. **تطلب الأهواء إشباعاً، ولكن الشخص لا يستطيع أن يستجيب لها. إنها حقاً حالة مروعة.**

تتضخم شهوة النفس غير المشبعة بالأكثر عندما تنفصل النفس عن الجسد. ينسب القديس غريغوريوس النيصي هذا النوع من التفسير إلى أخته ماكرينا. فيقول أنه كما يحدث مع الناس الذين بقوا في أماكن قذرة لفترة طويلة ولا يتخلصون من القذارة الكريهة حتى لو عاشوا في هواء نظيف بعد ذلك، فإن نفس الشيء يحدث للنفس عندما تخرج من الجسد. **يكون محبو الجسد غير قادرين على تحرير أنفسهم من رائحة الشهوة حتى لو كانوا قد تحولوا إلى الحياة غير الجسدية العليا.** وتصبح النفوس عندئذ أكثر مادية، وتكون بهذه الطريقة في "ضيق عظيم". يضيف القديس غريغوريوس أنه لو كان ما يقوله البعض عن رؤية أشباح المنتقلين بجوار المقابر صحيحاً فإن هذا يكون علامة على أن النفس لا تريد أن ترحل عن حياة الجسد حتى بعد أن تكون قد غادرت جسدها. وفي مثل الغني ولعازر وجد الغني نفسه في الجحيم وبدا مفكراً في أقربائه. وهذا يشير إلى أن نفوس محبي الجسد لا تستطيع بحق أن تتخلص من الأهواء التي تتكون منها الحياة الشهوانية[٦٣].

---

62 - John Chrysostom: Homily 44 on Matthew, EPE 11, p. 168 (GK).
63 - Gregory of Nyssa: On the Soul and the Resurrection, ch. 6, SVS p. 76.

إننا نعلم من التقليد الأرثوذكسي أنه توجد أهواء للجسد وأهواء للنفس. وحيث أنه توجد وحدة بين النفس والجسد، توجد أيضاً علاقة بين أهواء النفس والجسد. تعمل أهواء النفس من خلال حواس الجسد. وعندما تغادر النفس الجسد فإنها لا تستطيع إشباع أهوائها. والأهواء غير المشبعة تتسبب في ألم غير محتمل وحالة من الاختناق إذ أنها تخنق النفس. **هذا هو الجحيم الحقيقي والضيق المرعب.** وهذا هو السبب الذي يجعل الآباء ينصحوننا بأن نطهر نفوسنا من الأهواء بينما نعيش في الحياة الحاضرة، بحيث أن النفس تخلص وتتحرر وقت انتقالها. فيجب على النفس أن تشبع بالله وتكون منجذبة إليه.

توجد مشكلة أخرى تواجه النفس بعد مغادرتها الجسد. يُعلِّم القديس غريغوريوس النيصي أن كل طبيعة تنجذب إلى ما يشابهها وإلى ما يقاربها. هكذا أيضاً تنجذب النفس إلى ما هو إلهي وتتصل به طالما أن الإنسان يكون مرتبطاً بالله، ويمتلك في داخله نماذج أصلية. بعد أن تغادر النفس الجسد تكون خفيفة بدون أي ألم جسدي، وبالتالي يكون أمراً سهلاً ومسراً أن تتقدم النفس نحو ما يجذبها أي نحو الله. ولكن لو كانت النفس ممسوكة بعادات مادية وبمخالب الأهواء فإنها عندئذ تتألم بنفس الطريقة التي يتألم بها الجسد أثناء الزلزال عندما لا يكون فقط مسحوقاً بثقل الأرض ولكنه من الممكن أيضاً أن يكون مُختَرَقاً بالعديد من الأشياء المدببة الموجودة في الأرض[٦٤].

هذا هو بالضبط ما يشكل عذاب النفس، فنستطيع أن نقول أنها تختبر انقساماً مرعباً. فهي من جانب تريد أن تصعد إلى الله وتتحد به حيث أنها على صورته، ولكنها من جانب آخر تعاق بالأهواء التي تخترقها وتضغطها وتعذبها. وهذا المنطق هو جزء من تفسير الآباء القديسين للمحطات الجمركية.

يصف الأنبا دوروثيئوس عذاب النفس المغادرة للجسد بطريقة رائعة وواقعية. فيقول أنه **أثناء هذه الحياة تستريح النفس بواسطة تشتتها بالأهواء.** فهي قد تشعر بالأسى العميق والألم المخيف، ولكنها من خلال الأهواء والجسد تحصل على راحة وتخفيف لألمها. ومن خلال هذه الحالة المخبولة "يأكل الإنسان ويشرب وينام ويقابل أصدقاءه ويلتقي بهم"، **بمعنى أنه يتلهى بالأشخاص المقربين إلى نفسه.** وهكذا يتعزى جزئياً ويستطيع بسهولة أكثر أن ينسى المشكلة الأكثر عمقاً التي تشغله. ولكن عندما تغادر النفس الجسد "تجد نفسها وحيدة مع أهوائها الخاصة، وباختصار هي تتعذب بها

---

64 - Ibid. p. 83.

باستمرار". عندئذ تحترق النفس بمضايقة الأهواء وتتشتت بها ولا تستطيع أن تتذكر الله. هذه مأساة حقيقية لأنها عندئذ لا تستطيع أن تشعر ولو براحة قليلة بسبب عدم وجود جسد.

فيما يلي يعطينا الأنبا دوروثيئوس مثالاً مدهشاً. تخيل شخصاً محبوساً في غرفة مظلمة بدون طعام أو شراب لمدة ثلاثة أيام وبدون نوم أو ملاقاة أي أحد، أو بدون تلاوة مزامير أو صلاة أو تفكير في الله بالمرة، فإنك عندئذ تستطيع أن تعرف "ما تفعله الأهواء به". وفي الواقع فإن مثل هذه الحالة تجعل النفس بل وكل الإنسان مغتاظاً. ولقد تأكدنا من ذلك من العديد من الأشخاص الذين يختبرون كرب أماكن التعذيب والسجون المرعبة. لو كان هذا هو الحال ومازالت النفس متحدة بالجسد، فكم يكون بالأكثر عندما تغادر الجسد وتُعزَل مع أهوائها.

يستخدم أيضاً الأنبا دوروثيئوس تشبيه الشخص المريض بالحمى. بالطبع يخلق هذا العديد من المشاكل أيضاً، وخصوصاً لو كان للشخص جسداً مخبولاً ومزاجاً سيئاً. هكذا يحدث نفس الشيء مع النفس المثقلة بالأهواء إذ "يعاقبها الصراع الناتج عن عاداتها الخاصة الرديئة طوال الوقت، وتصبح الذاكرة في مرارة دائمة، وتكون دمدمة أهوائها ضاغطة باستمرار وتحرقها وتغضبها على الدوام". ولو أضفنا لعذاب النفس هذا ومعاناتها أماكن الجحيم الرهيبة والشياطين والنار والظلمة وما إلى ذلك، فعندئذ نستطيع أن نفهم ألم وعذاب النفس بعد انتقالها وإقامتها في الجحيم والهاوية[٦٥].

إن الأمور التي تكلمنا عنها حتى الآن تظهر بدقة ماهية هذه المحطات الجمركية التي تتكلم عنها النصوص الآبائية. فهي، من جهةٍ، أهواء النفس التي لا يمكن إشباعها بسبب عدم وجود الجسد وبالتالي تخنق النفس. ومن جهة أخرى هي الشياطين الشريرة التي لها سلطان على الناس الشهوانيين، والتي من الطبيعي أن تكتسب سلطاناً أكبر عليهم بعد رحيل نفوسهم. إن الناس الأبرار الذين أثناء حياتهم طهروا نفوسهم وأجسادهم من أهواء النفس والجسد، ولبسوا عربون الروح القدس واتحدوا بالله، يهربون من قوة الرسوم الجمركية طالما أنه ليس للشياطين سلطاناً عليهم. وتُقاد نفوسهم حرة وغير مشتتة إلى الله الذي يتحدون به.

---

[65] - Dorotheos: Discourse 12, Fear of punishment, CS 33, p. 183f.

تكمن إذاً كل المشكلة ليس في الخوف من شياطين الجمارك ولكن في أن نشفي نفوسنا وكل كياننا من الأهواء طوال حياتنا حتى يكون لنا نصيب في نعمة الله غير المخلوقة فيصبح رحيل نفوسنا من أجسادنا أمراً مفرحاً ومبهجاً.

يتمسك البعض بالطبع بأن مثل هذه المفاهيم الخاصة بالرسوم الجمركية وأرواح الهواء دخلت إلى المسيحية من النظريات الغنوسية والأساطير الوثنية التي كانت سائدة في تلك الفترة. لا يوجد شك أن مثل هذه الآراء قد تكون موجودة في العديد من النصوص الغنوسية والأفكار الوثنية الموجودة في الأساطير الفرعونية والكلدانية. ومع ذلك يجب علينا أن نؤكد أن العديد من الآباء تبنوا التعاليم عن الرسوم الجمركية، ولكنهم نقوها من مرجعيتها الوثنية والغنوسية ووضعوها في الإطار الكنسي. فالآباء القديسون لم يخافوا من مثل هذا العمل المبدع.

حقاً كان الآباء يعملون بطريقة مبدعة عندما كانوا يأخذون العديد من الآراء والنظريات من العالم الوثني ولكنهم كانوا يعطونها محتوى كنسياً. فمن المعروف جيداً أن الآباء استوحوا التعليم عن خلود النفس، وعن نشوة الإنسان، وعن اللاهوى الذي للنفس والجسد، والتعليم عن النفس ثلاثية الأجزاء، والعديد من الأشياء الأخرى من الفلسفات والتقاليد القديمة. ولكنه أمر واضح أنهم أعطوها محتوى آخر ومنظوراً مختلفاً. إننا لا نستطيع أن ننبذ التعليم عن خلود النفس لمجرد أن الفلسفات القديمة تكلمت عنه. فيجب علينا أن نرى المحتوى الذي أعطاه له الآباء القديسون.

هكذا حدث مع موضوع الرسوم الجمركية أيضاً ما حدث مع الموضوعات الأخرى. فحقاً تكلمت التقاليد القديمة والآراء الهرطوقية عن "رؤساء المجال الفلكي" وعن "بوابة الرحلة الفلكية" وعن "أرواح الهواء" وما إلى ذلك. إلا أننا نجد العديد من هذه العبارات في الكتاب المقدس وفي نصوص الآباء. وكما ذكرنا في هذا الباب، فإن العديد من آباء الكنيسة يتحدثون عن رسوم جمركية وأرواح هواء، ولكنهم أعطوها محتوى مختلفاً ومعانٍ مختلفة.

ينبغي علينا أن نفسر التعليم الآبائي عن المحطات الجمركية في إطار الأربعة نقاط التالية:

أولاً: تحتاج لغة الكتاب المقدس الرمزية لتفسير ضروري. فمن يحافظ فقط على التشبيهات المستعملة يشوه رسالة الإنجيل. ويجب علينا أن نقول أن كلمات الكتاب

المقدس قد يُساء تفسيرها لو نظرنا لمعانيها اللاهوتية فقط. ينطبق نفس الشيء على موضوع الرسوم الجمركية. فلا ينبغي علينا أن نفكر فقط في الرسوم الجمركية الخاصة بيومنا هذا والتي يتعين على كل شخص أن يعبر خلالها عند حدود البلاد. تقصد الصورة الرمزية أن تقدم شيئاً، ولكن يجب تفسيرها بطريقة أرثوذكسية.

ثانياً: توجد شياطين هي ملائكة مظلمة. إنها أشخاص وبالتالي لها حرية . وهي بسماح من الله، ولكن أيضاً من خلال استعمال الإنسان لإرادته بطريقة خاطئة، تمكنت من السيطرة عليه. بمعنى أنه بعد رحيل النفس عن الجسد تطلب الشياطين أن تمتلك النفس التي كانت قد تسلطت عليها بسبب عدم توبتها. توجد عبارة شهيرة في مثل يسوع الشهير عن الغني الغبي تقول: "يا غبي! هذه الليلة تطلب نفسك منك فهذه التي أعددتها لمن تكون؟". وبحسب تفسير الآباء فإن الشياطين هي التي تطلب امتلاك نفس الغني الغبي بعد مغادرتها للجسد.

ثالثاً: ليس للشياطين سلطاناً على رجال الله. فكل الذين يتحدون بالله والذين يقتنون داخل نفوسهم وقلوبهم طاقة الله غير المخلوقة هم خارج سيطرة الشياطين. وبالتالي لن يمر الشخص المتحد بالله على ما يسمى الرسوم الجمركية.

رابعاً: بحسب تعليم الآباء كما رأينا من قبل فإن الشياطين التي هي أرواح حقيقية تعمل عن طريق الأهواء. وحقاً تكون الأهواء غير المشبعة سبباً لاختناق النفس بعد مغادرتها الجسد.

إننا عندما نفحص المحطات الجمركية في هذه الإطارات اللاهوتية، لا نجد أن استعمال هذا التعليم غير ملائم. ولكننا نكون سائرين في الطريق الخطأ لو كان لنا مفاهيماً أخرى.

٦- الحالة المتوسطة للنفوس

تسمى حياة النفس منذ انتقالها حتى المجيء الثاني للمسيح، حيث تتحد بجسدها القائم، الحالة المتوسطة. بمعنى أن النفس تكون بين حياتها الأرضية وبين التقائها مرة أخرى بالجسد الذي صار غير فاسد بعد قيامته. تكون هذه الحالة خاصة وغير طبيعية

بالنسبة للنفس طالما أنها تعيش في انفصال عن الجسد الذي كانت مرتبطة به بطريقة مباشرة منذ لحظة خلقها من قِبَل الله.

إننا نحتاج لحذر كبير عندما نستعمل تعبير "الحالة المتوسطة للنفوس" لأن اللاتين يعطونها معنى مختلفاً. فعلى حين أننا نتحدث عن الحالة المتوسطة للنفس بالمعنى المشار إليه بأعلى، فإن اللاتين يقصدون الفترة التي تمر بها كل النفوس لكي تتطهر والتي يسمونها "المطهر". فبحسب التعليم اللاتيني، تمر حتى نفوس الأبرار على هذه النار. إننا لن نتحدث عن هذا الموضوع هنا، لأننا سوف نتناوله بطريقة مطولة في باب آخر من هذا الكتاب.

فيما يلي سوف نرى بصورة تحليلية أكثر أين وكيف تعيش نفوس الناس. تمثل هذه الأسئلة اهتماماً كبيراً للناس في زماننا هذا. بالطبع نحن لن نتوهم أننا سوف نعطي إجابات كاملة، حيث أن هذه الأمور هي أسرار سوف تنكشف بصورة كاملة في المستقبل. ولكن القديسين الذين أنعم الله عليهم بمعرفة بعض هذه الأسرار أعلنوها لنا. وبالتالي سوف نلتزم بشدة فيما يلي كالعادة بما يقوله الآباء القديسون لكي نكتشف هذه الحقائق العظمى.

لقد قلنا أن نفوسنا مخلوقة من قِبَل الله، مما يعني أن لها بداية محددة ولكن الله أراد لها ألا يكون لها نهاية. وتشكل النفس العنصر النوسي في كيان الإنسان ويشكل الجسد العنصر المادي. لا تستطيع حواس الجسد أن تدرك النفس، ولكنها ليست غير مادية كليةً. يُعلِّم القديس يوحنا الدمشقي أن الملائكة أيضاً تسمى أرواحاً نوسية، لها مادة عقلانية، وتسمى غير جسدانية مقارنةً بكثافة المادة. لأن الله فقط هو غير المادي وغير الجسداني بحق[٦٦].

إننا عندما نقول غير جسدانية وغير مدركة وعديمة الشكل فإننا نعني ذلك بطريقتين. في جوهرها من جانب، وبالنعمة من الجانب الآخر. "فالجوهر" يشكل ما هو طبيعي، و"بالنعمة" يشكل المقارنة بالمادة. بالتالي كما يقول القديس يوحنا الدمشقي فإن الله وحده هو غير الجسداني وغير المُدرَك وعديم الشكل بالطبيعة، على حين أن الملائكة والشياطين ونفوس الناس هي غير جسدانية وغير مرئية وعديمة الشكل بالنعمة و"مقارنةً بكثافة المادة"[٦٧].

---

[66] - John of Damascus: The Orthodox Faith, BK. 2, 3, FC 37, p. 205.
[67] - Ibid.

النفوس هي إذاً عاقلة ومع ذلك هي ليست أرواحاً مثل الله ولكنها مخلوقة وأثيرية. وتماماً مثل الملائكة التي على الرغم من كونها أرواحاً مرسلة إلا أنها تسمى كيانات أثيرية، هكذا أيضاً النفوس هي أثيرية. وبهذا المعنى نقول أن النفوس بعد مغادرتها الجسد تستقبلها الملائكة أو الشياطين. فلو كانت عاقلة بالتمام فكيف يمكن أن يحدث ذلك؟

لقد بلور الفلاسفة والعديد من أصحاب الأديان المختلفة العديد من النظريات عن حالة النفس بعد أن تترك الجسد. وحاول الإنسان باستمرار أن يجد إجابة على أسئلته عن الحياة بعد الموت. والقديس ديونيسيوس الأريوباغي سرد قائمة بفئات أولئك الناس. فقال أن الملحدين بلوروا العديد من النظريات عن حالة النفوس بعد أن تترك الجسد. فالبعض يظنون أنها تذهب إلى اللاوجود، ويظن الآخرون أن اتحاد النفوس والأجساد ينحل بصورة نهائية ولا يتكلمون عن قيامة الأجساد وإعادة اتحاد النفس والجسد؛ والآخرون ينسبون للنفوس اتحادها بأجساد أخرى، حيث أنهم يؤمنون أنها مرتبطة بتجسدات أخرى وذلك بحسب نظرية تناسخ الأرواح. ويرى الآخرون أن الحياة الآتية مشابهة للحياة الحاضرة حيث أنهم يعلنون أن أولئك المساوين للملائكة لهم طعام مناسب لحياة فانية؛ ينتمي أصحاب العقيدة الألفية لهذه الفئة. ولكن يرى القديس ديونيسيوس الأريوباغي كل هذه النظريات عن الحياة بعد الموت على أنها نظريات خاطئة، وبالتالي يقول مؤكداً أن أياً من الرجال القديسين لم يكن ليسقط في مثل هذه الأخطاء[٦٨].

توجد العديد من النصوص في الكتاب المقدس التي تنص على أن النفوس تحيا بعد الموت. فمعجزة إقامة ابن أرملة صرفة بواسطة إيليا النبي معروفة جيداً. فقد صلى النبي إلى الله قائلاً: "يا رب إلهي لترجع نفس هذا الولد إلى جوفه" وبعد الصلاة "حدث هذا" وعاش الصبي (١مل ١٧: ٢١-٢٣). تعني حقيقة رجوع نفس الصبي إليه ثانية أنها كانت موجودة بعد الموت وأنها لم تُختزَل إلى لاوجود. إننا نرى نفس هذا الشيء بالضبط في قيامة لعازر وابن أرملة نايين وابنة يايرس حيث عادت نفوسهم بكلمة من يسوع. وعندما يشير الكتاب المقدس إلى موت رجال العهد القديم العظماء فإنه عادة ما يقول أن أرواحهم "انضمت إلى آبائهم" (تك٢٥: ٨).

وفي تجلي المسيح ظهر هناك نبيان عظيمان من العهد القديم هما موسى النبي وإيليا النبي. وأكد السيد المسيح للِّص الذي اعترف به: "الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي

---

68 - Dionysios the Areopagite: The celestial hierarchy, ch. 7, I, 2, CWS p. 250.

في الفردوس" (لو٢٣: ٤٣). وبقوله هذا، أعطى السيد المسيح تأكيداً على أن نفس الإنسان تكون موجودة بعد موته وأنها لا تُفقَد. ولقد كان من الممكن أن نذكر العديد من النصوص ولكننا سنكتفي بما ذكرناه.

يؤكد التقليد الآبائي كله بالإضافة إلى خبرة الكنيسة على هذه الحقيقة لأن الرأي العكسي هو رأي ملحد ومنكر للإيمان المعلن. وفي الحقيقة فإن أياً من يقبل العكس يزعزع أساسات الإيمان حيث أننا نجاهد لكي نحفظ وصايا المسيح في حياتنا اليومية حتى نبقى مع الله إلى الأبد. يقول القديس نيكيتا ستيثاتوس: "كل من يعيش حياة إلهية سيحيا كما قيل، حتى لو رحل عن هنا". ولئلا يأخذ أحد انطباعاً أن نفوس الأبرار هي فقط التي ستعيش بعد الموت، فإنه يستكمل قائلاً أن هذا ينطبق أيضاً على نفوس الأشرار وغير الأتقياء. فلا يعيش الأتقياء فقط بعد الموت "ولكن أيضاً غير الأتقياء، حيث سيُعطَى كل واحد المكافأة الملائمة لأعماله"[٦٩].

توجد نقطة مهمة تم التأكيد عليها في كتابات الآباء القديسين، ومن الواضح أنها موجهة ضد تناسخ الأرواح، وهي أنه على الرغم من انفصال نفس الإنسان عن جسده، إلا أن جوهره لا يفنى. فبمقدار ما تكون النفس مخلوقة من الله مع الجسد، بمقدار ما يعني ذلك أن نفس كل إنسان فريدة.

إن كلمة "أقنوم"hypostasis مشتقة من فعل يعني الوقوف في الأسفل وهي تعني الثبات، والتأسيس، والأساس، وما إلى ذلك. وفي لغة علم اللاهوت تعني كلمة "أقنوم" بصورة رئيسية الوجود، والواقع على عكس المظهر[٧٠]. وبحسب القديس يوحنا الدمشقي فإن تعبير أقنوم يعني شيئين: الأول "وجود" والثاني الوجود الخاص بكل إنسان[٧١]. بمعنى أن كل إنسان هو أقنوم، وله وجود حقيقي، ولكن لكل إنسان وجوده الخاص وخصائصه المميزة التي تميزه عن الناس الآخرين أي عن الأقانيم الأخرى.

يشكل الإنسان منذ لحظة خلقه شخصاً أقنومياً خاصاً ولا يفنى هذا الأقنوم ولو بموته. فالقديس يوحنا الدمشقي يقول أن الأقنوم هو تكوين الجسد والنفس عند بداية وجود كل شخص. أي أن الإنسان مصنوع من نفس وجسد متحدين في أقنوم واحد

---

[69] - Nicetas Stethatos, Mystika syggrammata, p. 122 (GK).
[70] - Liddel & Scott: Mega Lexikon, Vol. 4, p. 485 (GK).
[71] - John of Damascus: Philosophical chapters, 29, FC 37, p. 54.

عند بداية خلقه بواسطة الله، وهذا الأقنوم لا ينحل ولا حتى بالموت. وبالتالي "فعلى الرغم من انفصال النفس عن الجسد في الموت فجوهر كل منهما يبقى واحداً ومتشابهاً. إذ أن التشكيل ذاته لكل شيء عند بداية وجوده هو أقنوم"[٧٢].

هذا هو السبب الذي جعل الرب في مثل الغني ولعازر يقول أن الرجل الغني رأى لعازر في حضن إبراهيم وليس فقط نفس لعازر. لأنه على الرغم من وجود نفس لعازر في حضن إبراهيم، إلا أنها هي لعازر ذاته طالما أن جوهره لم يُلغى بالموت.

إن التعليم المنادي بأن انفصال النفس عن الجسد لا يحطم أقنوم الإنسان موجود أيضاً في تعاليم القديس غريغوريوس النيصي. فهو في الواقع يعطينا هو نفسه تشبيهين عجيبين.

التشبيه الأول يأتي من فن الرسم. فالرسام الذي يستعد لتصوير شكل حدث ما أو شخص ما لا يعلم فقط كيف يخلط الألوان، ولكن أيضاً كيف يميز ما قد تم خلطه. فهو يكون لديه معرفة واضحة عن الخصائص المميزة للون الأسود، والأبيض، والأحمر، والأصفر؛ بالإضافة إلى إدراكه لما سيتكون بخلط البعض بالآخر. وحتى بعد أن تختلط الألوان لا يفقد معرفته بالألوان الأصلية. ينطبق نفس الشيء أيضاً على النفس في علاقتها بالجسد المصنوع من عدة عناصر.

تعرف النفس الخصائص الطبيعية للعناصر التي كانت قد اتحدت لتصنع الجسد حتى بعد أن تتحلل هذه العناصر. وعندما تتشتت العناصر المكونة للجسد وتوضع في أماكن مختلفة، فإن النفس تتعرف عليها حتى في ذلك الحين، وتتواصل معها بقوتها المعرفية، وتقربها من بعضها حتى تتحد هذه العناصر ثانية ويعاد بناء الجسد. سوف تحدث إعادة الاتحاد تلك بكلمة الرب عند المجيء الثاني، وهذه هي قيامة الجسد. فحقاً على الرغم من انفصال النفس عن الجسد فهي تعرف وتتذكر العناصر التي كانت تكون جسدها الخاص.

يأتي التشبيه الثاني من فن السيراميك ويقود لنفس النتيجة، وهي أن النفس لا تجد صعوبة في تمييز جسدها الخاص بين أجساد أخرى وعناصر غريبة. فالأواني الخزفية المتشابهة تُصنع من نفس الطين. وعلى الرغم من أنها تأتي من نفس المادة، إلا أن كل منها له شكله الخاص؛ فالواحد يكون جرَّة، والآخر وعاءً، والثالث طبقاً، وما إلى ذلك. يتم

---

72 - Ibid. ch. 66, p. 104.

التعرف على كل هذه الأشياء بخصائصها من قِبَل مالكها. ولكنها حتى لو تحطمت واختلطت معاً فإنها تُعرَف بخصائصها المميزة، وتُعرَف أية قطعة تخص الوعاء وأيها تخص الجرة، وهكذا. وحتى لو اختلطت الأواني الخزفية المتحطمة بالطين الذي لم يُشَكَل بعد، فعندئذ أيضاً سوف يكون من السهل أن تكون واضحة لمالكها.

ينطبق نفس الشيء أيضاً على النفس التي بعد مغادرتها للجسد وبعد تحلله تتعرف على جسدها الخاص حتى لو كانت أجزاؤه قد اختلطت بأجزاء أجساد أخرى، أو حتى لو كانت قد اتحدت بعناصر مواد غير مشكلة مثل الماء والهواء وما إلى ذلك. "تتعرف النفس دائماً على جسدها الخاص، وماذا كان يشبه ومتى اتخذ شكله"[٧٣].

يُظهر ذلك أن أقنوم الإنسان لا يفنى بالموت أي انفصال النفس عن الجسد. فالإنسان يبقى على الرغم من الانفصال. وانفصال النفس عن الجسد هو حالة مؤقتة، لأنهما سوف يتحدان ثانية في المجيء الثاني للمسيح . **وبالتالي لا نستطيع في الكنيسة الأرثوذكسية أن نقبل أن النفس تموت وتختفي بعد رحيلها عن الجسد ، ولا أنها تتجسد ثانية في أجساد أخرى. فكل جسد متحد بنفس واحدة، وكل نفس متحدة بجسد واحد، وكلاهما يشكلان معاً الأقنوم الخاص أي إنساناً معيناً.** إننا عندما نصف الإنسان بأنه شخص أقنوم فإننا نعني أيضاً هذه الفرادة والثبات الذي لوجوده بالإضافة إلى أشياء أخرى.

هذا التعليم بعينه عن عدم انحلال الأقنوم يدحض كل نظرية عن التقمص وتناسخ الأرواح. لأن مثل هذه الآراء ترى أن للنفس الواحدة عدة أجساد وعدة وجودات أخرى. يدحض القديس غريغوريوس النيصي هذه النظرية قائلاً أن كل أولئك الذين يؤكدون على مثل هذه الأشياء يحقرون الطبيعة البشرية طالما أنهم يقبلون أن نفس الإنسان تكون أحياناً نفساً لإنسان، وأحياناً أخرى نفساً لحيوان أو زاحفة أو نبات وما إلى ذلك.يصف القديس غريغوريوس النيصي مثل هذه الآراء بأنها حمقاء، كما أنه يدحضها بسلسلة من البراهين.

فهو يقول أن أولئك الذين يدَّعون مثل هذه الأشياء يخلطون خصائص الطبيعة، إذ أنهم يخلطون معاً غير العاقل بالعاقل، والحساس بغير الحساس. فهم ينظرون لذات النفس

[73] - Gregory of Nyssa, op. cit. ch. 5, p. 65-69.

على أنها عاقلة في بعض الأحيان، وعلى أنها في أحيان أخرى تعيش في جحور الزواحف، وفي أحيان ثالثة متوحشة أو طائرة مع الطيور، وفي أحيان رابعة تقع في حالة من عـــدم الحس بأن تكون نباتاً أو مولدة لسموم وما إلى ذلك. والأمر المروع هو أنــه لــو رأى الإنسان أحد الحيوانات السامة وآكلة اللحوم فإنه سوف ينظر إليها على أنها من جنسه ومن أقاربه. في هذه الحالة تصبح الحياة صعبة جداً، لأنه أحياناً ما سيضــطر الإنســان لاحترام كل شيء على أنه من جنسه وينــتمي لنفس فصيلته، وأحياناً مــا سيســلك بطريقة قاسية عندما يظن أن الإنسان لا يختلف عن الأشجار والنباتات والحيوانات وما إلى ذلك. كيف سيسلك من نحو الطبيعة إذاً لو كان يتوقع وجــود نفــوس أنــاس في داخلها؟ وهذا هو السبب الذي جعل نظرية تناسخ الأرواح "تُشجَب"[٧٤].

نحن لا نقبل مثل هذه الآراء في الكنيسة الأرثوذكسية. وفي الواقع تمت إدانتــها بصورة رسمية. فمذكور في كتاب "المجامع الأرثوذكسية": "ليكن محروماً مــن يعتــرف باحترامه للعقائد اليونانية بلا خجل أو بالأحرى بإلحاد، ويدخل عقائــد خسيســة إلى الكنيسة الأرثوذكسية الجامعة بخصوص النفوس البشرية والسماء والأرض والمخلوقــات الأخرى". وبتعبير آخر فيما يخص موضوع النفوس البشرية فأولئك الذين يخلطون الإيمان الأرثوذكسي بمعتقدات الوثنيين القدماء يكونون محرومين.

وفي حرمان آخر يقول: "ليكونوا محرومين أولئك الذين يفضلون مــا يســمى حكمة الفلاسفة الخارجة الحمقاء، وكل المعلمين الذين يتبعون هؤلاء الفلاسفة، وكــل الذين يقبلون بمبدأ تناسخ الأرواح البشرية، أو حتى يقبلون بفنائهــا مثــل الحيوانــات الأعجمية وصيرورتها إلى عدم، وبالتالي يستخفون بالقيامة والدينونة والمكافأة الأخــيرة للحياة التي عاشوها"[٧٥].

لقد رأينا في موضع آخر في هذا الباب بتفصيل أن نفوس الناس بعــد مغادرتهــا للجسد إما تستقبلها ملائكة وتذهب إلى حضن إبراهيم، أو تستقبلها شياطين وتــذهب إلى الجحيم. هذه هي الحقيقة التي تعلمنا إياها كنيستنا.

على أية حال، لا يحصل لا الأبرار ولا الخطاة على الفردوس والجحيم بصــورة كاملة ولكنهم ينالون عربوناً من النعيم المناسب للأبرار ومن عذاب الخطــاة. يقــول

---

[74] - Ibid. ch. 8, p. 90-92.
[75] - Triodion, ed. Phos, p. 159 (GK).

القديس مرقس آفيانيكوس أن بهجة ونعيم القديسين، سواء سُميت رؤية الله أو الشركة مع الله أو الملكوت، على الرغم من أن النفس تتمتع بها عند رحيلها من الجسد "إلا أنها تكون جزئية وغير كاملة مقارنة بالاستعادة المرجوة". **إنها جزئية وغير كاملة لأن النفوس تنتظر أيضاً أجسادها عند المجيء الثاني للمسيح الثاني حتى تتمجد معها بالتمام**[٧٦].

بعد أن تغادر النفس الجسد تنتظر مجيء المسيح والدينونة الآتية عند حدوث قيامة الأجساد. ومع ذلك هي تتمتع بعربون مسبق بحسب أعمالها، وتقيم في الأماكن الخاصة التي يجب أن نفهمها على أنها طرق حياة خاصة. يقول القديس مرقس آفيانيكوس أن الأبرار والخطاة "يوجدون في أماكن ملائمة لهم" فيعيش الأبرار حياة مريحة وحرة في السموات مع الملائكة والله في الفردوس الذي سقط منه آدم، وأما الخطاة فيعيشون في الجحيم في ضيق وحزن بدون تعزية مثل المحكوم عليهم المنتظرين قرار القاضي. فلا الأبرار ولا الخطاة يحصلون على ملكوت السموات أو الجحيم بصورة كاملة[٧٧]. وبالتالي نلاحظ وجود تمييز بين الفردوس وملكوت السموات، وبين الجحيم وجهنم. يدخل الأبرار الفردوس بعد موتهم وينتظرون دخول ملكوت السموات بعد قيامة أجسادهم. ويدخل الخطاة الجحيم بعد الموت وسيدخلون جهنم بعد قيامة أجسادهم والدينونة الأخيرة.

ليست هذه بالطبع أماكن جغرافية، ولكنها أماكن نوسية. فنحن نعلم أن النفس التي تغادر الجسد لا تعمل من خلال الحواس، ولا هي تُحتَوى داخل مكان حسي، وليس لها احتياج لخدمات الجسد. فالقديس مرقس آفيانيكوس يقول أننا عندما نقول أن الملائكة تسكن في السماء فإننا لا نعني مكاناً جسدياً "ولكن بالأحرى مكاناً أسمى من العقل والفهم" حتى لو كنا نسميه مكاناً. وهو في الواقع إذ يستخدم نصاً للقديس يوحنا الدمشقي يقول أن المكان المعقول "هو مكان يُفهم من الداخل، وهو الطبيعة المعقولة عديمة الجسد التي يأتي منها ويعمل". هذا المكان الذي هو معقول، وعديم الجسد، وسماوي، وعلوي هو مكان الملائكة والقديسين. **فالمكان الذي يعمل الله فيه، وفيه يظهر مجده هو مكان معقول**[٧٨].

---

[76] - Patrologia Orientalis 15, p. 152 (GK).
[77] - Mark Eugenicus: On purgatorial fire, homily 2, Ibid. p. 110.
[78] -Mark Eugenicus, PO 15, p. 153.

هكذا لا نستطيع أن نحدد أماكن معينة تقيم فيها نفوس القديسين والخطاة. فنحن نستعمل كلمتي فردوس وجحيم لكي نعبِّر عن طريقة حياة معينة حيث أن الأبرار يشتركون في مجد الله، على حين أن الخطاة يتلقون قوى الله الحارقة.

يعطي القديس ديادوخوس الذي من فوتيك ملحوظة ينبغي علينا أن نذكرها هنا لأنها مرتبطة بحالة النفوس بعد رحيلها من الجسد، ولها علاقة بالعالم المادي. إنه يقول أن كمال الإنسان يكمن في اتحاد النفس والجسد، على حين أن كمال الملائكة يكمن في بساطة طبيعتهم. وهذا هو السبب الذي يجعل الملائكة قادرين على رؤية ليس فقط ما هو فوق المكان، ولكن أيضاً كل ما بداخله. وحيث أن طبيعتهم دقيقة فإنهم لا يُرَون بواسطة المخلوقات ذات الطبيعة الكثيفة، ومع ذلك فهم أنفسهم يستطيعون رؤية المخلوقات ذات الطبيعة الكثيفة. وعلى الرغم من هذا، لا ينطبق ذلك على النفوس. **فعندما تنفصل النفس عن الجسد "لا تستطيع، بعد، أن ترى ما هو موجود في مكان ما" بسبب حقيقة كونها غير كاملة في ذاتها وحدها**[٧٩].

هذا بالطبع لا يعني أن النفوس ليس لها ذاكرة وأنها لا تبالي بنا. **فالرجل الغني في** الجحيم كان مهتماً بأقاربه الأحياء على الرغم من أنه لم يكن قادراً على **مساعدتهم.** بمعنى أن نفوس الذين رقدوا تتذكر الأشخاص الذين كانوا يهمونها في الحياة، **وهي** تنشغل بهم، ولكنها تكون في بُعد آخر من المكان والزمان. فنفوس القديسين تكون واعية بحالتنا من خلال الله، لأن لديهم محبة ولأنهم يعيشون في شركة مع الله. **إنهم يسمعوننا،** ويتلقون صلواتنا ويصلون لله عنا. ويحدث هذا بواسطة النعمة بسبب اتحادهم بالله. **ولا** تكون هذه حالتهم الطبيعية. ومع ذلك، فإن ما أكد عليه القديس **ديادوخوس مذكور** بهدف إظهار الفرق بين نفوس الناس والملائكة في هذه النقطة.

كما قلنا من قبل، بعد أن ترحل نفوس الخطاة غير التائبين **فإنها تجد نفسها في** الجحيم الذي هو مختلف عن جهنم. فالجحيم هو عربون للعذاب الأبدي. **إننا نستطيع أن** نسميه حجرة الانتظار حيث تنتظر النفوس الحكم عليها. يقول القديس غريغوريوس النيصي أنه **لا ينبغي علينا أن نظن أن الجحيم هو مكان ولكنه حالة للنفس غير مرئية وغير جسدانية**[٨٠]. عندما نتكلم عن الجحيم فإننا لا نعني سوى "تغير النفس وتحولها إلى

[79] - Diadochos of Photiki: Oraseis 29, Philok. 9, p. 342 (GK).
[80] - Gregory of Nyssa, op. cit. p. 235.

غير المرئي وغير المنظور"[٨١]. يستعمل القديس نيكيتا ستيثاتوس كلمة جحيم بهذا المعنى (الأماكن المظلمة السوداء) لكي يصف سجناً وحبساً[٨٢].

لو أن النفس لم تُشفَ أثناء اتحادها بالجسد، فإنها بعد مغادرتها الجسد تعاني وتتعذب بالأهواء، ولا تشعر بأية راحة أو تعزية، ولا يكون لها نصيب في طاقة الله المانحة الاستنارة والمؤلهة؛ وهذا ما يشكل طريقة حياة مظلمة معتمة وعذاباً وقهراً؛ وهذا هو ما يسمى جحيماً.

وعلى عكس ذلك، فإن الأبرار بعد رحيلهم من هذه الحياة يعيشون في الفردوس في حضن إبراهيم. وبتعبير آخر، فإنهم يشتركون في قوة الله المانحة الاستنارة والمؤلهة. يقول القديس نيكيتا ستيثاتوس أن نفوس القديسين التي هي نقية وعطرة ومشابهة لله ومملوءة من مجده ومن النور الأكثر نقاوة، عندما تغادر الجسد تضيء مثل الشمس بسبب أعمالها البارة والحكيمة والطاهرة. تُحمَل هذه النفوس "بملائكة صديقة إلى النور الأول"[٨٣]. والنور الأول هو الله الثالوث، الإله المثلث الأقانيم. والنور الثاني هو الملائكة والأبرار الذين يشتركون في النور الأول.

يتحرك كل الآباء القديسين داخل هذا المجال. أود أن أذكر فقط القديس غريغوريوس بالاماس الذي عندما سؤل عن المكان الموجودة فيه أرواح القديسين الخالدة فإنه أجاب: "أليست هي موجودة في النور السماوي مع الملائكة حيث تتمتع بالاستنارة؟"[٨٤].

لقد قلنا من قبل أن نفوس الناس بعد انفصالها عن الجسد تتمتع بما عملته وعاشته في حياتها. أي أنها تختبر حالات مشابهة لطريقة حياتها. فلو أنها كانت قد تطهرت، فإنها سوف تتمتع بقوة الله المانحة الاستنارة والمؤلهة. على حين أنها لو كانت لم تُشفَ، فإنها سوف تختبر قوة الله الحارقة، وسوف تدخل مكاناً مظلماً معتماً يسمى الجحيم. ولكن يوجد نص للقديس أندراوس الذي من كريت يذكر فيه أنه حتى نفوس الأبرار سوف تعبر على الجحيم بعد أن تترك الجسد. وهو يربط ذلك أيضاً بأم الله.

---

81 - Ibid. p. 225.
82 - Nicetas Stethatos, op. cit. p. 125.
83 - Ibid. p. 123f.
84 - Gregory Palamas: Against Gregoras 3, 27, Syggrammata vol. 4, p. 336 (GK).

يُعلّم القديس أندراوس الذي من كريت أنه من الواضح وغير القابل للنـزاع أن نفوس كل الناس وحتى نفوس القديسين تعبر "خلال هذا المكان المظلم ولكنها لا تبقى فيه". فنفوس الأبرار تعبر خلال الجحيم ولكن دون أن تبقى، على حين أن نفوس الخطاة تبقى هناك. يحدث هذا لكي يتحقق القديسون من السر العجيب للتدبير الإلهي أي نزول المسيح للجحيم، وحتى يعرفوا أيضاً انتصار المسيح على الجحيم والموت[٨٥].

من المؤكد أن هذا الرأي أيضاً عندما يوضع في إطار تعاليم الآباء الآخرين الـتي قارنّاها من قبل، فإنه من الممكن شرحه بطريقة أرثوذكسية كالآتي: تمر نفوس القديسين خلال الموت بنعمة الله، وهي أيضاً تختبر بطريقة نسكية وفعالة انتصار المسيح على الموت والشياطين الشريرة. هذه هي أعظم معرفة روحية.

في النهاية، نستطيع أن نقول أن الحالة المتوسطة للنفوس هي فترة انتظار تتمتع أثناءها بعربون الأشياء التي تنتظرها والمرتبطة بما اختبرته عندما كانت متحدة بأجسادها. **لذلك ينبغي علينا أن نصلي من أجل الذين رحلوا لأنهم يحتاجون هذا بشدة. فتذكارات وصلوات الكنيسة تساهم في ذلك إذ تستفيد النفوس بطريقة لا نعلمها بالضبط.** على أية حال، إنها عادتنا أن نتذكرهم في صلواتنا. فهم الآن غير قادرين على مساعدة أنفسهم بأية طريقة. ولكن نستطيع نحن الأحياء مساعدتهم. دعونا نطلب من القديسين أيضاً لأن لهم حرية كبيرة للتحدث مع الله حيث أنهم موجودون في نوره غير المخلوق.

٧- موت الأطفال

أعتقد أنه ينبغي علينا قبل أن ننهي هذا الباب أن نتناول موضوع موت الأطفال بحسب تعليم القديس غريغوريوس النيصي. فهذا الموضوع يرتبط، كما تكلم هو عنه وكما سوف نقدمه فيما يلي، بما قيل في هذا الباب عن الموت وانفصال النفس عن الجسد. فمن جهة، سيكون ملخصاً للنقاط الرئيسية التي ناقشناها في تعليم الآباء عن انفصال النفس عن الجسد، ومن جهة أخرى سيجلب لنا جوانب أخرى إضافية مهمة.

---

85 - Andrew of Crete: Homily 12, On the Dormition of the Virgin, PG 97, 1049-1052.

توجد رسالة صغيرة للقديس غريغوريوس النيصي عنوانها: "بخصوص الأطفال المُختَطَفين قبل الوقت" أي المنزوعين من الحياة قبل أن يتذوقوا الحياة التي ولدوا من أجلها. لقد كُتِبت الرسالة إلى إيريوس حاكم كبادوكية الذي كان قد سأل القديس غريغوريوس النيصي عما يجب أن نعرفه عن أولئك الذين يغادرون الحياة مبكراً جداً، والذين يتزامن موتهم مع ولادتهم[٨٦].

وإذ أراد القديس غريغوريوس أن يبلور هذا الموضوع، انتهز الفرصة لكي يمدح الحاكم بكلمات رقيقة مسمياً إياه "رئيساً ممتازاً" و"مبجلاً". وبخلاف تعبيرات لباقة الحديث المتأدبة، يبدو من المقدمة أن حاكم كبادوكية كان له العديد من الصفات والمواهب. فقد كان متميزاً بعدم الاهتمام بالثروة المادية، بالإضافة إلى اهتمامه بنفوس الناس الذين كانوا موضع محبته. وبتعبير آخر، كان يحب الناس و لم يكن موصوفاً بالأنانية.

يبدو من مقدمة النص أيضاً أنه في وقت كتابة هذه الرسالة كان القديس غريغوريوس النيصي متقدماً في العمر. فهو يشبه نفسه بحصان عجوز باقٍ خارج مضمار السباق. ومع ذلك فإنه يعلن أنه سيركز انتباهه على إجابة طلب الحاكم.

ومن ضمن مواهب إيريوس المتعددة أنه طلب أن يتعلم عن عمل التدبير الإلهي. لقد كان يسأل لماذا تمتد حياة شخص ما لعمر طويل على حين تنتهي حياة الآخر بمجرد دخوله الحياة.

إنها حقاً مشكلة وجودية يعرضها القديس غريغوريوس بطريقة جميلة. فالإنسان يدخل مسرح الحياة عند ولادته، ويأخذ نَفَساً من الهواء، ويبدأ عملية الحياة بصرخة ألم، ويدفع الدموع كضريبة للطبيعة، ويتذوق أحزان الحياة قبل أفراحها وقبل أن تتشدد مفاصله، ويموت ضعيفاً كما هو ربما بسبب أنه تُرِك عارياً كطفل حديث الولادة، أو ربما بسبب أنه اختنق، أو بسبب بعض الأمراض التي وضعت نهاية مفاجئة لحياته. وبالإضافة إلى هذه الحقيقة، يُطرَح أيضاً سؤال عما إذا كان الطفل سيحاكَم من قِبَل الديان مثل الناس الآخرين، وهل سيتلقى مكافأة على سبيل البركة؟ أم أنه سيحترق في النار المطهرة. ينتج هذا الشك بسبب أن الطفل لم يفعل شيئاً في حياته، لا خيراً ولا شراً. لأنه حيث لا عطاء لا يوجد عطاء في المقابل. بالتالي، لو أنه لا يوجد فعل واختيار في الأطفال، فإنه لا يوجد

---

86 - Gregory of Nyssa: On infants' early deaths, NPNFns, vol. 5, p. 372-382.

سبب يستحقون عليه ما نرجوه. فلو دخل الأطفال ملكوت السموات على الرغم من ذلك، فإنها تكون ميزة أكبر ووضع أفضل من وضع الذين عاشوا وجاهدوا في حياتهم. فلو فكرنا هكذا، لكان من الأفضل لكل أحد ألا يعيش طويلاً.

بعد أن حدد القديس التساؤلات والمشاكل، استطرد في إعطاء إجابة مستفيضة. لقد اعترف بالطبع من البداية أن مثل هذه المواضيع العظيمة تخص أفكار الله غير المفحوصة. وبالتالي يتعجب مع الرسول قائلاً: "يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه. ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء لأن من عرف فكر الرب أو من صار له مشيراً"(رو ١١: ٣٣-٣٤). ومع ذلك فإنه يتناول المسألة المطروحة لأنه يؤمن بنعمة الله التي تنير كل الذين يقتنوها. وبدون أن يقدم أفكاره بطريقة بلاغية وبكلمات متناقضة، فإنه يمضي قدماً ليتناول الموضوع بترتيب منطقي.

أول نقطة يتناولها القديس هي أن الطبيعة البشرية تأتي من الله. بالإضافة إلى أن علة كل الكائنات هي في الله وليست في ذاتها. فالطبيعة غير المخلوقة التي هي الله تتجاوز كل شعور بأبعاد، فهي لا تزيد ولا تنقص، وهي في الواقع فوق كل تعبير. وعل عكس ذلك، فإن الطبيعة المخلوقة متغيرة أي أنها تزيد وتنقص. إن الطبيعة البشرية مركبة ومصنوعة من عناصر غير متجانسة، من النوسي والحسي، وهي تعيش في صورة قوة الله الإلهية الفائقة. تنتمي الطبيعة العاقلة لقوى الملائكة وغير الجسدانيين الساكنين في مكان علوي بسبب أن هذا المكان هو الأكثر ملائمة لطبيعتهم غير الجسدانية. يتكلم هنا القديس غريغوريوس عن أجسام الملائكة التي يسميها "جسماً سماوياً خفياً خفيفاً دائم الحركة" وذلك لأن الطبيعة العاقلة رقيقة، ونقية، وعديمة الوزن، ودائمة الحركة. وعلى عكس ذلك، فإن الطبيعة الحسية تختلف عن العاقلة. بالتالي لكي لا تكون الأرض تعيسة الحظ وينقصها نصيباً في الطبيعة العاقلة خلق الله الإنسان بحيث يتحد في طبيعته ما هو نوسي بما هو حسي. وبتعبير آخر، فإن الإنسان هو خلاصة كل الخليقة طالما أنه متكون مما هو نوسي وحسي.

النقطة الثانية هي أن هدف خلق الإنسان هو أن يتمجد الله بالطبيعة النوسية في كل الخليقة. فتماماً كما يبقى الجسد حياً بالطعام الأرضي لكونه هو ذاته أرضي، هكذا أيضاً توجد حياة معقولة تحيا بها طبيعتنا النوسية. ومثلما يدخل ويخرج الطعام من أجسادنا تاركاً لها قوة، هكذا أيضاً يُمنَح النوسي الحياة بالاشتراك في الوجود الرئيسي.

بالتالي، **تكون الحياة المناسبة للطبيعة العاقلة هي الاشتراك في الله.** فلكل شيء عضوه المناسب. فالعضو المناسب للاستمتاع بالنور هو عين الإنسان وليس أصبعه أو أي عضو آخر في جسمه. **هكذا أيضاً رؤية الله تحدث بواسطة ما هو نوسي في الإنسان، ولذلك تكون الحياة هي الاشتراك والشركة في الله.** ومن الطبيعي أن تكون هذه الشركة هي معرفة الله بالعمق الذي تستطيع النفس الوصول إليه. وبالطبع يعني الجهل بالله عدم الاشتراك فيه.

فالابتعاد عن هذه الحياة هو سقوط وجهل. **فمنذ سقوط الإنسان، والله يعمل على شفاء الشر الموجود فينا.** فمن الشر أن نبتعد عن الله وألا يكون لنا شركة معه. وشفاء ذلك هو أن نعود ثانية للحياة ونحصل على الشركة مع الله. **يكون الخير إذاً هو شفاء الجانب النوسي للنفس، وبالطبع فإن من لا يرجع إلى سر كلمة الإنجيل يكون جاهلاً بكيفية شفائه.**

ما يشير إليه القديس غريغوريوس النيصي هنا، وأنا أعتقد أنه مهم جداً، هو أن الأداة الملائمة للشركة مع الله هي الجزء النوسي من النفس. فمن خلاله يشترك الإنسان في الله ويكتسب معرفة عنه التي هي الحياة لأجله. ولكن لأن السقوط هو اغتراب الإنسان عن الحياة وهو مرضه الذي هو أيضاً موته، فإن الجزء النوسي من نفسه يحتاج لأن يُشفَى حتى يرى النور ويصل للشركة مع الله.

لقد تكونت الطبيعة البشرية من قِبَل الله بحيث ترجو هذه الحياة وتنجذب نحوها. هذا هو الغرض الذي من أجله خُلِق الإنسان: أن يتحد بالله. وبالتالي لا يكون التمتع بهذه الحياة وتحقيق الهدف من وجود الإنسان الذي هو الاتحاد بالله مكافأة أو رد دين، ولكنه حالة طبيعية. وعدم الاشتراك في الله هو ليس عقاباً، ولكنه مرض لنفس الإنسان ولكل كيانه.

يتخذ القديس غريغوريوس من أعيننا مثالاً. فقدرة أعيننا على الرؤية ليست جائزة ولا مكافأة، ولكنها حالة طبيعية للأعين السليمة. وعدم القدرة على الاشتراك في الرؤية ليست حكماً ولا نتيجة لعقوبة، ولكنها مرض للإنسان. وبالتالي تكون الحياة السعيدة غريزية وطبيعية "بالنسبة لأولئك الذين طهروا حواسهم". ولكن ذوي الأعين غير الطاهرة روحياً، والذين لا يعرفون الله لا يشتركون فيه. ليس هذا عقاباً، ولكنه حالة طبيعية من مرض الجزء العاقل من أنفسهم.

النقطة الثالثة المرتبطة بالنقاط السابقة هي أن الخير المرجو هو خاص بالجنس البشري بالطبيعة. ومن الطبيعي أن تُسَمى هذه اللذة بشكل ما رداً لدين. فليس التمتع بهذه الحياة الأبدية مسألة عدالة ولكنه حالة طبيعية للنفس. يقول القديس غريغوريوس ذلك بسبب الطريقة التي طُرِح بها السؤال: كيف سيحاكم الطفل؟ أو إلى أين سيُرسَل طالما أنه لم يصنع لا شراً ولا خيراً في حياته؟ يقول القديس غريغوريوس **أن السؤال لا يُطرَح هكذا طالما أن الأمر لا يتعلق بالعدالة ولكن بحالة طبيعية من الصحة أو المرض للطبيعة البشرية.**

من الممكن توضيح ذلك بالمثل التالي. دعونا نفترض وجود رجلين لديهما مرض في العين؛ الواحد منهما تماثل للشفاء ويتناول ما ينصح به الأطباء حتى ولو كان غير محبب بالنسبة له، على حين أن الآخر ليس فقط لا يقبل أي نصيحة من الطبيب ولكنه أيضاً يعيش بإفراط. فمن الطبيعي أن الأول سيتمتع بالنور، على حين أن يكون أمراً طبيعياً أن يُحرَم الثاني منه.

يظهر هذا المثل بوضوح أنه أمر طبيعي أن تتمتع الطبيعة البشرية بهذه الحياة، على حين أن مرض الجهل يسود في أولئك الذين يعيشون بحسب الجسد. يحصل على هذه الحياة الطبيعية الشخص الذي يُشفى ويطهر عينيه الروحية ويغسلها من الجهل الذي هو عدم نقاوة حس نفسه الروحي. وأما الثاني، فحيث أنه هرب من التطهير وعاش في وهم الملذات جاعلاً المرض صعب الشفاء، فإنه يتغرب عن الطبيعي، ويعيش حياة مضادة للطبيعة، ويصبح غير مشارك في هذه الحياة الطبيعية التي هي الشركة مع الله.

لو كان هذا هو المسار الطبيعي للإنسان وهذه هي نهايته الطبيعية، الذي بحسب طريقة حياته إما تُشفى عينا نفسه أو لا تُشفى، فإن الحال يكون مختلفاً بشكل ما مع الطفل. فحيث أن الطفل لم يمرض في البداية ولا يحتاج لأن يتطهر ويشفى، فإنه يعيش بحسب الطبيعة وبالتالي لا يُمنَع بسبب أي مرض للنفس من التمتع بالاشتراك في النور لكونه غير خبير بالشر.

يعطينا تعليم القديس غريغوريوس النيصي هذه الفرصة لكي نؤكد هنا على أن نفس الإنسان لا تكون غير طاهرة عند ولادتها ولكنها تكون نقية. فالإنسان يختبر منذ ولادته استنارة النوس. بالتالي نرى أنه حتى الأطفال يستطيعون اقتناء الصلاة العقلية المناسبة

بالطبع لصور وتصورات عمرهم. **فعندما يُخلَق شخص ما، يكون نوسه في حالة استنارة.** ولقد لاحظنا في مرات عديدة وجود أطفال يصلون حتى في نومهم. يقول راهب من الجبل المقدس أنه عندما يدير الأطفال الصغار انتباههم في اتجاه معين ويضحكون بدون سبب، فهذا يعني أنهم يرون ملاكهم. فما يحدث في حياة القديسين يحدث أيضاً مع الأطفال الصغار، حيث يكون من الطبيعي بالنسبة لهم أن يكونوا مع الملائكة.

من أجل هذا لا ينادي علم اللاهوت الأرثوذكسي بما يُعلِّمه علم اللاهوت في الغرب بأن الإنسان يرث ذنب الخطية الجدية. لأننا نؤمن أن نوس الشخص يكون طاهراً عند ولادته، أي أنه يكون مستنيراً، وهذه هي الحالة الطبيعية. يكمن توريث الخطية الجدية كما قلنا في موضع آخر في حقيقة أن الجسد يرث الفساد والموت. وبمرور الوقت، وبنمو الطفل، وبتكون الأهواء يظلِّم الجزء العاقل من نفسه. **ففي الواقع تؤدي الأهواء النامية والمرتبطة بالفساد والموت وظلام البيئة المحيطة إلى إظلام الجزء العاقل من نفوس الأطفال.**

توجد مشكلة خاصة بما يحدث عند المعمودية المقدسة. بمعنى أنه طالما أن الأطفال لهم نوس طاهر والذي هو في حالة استنارة، وطالما أن لهم صلاة نوسية، فلماذا نعمدهم إذاً؟

والإجابة كما نرى في كل التقليد الآبائي، هي أننا بالمعمودية المقدسة لا نتخلص من الذنب الناتج عن الخطية الجدية، ولكننا نُطَعَّم في جسد المسيح الذي هو الكنيسة، ونكتسب قوة لنهزم الموت. هذه هي الطريقة التي نفهم بها معمودية الأطفال. **إننا نعمدهم حتى يصبحوا أعضاءً في الكنيسة ، وأعضاءً في جسد المسيح حتى يتغلبوا على الموت وحتى ينتصروا على أقمصة الجلد التي هي الفساد والموت.** وهذا يعني أنهم بنموهم، حينما يظلم النوس بالأهواء وبظلام الأمور المحيطة، يحصلون على القدرة على هزيمة الموت في المسيح، وعلى التغلب على الأهواء وتطهير الجزء العاقل من نفوسهم مرة أخرى.

لو كانت المعمودية تعمل في الأطفال بهذه الطريقة، فإن الكبار يستعدون للمعمودية بتطهير القلب من الأهواء؛ ثم بعد ذلك يتلقون استنارة النوس بواسطة الميرون المقدس. بالإضافة إلى ذلك، فهم من خلال المعمودية المقدسة يصبحون أعضاءً في الكنيسة، ويتحدون بالمسيح، ويشتركون في الأسرار، ويكتسبون قوة لهزيمة الموت والوصول للاتحاد بالله. **إن هدف المعمودية العميق، لكل من الأطفال والكبار، هو الوصول للاتحاد بالله، الذي يتحقق فقط في المسيح وفي الكنيسة.**

حيث أن هذه النقطة جوهرية جداً، فسأسمح لنفسي بأن أورد كلمات القـــديس غريغوريوس عن طهارة نفوس الأطفال: "حيث أن الطفل البريء ليس له مثل هذا الوباء قبل أن تتسبب عينا نفسه في إظلام مقياس النور، فإنها تبقى موجودة في هـــذه الحيـــاة الطبيعية، فهي لا تحتاج إلى الصحة المتولدة عن التطهير، لأنها لم تُدخِل الوباء إلى نفسها أبداً". وهكذا يكون نوس الطفل طاهراً، فهو لم يكن مريضاً، ويتميز بالصحة والحالـــة الطبيعية، وبالتالي لا يُمنع بالمرة من المشاركة في النور الإلهي.

يستعمل القديس غريغوريوس النيصي دائماً أمثلة من الحياة الحاضرة ليشرح الحياة الآتية. فهو يؤكد على وجود تشابه بين طريقة الحياة الحاضرة والمستقبلة. فمثلما يرضع الأطفال اللبن في البداية، ولكنهم بعد ذلك يُطعَمون بأطعمة أخرى، الطعام بعد الآخر في الوقت المناسب، يحدث نفس الشيء أيضاً مع النفس. فهي دائماً تشارك في الحيـــاة في الوقت والترتيب المناسب. لقد قال ذلك بولس الرسول الذي سقى الكورنثيين لبنـــاً في البداية، ثم أعطى طعاماً صلباً لأولئك الذين وصلوا لسن الرشد.

يوجد فرق بين الطفل والشخص الناضج فيما يسرهما. فالرجل يُسَر بمشاريعه، وبتميزه الاجتماعي، وبالعطايا وبالأمجاد من الآخرين، وبالحياة الأسرية، وبالتســليات، والعروض، والصيد، وما إلى ذلك. على حين يُسَر الطفل باللبن، وبحضن أمه، وبالهدهدة اللطيفة التي تجلب له النوم الهادئ.

يحدث نفس الشئ مع تقدم العمر الروحي من جهة البركات الروحية. فالـــذين غذوا نفوسهم بالفضائل في هذه الحياة، سوف يستمتعون في الحياة الآتية بالراحة الإلهية بحسب العادة التي اكتسبوها في هذه الحياة. ومع ذلك، فإن النفس التي لم تتذوق الفضيلة ولكنها أيضاً لم تمرض بالشر، تستطيع أن تشترك في الخير بالعمق الذي تستطيع بـــه أن تحتوى البركات الأبدية، وأن تتقوى برؤية من هو الله.

بالتالي، على الرغم من أن الأطفال لم يختبروا الشر، فإنهم سوف يشـــتركون في المعرفة الإلهية والنور الإلهي، ويتقوون برؤية الله وبالنعمة الإلهية. ومن الطبيعي أنهم مـــع رؤية الله سوف يتقدمون نحو معرفة أكثر كمالاً. وفي الواقع، فإن الله يعلن ذاته للجميع "ويعطي نفسه بالدرجة التي يستطيع أن يقبلها الشخص".

يرى القديس غريغوريوس النيصي أن النفس بطبيعتها تنجذب نحو الخير ونحو الاشتراك في النور الإلهي. وبحسب قدرة الشخص على الاستيعاب فإنه يستقبل نعمة الله والغنى الإلهي. ولا يعتمد ذلك على عمره الجسدي أو على عدم وجود الفضائل. وهكذا ينبغي على المرء أن يرى حالة الإنسان المستقبلية في داخل هذا المنظور، وألا يقارن حياة الفضيلة في الشخص البالغ بحياة الطفل والشخص غير الناضج. وأي من يأخذ على عاتقه مهمة عقد هذه المقارنة يكون هو نفسه غير ناضج، لأنه يظهر أنه ليس لديه براهين لاهوتية.

النقطة الرابعة التي يحللها القديس غريغوريوس هي السبب الذي يجعل الله يسمح لطفل أن يموت في مثل هذا السن. وهو إذ حلل ذلك فيما سبق بأن **عدد السنين الذي نعيشه لا يلعب دوراً كبيراً في الاشتراك في النور الإلهي**، فإنه يتقدم نحو شرح لماذا يسمح الله بالرحيل المفاجئ من هذه الحياة.

وهو يجيب على هذا السؤال قائلاً أنه لا يستطيع أن يلقي بالملامة على الله عندما تقتل النساء أطفالها بسبب حمل غير شرعي. ولكن بالنسبة للحالات التي يترك فيها الأطفال هذا العالم بسبب مرض ما، حتى لو كان والداهم قد اعتنيا بهم وصليا لأجلهم، فيجب علينا أن ننظر إلى ذلك في إطار العناية الإلهية. لأن العناية الكاملة ليست هي التي تشفي ببساطة الآلام الحادثة، ولكنها أيضاً تحمي الشخص من حتى تذوق أشياء كان من الممكن أن تحدث في المستقبل. فإن من يعلم الغيب كما هو الحال مع الله، سوف يمنع طبيعياً الطفل من أن يكبر حتى لا يأتي إلى نهاية سيئة. وبالتالي ما يحدث في الحالات الأخيرة هو أنه يرى بدقة مستقبل الطفل السيئ الذي لا يسمح له الله أن يعيشه. يفعل الله ذلك من منطلق الحب والخير دون أن يحرمه بصورة رئيسية من أي من البركات المستقبلية كما رأينا.

ولكي يجعلنا القديس غريغوريوس نفهم تدبير الله هذا، فإنه يقدم لنا مثالاً جميلاً مصوراً. دعونا نفترض وجود مائدة غنية بالعديد من الأطعمة الشهية. ولنفترض أيضاً وجود مشرف يعرف، من جهة، خصائص كل طعام وأياً منه مؤذٍ وغير مناسب وأياً منه مناسب للأكل، ومن جهة أخرى يعرف جيداً مزاج كل فرد من المدعوين للعشاء. ولنفترض أن هذا المشرف له سلطان مطلق لكي يسمح لشخص أن يأكل من الطعام ولكي يمنع الآخر عنه، بحيث يأكل كل واحد ما هو مناسب لمزاجه وبالتالي لا يضطر، لا

الشخص المريض ولا السليم، إلى الشعور بالتخمة بسبب فيض الطعام. فلو وجد المشرف أن شخصاً ما أصبح ثملاً من طعام وشراب مفرط، أو وجد آخر مشرفاً على السكر فإنه سوف يخرجه خارج هذا المكان الخاص. وتوجد حالة لشخص أُخرِج خارج هذا المكان وتوجه ثانية للمشرف ليتهمه بحرمانه من الأشياء الجيدة بسبب الكراهية. ولكن لو أنـــه نظر بإمعان للذين بقوا وعانوا من المرض والصداع بسبب السكر، وعبروا عن أنفســـهم بكلمات بذيئة، فعندئذ يستطيع أن يشكر المشرف لأنه خلصه من ألم الإفراط في الطعام.

ينطبق نفس هذا المثال على الحياة البشرية. فالحياة البشرية هي مائدة عليها طعام وفير. ومع ذلك ليست الحياة حلوة كالعسل، ولكن فيها العديد من الأطعمة غير المحببة مثل الملح والخل الذي يجعل الحياة البشرية صعبة. يثير بعض الطعام التفـــاخر، ويُـــدخِل البعض الآخر من يأكلونه في جنون حيث يفقدون عقولهم، ويسبب في البعض الآخـــر المرض. ومشرف المائدة هو الله الذي يستبعد عن هذه المائدة باســـتحثاث ذاك الـــذي تصرف بصورة لائقة حتى لا يتشبه بالذين يعانون من فرط اللذة بسبب شراهتهم.

تشفي العناية الإلهية بهذه الطريقة الأمراض قبل أن تظهر. وحيث أن الله يعـــرف بقدرته التنبؤية أن هذا الطفل الوليد سوف يستعمل العالم بطريقة سيئة عندما يكبر، فإنه يخرجه من مأدبة الحياة. يُنتَزَع إذاً الطفل حديث الولادة من الحياة حـــتى لا يســـتعمل شراهته على مائدة الحياة. نرى في هذه المسألة أيضاً حب الله العظيم ومحبته للبشر.

النقطة الخامسة والنابعة من النقطة السابقة هي مسألة لماذا يميز الله في اختياره فيأخذ الواحد من منطلق العناية الإلهية، على حين يترك الآخر ليصبح شريراً جداً لدرجة أن نتمنى لو لم يولد قط؟ لماذا يؤخذ الطفل من هذه الحياة بالعناية الإلهية على حين يُترَك والده الذي يسكر على هذه المائدة حتى شيخوخته ناثراً حثالته الشريرة على نفسه كما على السكيرين المجاورين له؟

يجيب القديس على هذا السؤال بأن المقصود هو عبارة "الأكثر شكراً" بالنســـبة للشاكرين الله والذين من الطبيعي أن يكونوا مستعدين جيداً. بالإضافة إلى ذلك، فـــإن هذه أسرار لا يستطيع عقل الإنسان أن يستوعبها وخصوصاً لأن حكمة الله مختلفة عن حكمة الإنسان.

يؤكد القديس غريغوريوس على أن ما يرتبه الله هو ليس اعتباطياً وبلا حكمة. فالله هو الكلمة والحكمة والفضيلة والحق، وهو لن يقبل ما هو غير مرتبط بالفضيلة والحقيقة. وبالتالي ففي بعض الأحيان وللأسباب التي ذكرناها، يُنتزع الأطفال من الحياة مبكراً، وفي أحيان أخرى يسمح الله بشيء مختلف لأنه يرى نهاية أفضل.

يسمح الله أيضاً بأن يبقى الناس الأشرار في الحياة حتى تتحصل بعض الفوائد. فهو إذ يستشهد بالإسرائيليين، يقول أن الله سمح للمصريين بأن يضغطوهم لكي يعلّم شعب بني إسرائيل، تماماً مثلما أخرج الإسرائيليين من مصر حتى لا يتشبهوا بالمصريين ويكتسبوا عاداتهم. وبالقرع على السندان، حتى الحديد الأكثر صلابة الذي لا يلين في النار يستطيع أن يأخذ شكل أداة مفيدة.

لقد تعامل أيضاً مع برهان آخر. يتمسك بعض الناس بأنه ليس كل الناس في هذه الحياة قد تخلصوا من ثمار الشر، ولا استفاد الأبرار من أعمال الفضيلة المتعبة. ويجيب القديس غريغوريوس النيصي على ذلك بأن الأبرار سوف يتمتعون أيضاً في الحياة الآتية مقارنين بركاتهم بالخسارة التي يعاني منها المحكوم عليهم. يقال ذلك من منظور أن مقارنة المتضادات تصبح "إضافة للتمتّع، وزيادة للبار". من المؤكد أن هذا لا يعني أنهم يستمتعون بدينونة الآخرين، ولكنهم يشكرون الله على خلاصهم لأنهم يختبرون سعادة الفضيلة على عكس حزن الخطية والأهواء.

هكذا يُنتزَع الأطفال من هذه الحياة قبل الوقت حتى لا يقعوا في شرور أكثر سوءاً. ولو عاش البعض وصاروا أشراراً، فلهذا أسباب أخرى في عناية الله وحكمته. وعلى الرغم من ذلك، تتأتى بعض الفوائد طالما أن الله لا يفعل أي شيء بدون سبب وغرض.

والحق أن الأطفال الذين رحلوا من الحياة قبل الوقت لا يجدون أنفسهم في حالة مؤلمة، ولا يصبحون مساوين لأولئك الذين جاهدوا لكي يتطهروا بكل فضيلة؛ فهم يكونون في عناية الله. وعلى أية حال، فإن المسيرة نحو الله والاشتراك في نور الله غير المخلوق هو حالة طبيعية للنفس لا يمكن حرمان الأطفال منها، لأنهم بسبب قوة نعمة الله يستطيعون الوصول للاتحاد به.

٨- الخلاصة

الخلاصة العامة لهذا الباب هي أن نفس الإنسان خُلِقَت من قِبَل الله في حالة نقية مستنيرة. والموت الذي هو غير مخلوق من الله، ولكنه اختيار حر للإنسان بابتعاده عن الله الذي هو حياة حقيقية، هو شيء يربك حياة الإنسان. إنه دخيل لكي يخلق العديد من المشاكل. لقد كان هدف تجسد المسيح الانتصار على الموت. وعلى الرغم من انتصار الإنسان على الموت، إلا أنه يذوقه بحيث يتغلب بهذه الطريقة على الأهواء والخطية.إننا نتذوق النصرة على الموت في الكنيسة. فالأبرار المتحدون بالمسيح المنتصر على الموت لا يخافون الموت عندما يقترب من حياقم، وهم لا يخجلون من الشياطين التي تحاول القبض على نفوسهم، وساعة ويوم موت القديسين هو يوم عيدهم الذي يصنع تذكاره الناس ويحتفلون به، وسر الموت الرهيب الذي هو انفصال النفس عن الجسد هو طقس ورحلة من الأكثر حزناً للأكثر سعادة؛ إنه عبور من "الموت إلى الحياة". بعد الموت ينام جسد الإنسان ببساطة، لأن الموت هو نوم عظيم حتى المجيء الثاني للمسيح حين تدخل النفوس أجسادها المقامة لكي تظهر أمام كرسي دينونة المسيح المخوف لكي تحاكَم.

يُستعمَل الخوف من الموت، الذي حث عليه كل آباء الكنيسة، بغرض الوصول لعدم الخوف من الموت. يوِّلد الخوف من الموت وكل الأشياء الرهيبة المرتبطة به التوبة. إنه ليس خوفاً ذا محتوى سيكولوجي، ولكنه خوف روحي يولد التوبة والحث على الصلاة والخلاص. **فلا يمكن أن تُفهَم التوبة بدون الخوف من الموت.** وبالتالي فإن أولئك الذين يحاولون نزع الخوف من الموت دون أن يفهموه يحولون الشخص بعيداً عن التوبة، **وهذا بدوره يشكل الموت الحقيقي للنفس.** في الواقع يقود الخوف من الموت إلى عدم الخوف منه وهزيمته.

الباب الثالث

خبرات ما بعد الموت

لقد رأينا في الباب السابق بصورة تحليلية أن ساعة الموت مرعبة جداً بالنسبة للإنسان، لأن نفسه تنفصل عن جسده الذي كانت معه في وحدة غير منحلة. لذلك يستعد قديسو الكنيسة لهذه اللحظة طوال حياتهم، وعندما يقترب الوقت يُصَلّون أكثر.

إننا نرى في الكتابات النسكية أنه يوجد اهتمام كبير بالطريقة التي يرحل بها الناس. ويهتم النساك على الأخص بأن يرحلوا وهم في حالة وعي بموتهم. وفي الواقع هم يعتبرونه أمراً مروعاً أن يموتوا دون أن يكونوا مدركين لذلك، وأن يعبروا "من الموت إلى الحياة" دون أن يكونوا قد انفتحوا على الوعي به، وبالطبع دون أن يكونوا قد صلّوا لله. وهذا ما يجعلهم يفضلون أن يكونوا بمفردهم في تلك اللحظة لكي يصَلّوا.

إننا سوف نعود في هذا الباب إلى هذا الموضوع لأننا نتمنى أن نتحدث عما يسمى خبرات ما بعد الموت التي تُناقَش بكثرة في العالم الغربي. كما نعلم فإن روايات بعض الناس الذين بطريقة ما عادوا إلى الحياة ووصفوا ما رأوه أعطت انطباعاً عظيماً. وأتى هذا الانطباع بسبب أن الحياة بعد الموت كانت قد نُسيت بدرجة ما في المجتمع الغربي. لقد كان الناس يظنون أن الشخص ينتهي بانتهاء حياته الأرضية. **وإذ قد تعودوا كشعب أن يحدُّوا وجود الإنسان لما هو منطقي، اكتشفوا عالماً آخر واندهشوا.**

لم تعطِ هذه الخبرات المعاصرة المعروفة بخبرات ما بعد الموت أو خبرات الاحتضار نفس هذا الانطباع في العالم الأرثوذكسي، لأن مثل هذه المسائل موجودة في كتابات آباء الكنيسة القديسين وهي موضوعات مألوفة. فالآباء يصفون بقدر الإمكان الحالات المرتبطة برحيل النفس من الجسد.

يجب علينا أن نؤكد على وجود بعض القيامات من الأموات مثل إقامة ابن أرملة صرفة صيدا بواسطة إيليا النبي، وإقامة الثلاثة موتى الذين أقامهم السيد المسيح (ابن أرملة نايين، ابنة يايرس، ولعازر)، بالإضافة إلى إقامة طابيثا بواسطة بطرس الرسول بقوة المسيح. وعلى أية حال، لم يعطنا أي من هؤلاء الذين عرفنا عنهم أنهم أُقيموا من الأموات أي وصف عما يحدث بالضبط عندما تغادر النفس الجسد، أو ما يحدث بالضبط في الحياة الآتية. فعلى الأقل ليس لدينا كتابات تصف شعور النفس عندما تعيش خارج الجسد، وما هي المشاعرالتي تغلب عليها عندما تدخل الجسد ثانية وتستمر في الحياة في ظروفها المألوفة. كما أن أولئك الذين قاموا وقت الزلزال الحادث وقت موت المسيح على الصليب لم يحفظوا لنا خبراتهم.

أحد تفسيرات هذه الظاهرة هي أن المسيحيين لا يغلبهم مثل هذا الفضول. وحيث أن لديهم كلمة الوحي، ويعرفون أن عليهم أن يُشفوا بواسطة وصايا الله، وحيث أن وصية الله كما تظهر في مثل الغني ولعازر واضحة: "عندهم موسى والأنبياء ليسمعوا منهم"، بالتالي لا يكون مهماً بالنسبة لهم أن يجمعوا معلومات عن خبرات ما بعد الموت هذه. بالإضافة إلى أن كلمة إبراهيم، أي كلمة الله: "إن كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياء ولا إن قام واحد من الأموات يصدقون" (لو ١٦:٣١) تُظهر أن الإنسان الجسداني لن يؤمن حتى لو سمع الأشياء الأكثر غرابة، كما أنه يكون مستعداً لأن ينسبها لسبب آخر.

سوف نحاول فيما يلي أن نلقي نظرة مختصرة جداً على هذه الظاهرة التي لوحظت ووصفت، على أن يكون ذلك من منظور أرثوذكسي على الدوام.

١- خبرات ما بعد الموت المعاصرة

توجد أيضاً شهادات مبكرة عن مثل هذه الحالات، ولكن الشعور الذي أثير حديثاً في أمريكا أتى من ملاحظات الطبيب النفسي "مودي". بعد ذلك، وبسبب الاهتمام الذي أظهره القراء، نُشرِت أيضاً كتب أخرى تتناول هذا الموضوع. لقد قام مودي بجمع خبرات مئة وخمسين شخصاً، ولكن تحرياته تمركزت حول خمسين شخصاً كانت لهم فرصة الدخول في خبرات الاحتضار وخبرات ما بعد الموت.

لقد قام الأب سيرافيم روز بتحليل ونقد آراء مودي في كتاب عن هذا الموضوع.[1] ولاحظ العلماء الغربيون أن بعض الناس في لحظة الموت أو عندما عادوا للحياة بعد الموت، رأوا أحداثاً مميزة جداً وغريبة لا يمكن تفسيرها بعلم الطب الكلاسيكي.

تتنوع أسباب هذه الخبرات.

السبب الأول هو اقتراب الموت. فعندما تقترب النفس من رحيلها من الحياة تختبر وضعاً جديداً. فالموت هو حقاً نقطة حَدِّية في حياة الإنسان. ففي هذا الوقت يجد نفسه بين حياته الأرضية وحياة نفسه بدون الجسد.

---

[1] - Hieromonk Seraphim Rose: The soul after death, Platina, California, 1977.

السبب الثاني هو اقتراب أرواح الشر والخير الذي أكد عليه العديد من القديسين كما ذكرنا بالفعل. فلو أن المرء يتلقى تأثيرات من الشياطين أثناء حياته إلا أنه يحصل أيضاً على مساعدة الملائكة، فإن هذا يحدث بالأكثر في الوقت الذي تنفصل فيه نفسه عن جسده.

السبب الثالث هو أن تقدم علم الطب جعل من الممكن أن يدخل الناس في خبرة الموت السريري لعدة أيام وساعات. فقد ازدادت ظاهرة الناس المعتبرين موتى سريرياً ويعودون للحياة بعد استحثاث ميكانيكي للقلب الذي توقف عن النبض[2].

هكذا بالإضافة للأسباب المألوفة التي ينتج عنها ما يسمى خبرات ما بعد الموت، يوجد سبب مرتبط بعلم الطب. ولو أضفنا الأمراض العقلية بالإضافة للعقاقير القوية التي توصف للمريض بمرض خطير، فإننا نستطيع أيضاً أن نفسر بعض التشوشات الحسية أو الأحاسيس غير الطبيعية التي تتكون في مثل هذه الأوقات. وهكذا يوجد خلط بين كل هذه الحالات ولا يكون من السهل تصنيف خبرة ما أو تحديد ماهيتها.

يركز الأب سيرافيم روز انتباهه على بعض النقاط المشتركة التي لاحظها مودي في الروايات التي سردها أولئك الذين مروا بمثل هذه الخبرات. فتوجد ثلاثة من هذه النقاط المشتركة. **الأولى** هي ما يسمى "خبرات خارج الجسد". وهي خبرات شعر بها الجميع كحالة تدخل فيها النفس خارج الجسد ومع ذلك لا تستمر في وعيها. فالنفس تجد نفسها في عالم تشعر فيه بدفء محمود وسهولة، كما أنها ترى الناس المحيطين بالجسد الميت ولكنها لا تستطيع التواصل معهم[3].

الظاهرة الثانية المشتركة بين خبرات ما بعد الموت هي "الالتقاء بالآخرين". أي أنه كما يقول مودي، تشعر النفوس بالوحدة لفترة قصيرة فقط، ثم بعد ذلك تشعر بأنها تلتقي بآخرين حيث أنها ترى فجأة، ليس فقط ما بعد الموت ولكن أيضاً ما قبله، أي أقرباء وأصدقاء كانوا قد ماتوا[4].

السمة المشتركة لخبرات ما بعد الموت تلك هي "كيان النور" أو "الكيان المنير". فكل من دخلوا في مثل هذه الخبرات وصفوا ظهور نور يزداد بسرعة في اللمعان.

---

[2] - Ibid. p. 11f.
[3] - Ibid. p. 16f.
[4] - Ibid. p. 21.

وتعرفوا عليه جميعاً كشخصية معينة مملوءة دفئاً وحباً ينجذب إليها المتوفي حديثاً بنـوع من الانجذاب المغناطيسي. وأصر البعض منهم على أن هذه الشخصية هي المسيح، وأصر البعض الآخر على أنه ملاك[5].

إننا لن نراجع هنا كل خبرة، ولكن ما نريد التأكيد عليه هو أن جميعهم يؤكدون على وجود شيء آخر مختلف عما نراه بحواسنا وما نفكر فيه بعقولنا.

وإذ يقدم الأب سيرافيم مثل هذه العناصر فإنه يقدم نقده الوافي معبراً عن حقيقة أن مثل هذه الأشياء تحدث في خبرة الكنيسة أيضاً. ولكنه يلاحظ أن التشويش قد تولد أيضاً. ونحن على كل حال لن نتوقف هنا عند تلك النقطة.

إنني أثناء خدمتي الرعوية سمعت العديد من الناس يحكون عن حوادث مشـابهة. أحياناً كانت تلك الخبرات خبراتهم الخاصة أثناء أمراض خطيرة، وفي أحيان أخرى كانوا شهوداً على أقاربهم الذين كانوا يشاهدونهم. وعندما كنت شاباً شاهدت حادثة لإمرأة قاربت على نهاية حياتها عندما كانت نفسها ترحل، تأوهت وفي نفس الوقت كانـت تحرك يدها كما لوكانت تطرد شخصاً ما بعيداً عنها.

يستطيع المرء أن يسمع عن تلك الأحداث في الجبل المقدس. فقد أخبرني العديد من الآباء النساك عن حوادث في اللحظات الأخيرة للرهبان القديسين والخطاة.

دعوني أعطيكم شهادة شخصية من مرض أبي الروحي الدائم الـذكر المطـران كالينيكوس مطران إديسا المرتبطة بموضوع هذا الباب.

بعد أن خضع نيافته لعملية جراحية لإزالة ورم بالمخ حدث له نزيف بالمخ ودخل في غيـبوبة عميقة. وقال الأطباء المعالجون أنه على الحافة بين الحياة والموت. كان قلبه نابضاً ولكنه كان يتنفس بواسطة جهاز تنفس صناعي. أي أنه لو توقف الهواء الـداخل لرئتيه لكان قد مات. لقد كانت كل الاحتمالات واردة، فإما أن يـبقى حياً أو يموت أو يستعيد وعيه. وعندما استعاد وعيه بعد بضعة أيام، حكى بدموع وكرب شديد عن حادثة مروعة.

لقد قال أن ذلك لم يكن حلماً ولكنه حدث حقيقي، فقد كان واعياً أن ذلـك كان واقعاً. لقد رأى نفسه خارج جسده، وكانت نفسه ترى جسده المتمـدد علـى

---

5 - Ibid. p. 29.

الفراش وكان يرانا جميعاً نحن الذين كنا نشعر بالأسى وكنا نجهز للجنازة. وفي الواقع، أشار لممرضة معينة من بين العديدين الذين كانوا هناك وتلك هي التي كانت ترفع مقاساته لتشتري له الكفن! لقد فهم أن روحه خرجت من جسده، وفي الواقع قال أنه في تلك الساعة كان هو نفسه يتلو صلاة تجنيز الموتى لنفسه! وقد اختبر خبرات أخرى مماثلة، ولكن التي ذكرها للتو هي الأكثر تعبيراً وارتباطاً بالموضوع الذي نناقشه. إنني لا أعرف حقاً إن كانت هذه خبرة خارج الجسد، أم أنها خبرة الاقتراب من الموت. ولكن الحقيقة الثابتة هي أنها كانت حالة غير مألوفة.

من المؤكد، أنه انتشرت في الآونة الأخيرة في أمريكا مناقشات كبيرة ليس فقط عما يسمى خبرات ما بعد الموت، ولكن أيضاً عن آراء الأب سيرافيم روز وبصورة رئيسية من قِبَل لعازر بوهالو "رئيس أساقفة كنيسة أوكرانيا الذاتية الإدارة"[6]. إن الموضوع متسع ولن نتوسع في تحليل تلك النقطة لأنه من الممكن على أية حال اكتشاف العديد من الأخطاء اللاهوتية والروحية.

يجب علينا أولاً أن نلاحظ أن "رئيس الأساقفة" لعازر يؤكد في كتابه على أن ما يسمى خبرات خارج الجسد هي حالات شيطانية، وأنها تكون أحياناً الآثار العضوية لتنشيط الجسد بعد حالة الغيبوبة. بالإضافة إلى ذلك هي أوهام وضلالات، ولكنها كما يؤكد عادة ما تكون نتيجة لطاقات شيطانية.

وبوجه عام فإن توجهاته اللاهوتية سليمة. ونستطيع أن نشير إلى ثلاثة من براهينه.

أولاً: لا يمكن أن تُطلَب الخبرة الروحية وحياة ملكوت الله خارج جسد الإنسان، لأن جسد الإنسان هو هيكل الروح القدس. وأي من يتكلم عن خبرات خارج الجسد هو جاهل بتعليم آباء الكنيسة القديسين، وواقع تحت التأثير الغربي الفلسفي الهليني.

ثانياً: لا تكون "خبرات خارج الجسد" أصلية أبداً، ولكنها تكون نتيجة إما لضلالات شيطانية، أو أوهام، أو خداعات، أو هلاوس، أو أمراض عقلية. فمن يتعرض لمغادرة النفس للجسد يُسقِط حقاً تخيلاته وانفعالاته على عالم الأرواح الشريرة التي تقدم إعلاناتها الخاصة. أي أنها خبرات شيطانية.

---

[6] - Archbishop Lazar Puhalo: The soul, the body and death, Synaxis Pess, Canada.

ثالثاً: خبرات آباء الكنيسة هي خبرات عقلية على نفس عمق كيانهم حيث يوجد ملكوت الله.

وهو إذ وضع هذه المفاهيم اللاهوتية في ذهنه، أصر على أن الذين يتحدثون عن خبرات خارج الجسد يتعاملون مع عبادة وثنية باطنية في الهندوسية والشامانية، مفترضاً ازدواجية تعليم أوريجانوس أو حتى المانوية.

لا يستطيع أحد أن ينكر لا هذا التوجه اللاهوتي العام، ولا البراهين اللاهوتية التي قدمها الكاتب. ولكنني أعتقد أنه لا ينبغي علينا أن نكون في المطلق، ولا أن نربط كل خبرة بخبرات مشابهة خارج المسيحية ما لم نتناولها من منظور أرثوذكسي. إنني قد أذكر القليل من النقاط البارزة.

عندما يتحدث الناس في الغرب عن خبرات خارج الجسد، فإنهم يربطونها بما يسمى خبرات ما بعد الموت. أي أنهم يشيرون إلى حالات لأشخاص كانوا قد ماتوا، أو يظنون أنهم ماتوا وعادوا للحياة ثانية فيما بعد. **لا يتعلق الأمر بمجهود للعقل لكي يستطيع أن يترك الجسد.**

ثم أن نصوص القديس غريغوريوس بالاماس وسفر نشيد الأنشاد التي يستعملها لعازر "رئيس الأساقفة" لا تشير لحالات ما يسمى خبرات خارج الجسد المرتبطة بالموت، ولكنها تشير لحالات من الدهش بالمفهوم الأرثوذكسي. وهذه أشياء مختلفة. فالنص الموجود في نشيد الأنشاد "أنا نائمة وقلبي مستيقظ" يشير إلى حالة الصلاة. وبالمثل فإن نص القديس غريغوريوس بالاماس الذي بحسبه عندما يُحمَل النوس خارج الجسد "يكون اختراعاً من الشياطين وتعليماً وثنياً"، يشير إلى حالات الدهش الخاصة بالإغريق القدماء والتي كانت حالة شيطانية. لقد علَّم برلعام أنه ينبغي على النوس أن يؤخذ خارج الجسد في الصلاة، لأن الجسد شر. وقال القديس غريغوريوس بالاماس أن هذا كان شيطانياً، لأنه ينبغي على النوس أن يعود للقلب، ومن هناك لله. وبحسب القديس غريغوريوس بالاماس، **ليس الدهش هو ابتعاد النوس عن الجسد، ولكنه إبعاد النوس عن الذهن الجسداني.** فالنوس هو طاقة النفس وعينها، وهوليس النفس كما ترجمها لعازر "رئيس الأساقفة".

لقد لاحظت أيضاً أن الأب سيرافيم روز يميز باستمرار بين الخبرات الروحانية والشيطانية التي تأتي من الديانات الأخرى. إنه يصنع في الواقع مداخلات مهمة في

مواضيع عديدة. فهو يقول أن بعض الناس يفسرون مثل هذه الظاهرة أحياناً من وجهات نظر تخص السحر أو الروحانية، وأحياناً من مفاهيم معارضة ترى أن النفوس بعد الموت ستكون في حالة من اللاوعي، وأحياناً من وجهة نظر إلحاد عقائدي يرفض الرأي القائل بأن النفس تعيش بعد الموت، وأحياناً أخرى من وجهة نظر "أرثوذكسية" متحفظة ترى أن الأرثوذكسية لم تعطِ رأياً عن كيف ستكون الحياة الآتية. وفي النهاية، يصل الأب سيرافيم لنتيجة وهي أنه ينبغي على المرء ألا يتوقع الكثير من كتاب مودي ولكن أن يرى كل شيء في إطار التقليد الأرثوذكسي.

بالإضافة إلى ذلك، توجد العديد من الأحداث الموجودة في النصوص الآبائية حيث يبدو فيها أن شخصاً معيناً قد مات فعلاً ثم عاد للحياة ثانية بإرادة الله.

وفي قصص الإقامة من الموت في العهدين القديم والجديد، لا نجد وصفاً لما شعروا به في أثناء تلك الفترة. ومع ذلك نجد تعليماً قليلاً عن ذلك في بعض الوصف في النصوص الرهبانية. وبالتالي لا نستطيع تجاهل هذه الحقيقة.

إنني في الواقع لا أستطيع أن أصرّ على أن كل آراء الأب سيرافيم روز هي أرثوذكسية. وبالإضافة إلى ذلك، ليس لديّ أية نية لتأييده. كما أنني لا أصرّ على أن البراهين اللاهوتية للعازر "رئيس الأساقفة" ليست صحيحة، ولكنني أود التأكيد على أن الحرص الشديد مطلوب. فمعظم ما يسمى خبرات ما بعد الموت هي إما شيطانية، أو عضوية بسبب عقاقير أو هلاوس أو ضلالات. ولكن البعض منها، حتى لو كان أقلية، صحيح ويظهر وجود حياة بعد الموت. يوحي التقليد الآبائي بأنه لا ينبغي علينا إنكار أي شيء ولا قبول أي شيء ما لم نمضِ خلال الفكر المستنير والمميِّز وخبرة من هو متحد بالله. بالتالي سوف نلقي نظرة سريعة في الفصل التالي على موضوع تمييز هذه الخبرات.

٢- نقد هذه الخبرات من وجهة نظر أرثوذكسية

ليس من السهل الحكم على مثل هذه الحالات لأنها غير مألوفة. فنحن عادة ما نحكم على كل شيء على أساس الافتراضات المسبقة الخاصة بنا، وفي إطار العقل باستمرار. فربما يعتبر العديد منا ظهورات الملائكة والقديسين لأناس يتمتعون بالشفافية

أثناء حياقم أنها نتيجة لعادات عاطفية، أو حتى حالات نفسية مرضية. لو أن شخصاً ما يفكر بطريقة منطقية، أو حتى طبيب نفسي علمي، يدرس رؤى الرجال القديسين فإنـــه قد يصل لاستنـــتاجات خاطئة. ومع ذلك، فحتى مثل هذه الإعلانات لكونها كثيرة في نصوص قديمة وفي تقاليد شفهية معاصرة فهي موثوق فيها.

يجب علينا أن نلاحظ أنه **ليس لنا الحق أن ننبذ كل الخبرات لأنها تفوق افتراضاتنا.** كما يجب علينا بالتأكيد أن نكون حذرين جداً في قبول كل خبرة على أنهـــا حقيقيـــة لأن الضلالات قائمة. يجب علينا قبل كل شيء أن نؤمن بكلمة الله المعلنة، وأن نـــرى طريـــق خلاصنا تاركين المجهول لعناية الله. ومع ذلك لا ينبغي علينا أن نصل لرفض كامل كما يفعل مع الأسف بعض البروتستانت، حيث يؤمنون أن النفس بعد الموت تكـــون في حالـــة مـــن اللاوعي، أوأنها تستعجل على الفور لكي تكون مع "المسيح". كمـــا لا ينبغـــي علينـــا أن نتصرف مثل الملحدين الذين يظنون أن النفس هي طاقة بسيطة للجسد وتفنى معه[7].

يحتفظ تقليد كنيستنا بالعديد من تصويرات الحياة أثناء وبعد الموت. لقد ذكرنـــا العديد من مثل هذه الحوادث في الباب السابق. سوف نكتفي هنا بالبعض المميز منها.

إننا نقرأ في أقوال آباء البرية عن اللحظات الأخيرة لرقاد العظيم الأنبا شيشـــوي (سيسوي). وهي تبدو بحق أنها ليست خبرة خارج الجسد، ولكنها خبرة روحية لأنـــه كان محتفظاً بوعيه وتكلم مع الحاضرين. وكان يقص للحضور بالترتيب: "أنظروا، هـــا هوذا الأنبا أنطونيوس قادم" ثم "ها هي جوقات الأنبياء قادمـــة" ثم "جوقـــات الرســـل قادمة". وفي كل مرة كان وجهه يسطع أكثر. وفي لحظة ما دخل في حوار، وعندما سأله الحاضرون قال أنه كان يتكلم مع الملائكة التي أتت لاستقبال نفسه. وقال أنـــه كـــان يتوسل للملائكة ألا يأخذوا نفسه لأنه كان يحتاج للتوبة أكثر. ثم أضاء وجهـــه مثـــل الشمس ثم أعلن أن الرب قد أتى بنفسه. وبعد ذلك أسلم الروح، وحدث شيء شـــبيه بالبرق، وامتلأ المكان برائحة عطرة[8].

يوجد في كتاب "إيفرجيتينوس" مثالان بارزان محفوظان يشيران بوضوح لحالة ما بعد الموت.

---

[7] - Rose: ibid. p. 12.

[8] - The Sayings of the Desert Fathers: Sisoes, 14, p. 180, mowbrays, London, 1975.

الحادثة الأولى تخص بطرس الراهب الذي قبل أن يقيم في الصحراء "ضربه المرض ومات". ثم رأى كل عذابات الجحيم وأماكن النار التي لا ينطق بها. لقد رأى في الواقع بعض رؤساء هذا العالم معلقين، ومنعهم ملاك منير من إلقائهم في هذا المكان الناري، ثم أعيدت نفسه إلى جسده. "وعند قيامته من نوم الموت الأبدي" و"عودته إلى جسده ثانية" أعلن كل ما رآه وعاش في توبة[9].

تشير **الحادثة الثانية** إلى شخص ما أراد أن يصير راهباً و لم يستجب لتوسلات أمه أن يبقى معها، ولكنه مضى قائلاً أنه أراد أن يخلص نفسه. وبعد قليل ماتت والدته ثم مات الراهب أيضاً. وفي الحقيقة قيل أنه مرض مرضاً خطيراً هدد حياته بالموت. وفي أثناء مرضه "دخل في غيبة وخرج من جسده واقتيد إلى الدينونة". ثم رأى أمه مع المحكوم عليهم، أي الخطاة. فاندهشت وسألته كيف أتى إلى ذلك المكان طالما أنه صار راهباً لكي يخلص نفسه. وقيل أنه بعد ذلك سمع صوتاً أنه "ينبغي عليه أن يؤخذ من هذا المكان". وفي الحال، إذ خرج من غيبته وعاد إلى نفسه أخبر الحاضرين بما رآه وسمعه..."[10].

يعود هذان المثلان إلى خبرات ما بعد الموت. وكما سنرى فيما يلي، فإن هذا قد حدث بحسب تدبير إلهي. هذا هو السبب الذي يجعلنا نقول أنه لا أحد يستطيع أن يغفل مثل هذه الخبرات، وعلى الأخص لأننا نجدها في تقليد الكنيسة أيضاً.

ومع ذلك ينبغي علينا أن نؤكد على أننا نخطئ خطأً كبيراً عندما نتعامل مع كل الخبرات وكل الحالات الموصوفة بطريقة واحدة عندما نكون غير قادرين على التمييز بينها. لأن البعض منها يأتي من حالات نفسية، والبعض من طاقات شيطانية، والبعض الآخر هو نعمة وبركة من الله. وسوف نقوم الآن بوصف البعض من هذه الفروق.

يوجد فرق بين خبرات ما يسمى "الموت السريري" وخبرات "مشارف الموت"[11]. يكون الشخص ميتاً "سريرياً" عندما يعيش بواسطة أجهزة صناعية، ويعتبره الأطباء قد مات بصورة رئيسية. وهم يحافظون على القلب بطرق استحثاث متنوعة. ومن المؤكد، أنه حتى في هذه الحالات لا نستطيع أن نكون متأكدين أن النفس غادرت الجسد. ولكن على

---

9 - Evergitinos, op. cit. p. 80f.
10 - Ibid. p. 15.
11 - Rose, op. cit. p. 15.

أية حال هي حالة إشراف على الموت. تختلف خبرات "مشارف المـوت" عـن الخـبرة السابقة، لأنه عادة ما يكون الناس واعين بحالتهم ويتكلمون، بل وحتى عندما لا يكونـون في وعيهم فإنهم يكونون في حالة رحيل. لا يمكن إذاً الربط بين هاتين الحالتين.

يوجد فرق آخر بين الهلاوس والأحداث الحقيقية التي تحدث في لحظة استعداد النفس لمغادرة الجسد. توجد صلة بين الهلاوس (التشوش الحسي والحس الخاطئ)، وبين العقاقير والأمراض المعنية والطرق التكنولوجية المستعملة. **ففي خبرة الأحداث الحقيقية يبقى الوعي.**

يقول الأب سيرافيم روز أن الكُتّاب الذين تعاملوا مع هذه الظـاهرة لاحظـوا حقيقة أنه عادة مايرى أصحاب الذهن الحاد روحياً ظهورات لموتى أو كائنات روحية. وهذا يعني وعي أولئك الناس بالظروف المحيطة.

يوجد أيضاً فرق رئيسي بين الهلاوس والأحداث الحقيقية. **فأصحاب الهـلاوس عادة ما يرون أناساً أحياء، على حين يرى أصحاب الخبرات الأصيلة موتى.**

لقد لاحظوا أيضاً حدوث خبرات أكثر ترابطاً وأكثر تميـزاً علـى المسـتوى التجريدي للأشخاص الذين ليس لديهم هلاوس ولكنهم على صلة بواقع ملموس[١٢].

توجد أيضاً فروق بين الظهورات الشيطانية والظهورات الإلهية. ولا تُصَنَف هذه الفئة مع الفئات السابقة، ولكنها تخص رؤية ملائكة أوشياطين. يوجد العديد من مثـل هذه الأمثلة التي ذكرناها بالفعل وبالتالي لا نحتاج للرجوع إليها.

الأمر المهم هو أنه لا ينبغي علينا أن نصنف كل خبرات مـا بعـد المـوت أو الاحتضار معاً في تصنيف واحد. كما لا يجب علينا أيضاً أن نعزوها لسبب واحـد لأن هذا قد يخلق التباساً عظيماً.

٣- تميـيـز الخـبرات

يقودنا كل ما ذكرناه حتى الآن إلى دراسة كيفية حدوث هذه الحالات. وفي هذا الشأن لنا نحن الأرثوذكسيون ميزة، إذ لنا تقليد حي يجعلنا نستطيع تمييز هذه الظواهر.

---

[12] - Ibid. p. 22.

ينصح القديس يوحنا في رسالته العامة للمسيحيين قائلاً: "أيها الأحباء لا تصدقوا كل روح بل امتحنوا الأرواح هل هي من الله" (١يو٤: ١).

إننا نضع أهمية كبرى في علم اللاهوت الأرثوذكسي على فضيلة التمييز، لأنها عندما تكون موجودة يكون من الواضح أن هذا الشخص قد اقتنى نعمة الله. **فعلم اللاهوت الحقيقي هو تمييز الأرواح إن كانت آتية من الله أم من الشيطان.** وبالتالي قيل أن اللاهوتي الذي يستطيع تمييز الأفكار والرؤى هو أب روحي سديد.

من الواضح في تعليم الآباء القديسين حقيقة أن التمييز يفترض مسبقاً معرفة روحية وحياة روحية. يقول مكسيموس المعترف أن مكافأة ضبط النفس هي اللاهوى، واللاهوى يولد التمييز[١٣].

يضع الآباء القديسون أهمية كبرى على فضيلة التمييز لأنها ترتبط بالمعرفة الروحية الحقيقية. وبحسب القديس ديادوخوس الذي من فوتيك: "نور المعرفة الحقيقية هو قوة التمييز بدون خطأ بين الخير والشر"[١٤]. يقول القديس يوحنا السلمي أن التمييز هو "نور في الظلمة، وطريق للمسافر الضال، واستنارة للأعمى. والشخص المميِّز هو مكتشف للصحة ومدمر للمرض"[١٥]. وتُرى حقيقة أهمية فضيلة التمييز في قول القديس أنطونيوس أن بعض الناس ضيقوا على أجسادهم وقهروها بالنسك، ولكنهم أعوزهم موهبة التمييز وبالتالي هم "بعيدون عن الله"[١٦].

يبدو إذاً أن التمييز هو عطية إلهية، وأنه مرتبط بحالة الشخص الروحية. يقول القديس يوحنا السلمي أنه بالنسبة للمبتدئين في الحياة الروحية يكون التمييز هو معرفة الذات الحقيقية، وبالنسبة للذين هم في منتصف طريق الكمال يرتبط التمييز بالقدرة الروحية على التمييز الصادق بين ما هو جيد بحق وما هو مضاد بالطبيعة لما هو جيد، وبالنسبة للكاملين يكون التمييز مرتبطاً بالمعرفة الروحية التي تأتي مع الاستنارة الإلهية وتلقي الضوء حتى على تلك الأشياء المظلمة بالنسبة لآخرين[١٧].

---

[13]- Maximus the Confessor: 2nd century on love, 25, Philok. 2, p. 69.
[14] - Diadochus, op. cit. 6, Philok. 1, p. 254.
[15] - John of the Ladder, Step 26, CWS p. 248.
[16] - Sayings of the Desert Fathers, Anthony the Great 8, p. 2.
[17] - John the Ladder: Step 26, CWS p. 229.

لقد أردنا مما قيل عن التمييز أن نظهر أنه ليس من السهل الحكم على كل خبرة موصوفة من قِبَل أشخاص على وشك الموت. إنها موهبة للآباء الروحيين العظام الذين يرون الحقيقة بعمقها ولا يفحصون السطح ببساطة. فهم يميزون إن كان الأمر ثمرة لحالة نفسية غير سوية، أم هو ظهور للشيطان، أم أنه نتيجة لظهور الله والقديسين. هذا هو السبب الذي يجعل من الصعب على أي أحد أن ينخرط في تحليل خبرات الاحتضار وما بعد الموت.

لكن توجد بعض النقاط الخارجية التي تميز وتحدد هذه الخبرات. فالمسيح إذ يتكلم عن الأنبياء الكذبة الذين يأتون في ثياب الحملان ولكنهم من داخلهم ذئاب خاطفة، فإنه ينصح تلاميذه قائلاً: "من ثمارهم تعرفونهم". كل شجرة جيدة تعطي ثمرة جيدة وكل شجرة رديئة تعطي أثماراً رديئة. "لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثماراً ردية ولا شجرة ردية أن تصنع أثماراً جيدة"(مت ٧: ١٥-١٨).

المحك إذاً هو الثمار الناضجة. فلو ساد السلام والهدوء في القلب بعد رؤية ما، تكون هذه علامة على أنها من الله، ولكنها إن تسببت في اضطراب فإنها تكون علامة على أنها من الشيطان. يحدث نفس الشيء من جهة هوى الكبرياء. فعندما يتكبر الشخص بعد مثل هذه الخبرة، يكون ذلك علامة على أن طاقة شريرة تتملكه. على حين أن الشخص الملهَم بنعمة الله يتواضع بالأكثر، وعادة ما لا يقول أي شيء.

وبالتالي تُقَيَم الخبرة بحسب حياة الشخص التالية للخبرة. تظهر هذه الحقيقة في المثالين اللذين أوردناهما من كتاب "إيفرجيتينوس".

فبطرس الراهب الذي مات ورأى أهوال الجحيم وعاد للحياة شعر أن ذلك كان من أجل توبته. والملاك الذي منعه من أن يؤخذ في النار قال له: "اذهب واعرف كيف ستعيش بعد ذلك، وانتبه لنفسك". وفي الواقع يقول غريغوريوس الناطق بالإلهيات أن الله سمح له بهذا الموت بعنايته الرائعة "لئلا يموت إلى الأبد". إذ أنه من الممكن أنه بعد عودة الناس من رؤية الجحيم ألا يقادوا إلى التوبة، وهكذا يعودون للحياة الحاضرة بعد رؤية هذه الأمور المرعبة "ويبقون غير قابلين للتغيير، ولا يبقى لهم أي عذر"[18].

---

[18] - Evergitinos, op. cit. p.81.

والراهب الثاني الذي عاد للحياة الحاضرة بعد أن رأى أمه في محاكمة المدانين، أغلق على نفسه في القلاية واعتنى بخلاصه "تائباً ونائحاً على ما فعله من قبل خــلال التــواني". وقيل في الواقع أنه تاب بشدة، وكانت دموعه وتأنيباته لنفسه كثيرة لدرجة أن بعض الذين رأوه ترجوه أن يستريح قليلاً لكي لا يعاني من المرض "بسبب إسرافه في النحيب"[19].

لايستطيع أحد أن يــبقي بدون تأثر وبلا توبة بعد مثل هذه الخبرات. ولــو أن أحداً فعل ذلك، وخصوصاً لو أنه انتفخ، فإن خبراته تكون عندئذ إما شيطانية، أو أنهــا كانت علامة من الله ولكنه شوهها وخسرها. فمن الممكن أن تكون خبرة واحدة كهذه سبباً للدينونة والملامة العظيمة.

لكن حتى في حالة أبي الروحي، أستطيع أن أضمن حقيقة أنه حكى مرة واحدة ما رآه ولكنه لم يحكِه ثانية أبداً. ولكن هذا الحدث أنشأ فيه توبة عظيمة، محبوبة، غــير محدودة. فهو لم يكن يدين أي أحد، وكان يشعر أنه حاضــر في كرســي دينونــة الله المخوف. وفي مرة من المرات قلت له كلمة حمقاء فغضب بسبب أنني حرمته من نقاوة عقله، وبسبب أنني أعطيته فرصة للإدانة على حين أنه كان تحت الحكم في ذلك الوقت بحسب قوله. لقد قال لي مراراً وتكراراً أنه لو شفاه الله ومنحــه أن يقــيم الخــدمات الطقسية ثانية، فلن يــبشر ولكنه بدلاً من ذلك سيذهب ليقف أمام العــرش ويقــول: "اللهم ارحمني أنا الخاطئ". لقد وصل لعمق الاتضاع والتوبة. وهذا ما يجعلني واثقــاً أن هذه الخبرة، بالإضافة إلى كل حياته النسكية المتجردة، أوصلته إلى نهاية مقدسة جداً.

على أية حال، من الصعب علينا أن نفهم نوع وطبيعة الرؤى، لذا يجب علينا أن نلجأ لأصحاب الخبرة والمعرفة بالحياة الروحية كما ينصحنا الآبــاء. **لــيس للأطبــاء النفسيين وعلماء هذا الدهر ما يقولونه في هذه المسائل.** فهم يستطيعون أن يتوقعــوا ويدركوا وجود شيء وراء الحياة الحاضرة، ولكنهم على أية حال يكونون غير قــادرين على أن يعطوا تشخيصاً حقيقياً معصوماً من الخطأ.

خلاصة هذا الموضوع هي أننا نستطيع أن نقول أن الشخص الذي يقترب مــن الموت يدرك حقيقة أخرى، وأنه من الجائز أنه لم يكن يعرفها من قبل. **فنحن نظــن أن**

---

[19] - Ibid, p. 87.

الحياة التي نراها هي الحياة الحقيقية. ومع ذلك، فطالما أنه توجد خليقة نوسية وحسية بآنٍ واحد، فبالتالي يكون هناك عالماً آخر لا يخضع للعقل والحواس يفوق عالم المحسوسات والمدركات. **وهكذا من يُقاد نحو الموت يُقاد نحو الواقع والأصالة**. فالباطل مرتبط بأسرنا في عالم الحواس والمادة.

مع ذلك، **لا ينبغي على نوس الإنسان أن يُستَنـزَف بلا هدف في شئون كثيرة حتى ولو في الرؤى**. فينبغي على النوس ألا يكف عن تذكر الله المرتبط ارتباطاً وثيقاً بالوعي بالخطية. وبالتالي لا ينبغي على النوس أن يتمعن فيما يسمى الحالات "الفائقة للطبيعة". وحتى لو كان لدى شخص ما بعض الخبرات، فلا ينبغي عليه أن يعتمد عليها بصورة مطلقة. **فالقديسون أصحاب النوس النقي يرون خزيهم حتى في وسط رؤيتهم لله**. وفي كتاب الأرشمندريت صوفرونيوس "معاينة الله كما هو" يؤكد باستمرار على حقيقة أن النوس على الرغم من رؤيته للنور غير المخلوق ولخبرات أخرى كان منشغلاً بخطاياه وليس بالحالات التجريبية المختلفة.

يقول القديس اسحق السرياني أن الذي يُحسَب مستحقاً لأن يرى نفسه "هو أعظم من الذي يُحسَب مستحقاً لرؤية الملائكة". وأن الذي يُحسَب مستحقاً لأن يرى خطاياه "هو أعظم من الذي يقيم الموتى بصلواته"[٢٠].

إننا لا نستفيد من رؤية الملائكة ومن إقامة الأموات عندما لا نكون قد اكتسبنا المعرفة الروحية بذواتنا، وعندما لا نكون قد أقمنا أنفسنا الميتة من الأهواء والخطايا. يسمح الله ببقائنا في الحياة بحيث نستطيع أن نتوب ونتذوق ملكوت السموات.

---

[20] - Isaac the Syrian: Ascetical Homilies, 64, Holy Transfiguration Monastery, Boston, p. 317.

الباب الرابع

خلـــود النفـس

لقد تكلمنا في الباب السابق باستفاضة عما نعنيه بالضبط عندما نتكلم عن موت الجسد. فما نسميه الموت هو انفصال النفس عن الجسد الذي يحدث بسبب فساد وموت الإنسان، وهو ثمرة خطية آبائنا الأولين.

ومع ذلك، فعلى الرغم من هذا الانفصال فإن أقنوم الإنسان، أي شخصه، لا يفنى. فالإنسان يتكون من نفس وجسد، أي أنه الاثنان معاً. تُسمى النفس نفس الإنسان، ويُسمى الجسد جسد الإنسان. فتماماً مثلما يحافظ الله على الخليقة كلها بقواه المضيئة، هكذا أيضاً تحافظ النفس على الجسد المرتبط بها. فقد قيل في علم اللاهوت الآبائي أن **صورة الله في الإنسان أقوى من صورته في الملائكة**، لأن الإنسان له نوس وكلمة وروح تحفز الجسد المرتبط به، ولا ينطبق ذلك على حالة الملائكة[٢١].

تبقى النفس خالدة بعد أن تغادر الجسد. ونحن عادة ما نجد في النصوص الليتورجية والآبائية إشارة إلى خلود النفس. لا تموت نفس الإنسان أبداً على المستوى الوجودي، أي أنه لن يكون هناك أبداً وقتاً تكف فيه النفس عن الوجود على المستوى الوجودي.

إنه أمر حقيقي أن الفلسفة تكلمت أيضاً عن خلود النفس، ولكنها تراه في أُطُر مرجعية مختلفة، ووضعته في منظور مختلف. بالتالي سوف نحاول فيما يلي أن نرى كيف تنظر الفلسفة لخلود النفس، وكيف ينظر لها علم اللاهوت. إن هذا الأمر ضروري جداً بالنسبة للموضوع الذي يشغلنا.

١ – خلود النفس بحسب الفلسفة

يوجد تمييز جذري بين المادة والواقع في الفلسفة التي تحتوي على تعليم ينادي بأن الوحيد الخالق الحقيقي هو غير المولود وغير المتغير، لأن ما يبدأ في الزمن تكون له نهاية[٢٢]. ينتمي جسد الإنسان إلى العالم المادي، على حين أن النفس تنتمي لعالم الواقع، أي عالم الأفكار. وبالتالي فإن النفس خالدة على عكس الجسد المائت. ولو كانت النفس خالدة بحسب الفلسفة فإن ذلك يقود بالضرورة إلى القول بأنها غير

---

[21] - Gregory Palamas, 150 texts, ch. 30, Philok. Vol. 4, p. 143 (GK). 358.
[22] - John Romanides: The ancestral sin, Athens 1989, p. 30 (GK).

مولودة، وغير مخلوقة، طالما أنها تنتمي أيضاً لعالم الأفكار. لا توجد أية علاقة بين النفس وظاهرة الفناء لأنها تنتمي للواقع الذي هو بدون تغيير أو بداية[٢٣].

تعتبر حالة النفس في الجسد، أي إقامتها في جسد الإنسان، إما طبيعية "لأن النفس هي ومضة من النفس الجامعة، وبالتالي تكون خالدة وغير متغيرة وغير مولودة" كما يقول الرواقيون، وبسبب "أن النفس هي الشكل غير المولود للفضيلة، وهي غير منفصلة عن المادة" كما أكد على ذلك أرسطو، أو أنها تعتبر فائقة للطبيعة "نظراً لأن الجسد هو سجن للنفس" كما أكد على ذلك أفلاطون[٢٤]. وعلى كل حال، فمن المؤكد أنه بحسب الفلسفة القديمة تنتمي النفس لعالم الأفكار، ولا يكون لها أية صلة بالمادة التي يكون جسم الإنسان جزءاً منها.

يجب علينا على الأخص أن نشير إلى رأي أفلاطون في النفس الذي كان سائداً بالأكثر، والذي نجده أيضاً في الديانات الشرقية. إنه يقول أن النفس سقطت من عالم الأفكار، وأُسِرَت في الجسد الذي هو الآن سجن للنفس. وبحسب تعليم أفلاطون، فإن سقوط الإنسان يكمن في سجن النفس هذا في الجسد. فالنفس الخالدة غير المولودة حُبِسَت في الجسد المائت المادي، وبالتالي فإن النفس تعاني.

ولكن الله الذي هو المحرك غير المتحرك دون أن يتغير هو ذاته، يجتذب لنفسه ما هو غير مولود. وليس الشر إلا الميل الذي يتعذر تفسيره للمتغير، وللمادة، أي في الاتجاه المضاد للواحد المحرك غير المتحرك[٢٥]. وهذا يعني أن النفس التي هي غير مولودة، والتي كانت في عالم الأفكار قد أُقصِيَت من عالم الواقع هذا. ومنذ ذلك الحين، والله يجذبها لعالم غير المولود وغير المتغير. وهو يدعوها أن تعود ثانية عندما تتحرر من هوى الجسد الذي انحصرت فيه. هذا هو خلاص النفس في المفهوم الأفلاطوني. فهو عودة النفس لعالم غير المولود.

هذا هو بوجه عام التعليم عن خلود النفس بحسب الفلسفة. وكما نرى، فكل مفهوم الفلسفة عن خلود النفس مُتَضَمَن في ثلاثة نقاط. **النقطة الأولى** هي أن النفس غير مولودة طالما أنها تنتمي لعالم الأفكار، وبالتالي هي غير مخلوقة. **النقطة الثانية** هي

---

[23] - Ibid. p. 33.
[24] - Ibid.
[25] - Ibid. p. 32.

أن نفس الإنسان لها قيمة عظمى مقارنةً بالجسد، أي أن ما يسمى الازدواجية يسود حيث يُبالَغ في تقدير النفس، على حين أن الجسد المنظور إليه على أنه نتيجة للسقوط والفساد يُحَط من قدره. وبالتالي، بحسب مفهوم الفلسفة القديمة، ليس للجسد أية قيمة ولا أهمية، بل على العكس هو في الواقع سيء جداً لأنه يحبس النفس الخالدة غير المولودة في المادة، ولا يدعها تعود للعالم الذي أتت منه. ولكن في هذا المنظور، يكون الإنسان غير متكامل، وتُرى المادة على أنها شر يجب رفضه. **والنقطة الثالثة** هي أن الفلسفة لا تستطيع التحدث عن قيامة الجسد. وهذا هو السبب الذي جعل بولس الرسول عندما تكلم عن قيامة الجسد في أريوس باغوس بدأ سامعوه يسخرون منه لمجرد أن هذا التعليم المسيحي يزعزع كل أساس علوم ما وراء الطبيعة.

٢- خلود النفس بحسب علم اللاهوت الأرثوذكسي

لقد أكدنا على أن كلمة "خلود" موجودة في كل من الكتاب المقدس، وفي نصوص التقليد الأرثوذكسي، وبالتحديد في العبادة وتعليم الآباء. ولكن الكلمة لها معنى مختلف تماماً عن المعنى الموجود في الفلسفة. إننا سوف نحاول أن نعطي شرحاً صغيراً مقدمين المعاني الأربعة المرتبطة بكلمة "خلود".

المعنى الأول للخلود مرتبط بما هو خالد بالطبيعة وليس له بداية ولا نهاية. وفي هذا المعنى، يكون الله وحده هو الخالد بالطبيعة طالما أن الله ليس له بداية ولا نهاية، وهو أبدي، أي أنه فوق الدهور. وبالتالي نرتل في الكنيسة "الخالد المقدس..". يتكلم بولس الرسول عن المسيح الذي هو الله الحقيقي قائلاً: "الذي وحده له عدم الموت ساكناً في نور لا يدنى منه" (١تي٦:١٦).

المعنى الثاني للخلود يرتبط بما هو خالد بالنعمة، أي ما له بداية وليس له نهاية لأن الله منحه هذه النعمة والإمكانية. وفي هذا الإطار، نتحدث عن خلود المرتبط بالأبدية. وهذا يعني أنه من الضروري أن توجد نهاية أيضاً لما له بداية. فقد خلقت نفس الإنسان من قِبَل الله، وبالتالي تكون لها بداية ملموسة، ولكن عندما خلق الله النفس أراد لها أن تكون بلا نهاية. وهكذا، على حين أن الله خالد بالطبيعة فإن نفس الإنسان على الرغم

من أنها مخلوقة إلا أنها خالدة بالنعمة، أي أنها أبدية وبالتالي ليس لها نهاية؛ وهذا لأن الله أراد لها أن تكون هكذا. بالتالي على الرغم من انفصال النفس عن الجسد بالموت، إلا أن الشخص لا يفنى جوهرياً، ولا تكف النفس عن الوجود، ولكنها تحيا وتنتظر المجيء الثاني للمسيح لكي تدخل الجسد المقام، بحيث يعيش الإنسان بجملته إلى الأبد.

المعنى الثالث لخلود النفس مرتبط بوجود نعمة الله داخلها. فالنفس موجودة ولكنها أيضاً متحدة بنعمة الله، فهي تعيش في الله. ونفوس الخطاة أيضاً موجودة من المنظور الوجودي، ولكن تنقصها قوة الله المؤلهة. وهذا يعني أن نفوس الخطاة تحيا إلى الأبد، ولكن بدون الله. وهذا ما يسمى الموت الروحي. وفي هذا المعنى يقول القديس باسيليوس الكبير أن الخطية هي "موت غير المائت"، ولا يعني هذا أن النفس تموت وجودياً وتُفقَد، ولكن أنه على الرغم من أنها تعيش إلا أنها لا تقتني نعمة الله.

المعنى الرابع للخلود مرتبط بأبدية الإنسان بجملته (النفس والجسد) عندما يشترك أبدياً في قيامة المسيح.

إننا نستطيع أن نقول بوجه عام أن نفوس الناس الأبرار والأشرار أبدية وخالدة بالنعمة. وحيث أن الإنسان يتكون من نفس وجسد (لأن النفس ليست هي جملة الإنسان ولكنها نفس الإنسان، والجسد ليس هو جملة الإنسان ولكنه جسد الإنسان)، فبالتالي تنتظر النفس بعد أن تترك الجسد المجيء الثاني للمسيح لكي تدخل في الجسد المقام؛ ثم بعد ذلك سوف يحيا الإنسان بجملته، نفساً وجسداً، إما الحياة الخالدة في المسيح أو أبدية بدون الاشتراك في قوة الله المنيرة والمؤلهة. يقول القديس مكسيموس المعترف أن الأبرار سيعيشون "صلاحاً أبدياً"، أي حياة أبدية صالحة، على حين أن الخطاة سيعيشون "شقاءً أبدياً" أي حياة أبدية مأساوية.

بمقارنة ما قلناه للتو بالآراء الفلسفية عن خلود النفس، فإننا نستطيع أن نلاحظ وجود فرق كبير بين الفلسفة وعلم اللاهوت من جهة موضوع خلود النفس. فبحسب التقليد الأرثوذكسي، ليست النفس غير مولودة، ولا هي غير مخلوقة، ولم توجد أولاً في عالم الأفكار غير المتغير، ولكنها مخلوقة طالما أنها خُلِقَت في لحظة محددة. والنفس ليست خالدة لأنها وجدت قبل الجسد، ولا بسبب أن هذه هي خاصيتها الطبيعية، ولكن لأن

الله أراد لها أن تكون كذلك. فمنذ خلقها، منحها الله الخلود، أي ألا يكون لها نهاية. **وبالتالي يكون الخلود خاصية للنفس، ولكن بنعمة الله وليس بالطبيعة.**

بالإضافة إلى ذلك، نحن لا نفصل في التقليد الأرثوذكسي النفس عن الجسد بطريقة جدلية، طالما أنه ليس لدينا ازدواجية، ولكن الإنسان بجملته مصنوع من نفس وجسد. فليست النفس هي جملة الإنسان، ولكنها نفس الإنسان. وهذا هو السبب الذي لا يجعلنا نعطي أولوية للنفس على حساب الجسد.

إننا لو لاحظنا بتدقيق، فسوف نجد أن كل الأسرار الكنسية تقدس الشخص بجملته، هذا الذي هو مصنوع من نفس وجسد. نحن لا ننظر للجسد على أنه سجن للنفس، ولكن كشيء مخلوق بالله، وبعد سقوطه ارتدى أقمصة من جلد، أي الفساد والموت. ولكن الإنسان، من خلال قيامة المسيح، اكتسب بجملته (حتى الجسد) إمكانية القيامة.

وبالتالي، فمن جهة الخلاص، يكون الشيء المهم ليس بقاء النفس بعد الموت وخلودها بالنعمة، لأنه حتى كل الخطاة سوف يبقون أحياءً؛ ولا قيامة الأجساد هي الشيء المهم، لأن أجساد الخطاة أيضاً ستقوم. **فالشيء المهم هو الحياة في المسيح بعد الموت، وبعد قيامة الأجساد.** وبالتالي يكتسب خلود النفس والإنسان معنى آخر في الخلاص الأرثوذكسي. فليس المهم طول الحياة، ولا الحياة بعد الموت، ولكن تجاوز الموت الذي يتحقق من خلال الحياة في المسيح.

إن جسد ودم المسيح هما، كما يقول الآباء، "دواء الخلود"، لأننا بهما نكتسب إمكانية الحياة الأبدية في المسيح. وبالتالي نفهم خلود النفس كعطية من الله، وخلود الجسد كشركة في جسد المسيح القائم من الموت. لو رأينا موضوع الخلود من منظور مختلف، فإننا نكون خارجين عن علم اللاهوت الأرثوذكسي، ومشوشين بالفلسفة التي تترك الإنسان بدون فداء.

٣- موت النفس والكنيسة الأرثوذكسية

لقد ظهرت هرطقة في الكنيسة الأولى بين الغنوسيين بصورة رئيسية تنادي بأن النفس تفنى مع الجسد، وقد أثرت تلك الهرطقة على كتّاب الكنيسة الأوائل. فالقديس

يوحنا الدمشقي يصف في كتابه "عن الهرطقات" الناس الذين ينادون بأن نفس الإنسان تشبه نفس الحيوان، وأنها تفنى مع الجسد[٢٦].

من المؤكد أن الكنيسة لم تقبل ذلك، لأنه على مدار الكتاب المقدس توجد نصوص تُظهر أن النفس تبقى للأبد بعد الموت بإرادة الله بعد أن تترك الجسد، وأيضاً أن نفس الإنسان تختلف بوضوح عما يسمى نفس الحيوان. وكما نعرف من دراسة النصوص الكتابية والآبائية، فإن كلمة "نفس" في حالة الحيوان تعني الحياة، وأن نفس الحيوان لها طاقة فقط وليس لها جوهر. فالحيوانات تمتلك جانب النفس الحيوي فقط، وبالتالي لا يكون لها عقل ولا كلمة، على حين أن نفوس الناس لها جوهر وطاقة، وبالتالي هي تمتلك عقلاً وكلمة وروحاً، وهذه الروح تعطي حياة للجسد المرتبط بها.

وبالتوازي مع المنادين بموت النفس، الذين يؤمنون بأنها تموت مع الجسد ولكنها وقت قيامة الجسد سوف تقوم معه أيضاً، يوجد شكل أكثر اعتدالاً من مذهب موت النفس يسمى Psychopannychia ، وهو ينادي بأن النفوس تكون في حالة من الخمول والنوم بعد الموت. ومن الطبيعي أن الكنيسة شجبت كلاً من هذين الشكلين من الهرطقة[٢٧].

لقد حدثت مناقشة مهمة بخصوص مبدأ موت النفس في أواخر الخمسينات من خلال رسالة الدكتوراة المقدمة من الأب يوحنا رومانيدس التي كان يجهز لتقديمها لمعهد اللاهوت في جامعة أثينا. وقد امتدت المناقشة في الواقع لكي تشمل العديد من المواضيع في الدراسة، ولكننا هنا سوف نلقي نظرة مختصرة فقط على آرائه عن خلود النفس.

ففي الفصل المرتبط بهذا الموضوع في دراسته والذي عنوانه "مصير الإنسان" يتكلم عن "الكمال الأخلاقي" و"الكمال والسقوط" و"الخلود". وهو يواجه موضوع الخلود لأن الفلاسفة أيضاً تكلموا عنه كما رأينا من قبل، ولكن بطريقة مختلفة عن تعليم الكنيسة. لقد دعم الأب يوحنا رومانيدس في رسالته الرأي المنادي بأن النفس خالدة ولكن بالنعمة وليس بالطبيعة، حيث أنها مخلوقة أي لها بداية محددة، وهي ليست غير مخلوقة. لقد كتب ذلك بهدف القضاء على الخلط بين الفلسفة وعلم اللاهوت، وهذا

---

[26] - John of Damascus: On heresies, FC vol. 37, p. 150.

[27] - See P. Trempelas: Dogmatics, vol. 1, ed. Zoe, Athens 1959, p. 482 and Encyclopedia of Religion and Ethics vol. 6, p. 526 (GK).

مرتبط بموضوعه العام عن التمييز بين جوهر وقوى الله، وعن السقوط والموت، وعن اتحاد الإنسان بالله[٢٨].

لقد خلقت مواضيعه العامة والمحورية تلك، مشكلة للعديد من اللاهوتيين الذين تشبعوا بدون قصد بعلم اللاهوت النظري الذي للغرب. فعلى أقل تقدير بدت كتعاليم غريبة وغير معروفة حتى الآن. ونحن لسنا بحاجة لأن نقول أن هذه الرسالة كانت إعلاناً، وواحدة من أوائل الدراسات لتظهر السبي البابلي "لعلم اللاهوت الأرثوذكسي في اليونان" من قِبَل علم اللاهوت الغربي. وهذا هوالسبب الذي جعل هذه الرسالة تُحدِث أثراً خاصاً.

لقد عبَّر اللاهوتيون عن الرأي المنادي بأن الأب يوحنا رومانيدس قبل آراء مبدأ موت النفس في تأكيداته. ينبغي علينا أن نشير إلى أن آراء الأب يوحنا رومانيدس أُسيء تفسيرها تحت تأثير علم اللاهوت النظري والمدافعين ضد **Diaphotists**، الذين لأسباب أخرى رفضوا غيبيات علم اللاهوت الغربي. بمعنى أن أولئك اللاهوتيين كانوا غير قادرين على التأكد من التعليم الأرثوذكسي الذي قدمه في رسالته.

وللإجابة على هذه الاتهامات، كتب الأب يوحنا رومانيدس رسائل بقيت بدون نشر أكد فيها على بعض النقاط المهمة. ونحن نود أن نذكر أهم هذه النقاط.

لقد أكد أولاً على أن لعلماء اللاهوت الغربيين مفهوم خاطئ عن الله، وعن قواه في العالم، وكذلك عن خلود النفس. لقد أتيحت لنا الفرصة فيما سبق أن نرى أي نوع من المفاهيم تتبناه الفلسفة بخصوص خلود النفس، تلك المفاهيم التي أثرت أيضاً على علم اللاهوت الغربي النظري. ثم بعد ذلك أكد على أنه ولا واحد من الآباء كان لديه أدنى شك عن خلود النفس. ومع ذلك فهم يركزون في تعليمهم على أنه لو انفصلت النفس عن قوة الله المانحة للحياة فإنها تموت (بخلاف حقيقة أنها ستعيش للأبد في عذاب وخوف). وهكذا فإن أولئك الذين يحيون بدون قوة الله المانحة للحياة يكونون أمواتاً على الرغم من كونهم أحياءً. **يتكلم إذاً التعليم الآبائي عن موت النفس ليس من جهة وجودها، ولكن من جهة عدم اشتراكها في قوة الله المؤلهة**. وهويقول، مستشهداً بالعديد من النصوص من الكتابات القديمة ومن الآباء مثل يوستين والقديس إيرينيئوس،

---

[28] - John Romanides, op. cit. p. 124.

أنهم يتكلمون عن موت النفس على أنه انفصال الإنسان عن الله دون أن يكونوا من أصحاب مبدأ موت النفس. فحيثما يُذكَر أن للإنسان روح، فهذا لا يعني أنها مكون من مكوناته، وأن الإنسان يتكون من نفس وجسد وروح، ولكن أن هذه الروح هي نعمة الله التي فقدها الإنسان الأول. وبالتالي هو يضيف في النهاية: "إنه ظلم كبير لي أن أُتَهَم بأنني أؤمن بموت النفس، لأن العديد من الآباء أيضاً يقبلون بموت النفس بالطبيعة، وبخلود النفس والملائكة بالنعمة".

تقال كل هذه الأشياء أيضاً من وجهة نظر وجود جحيم أبدي لأن الله أراده واحتمله، وهو يتناسب مع أعمال وسلوك الإنسان. فلو شُفي الشخص، فإنه سيختبر قوة الله المانحة الاستنارة والمؤلهة، ولكن لو لم يكن قد تطهر، فإنه سيختبر قوة نعمة الله الحارقة.

بالإضافة إلى ذلك فإن الأب يوحنا رومانيدس يؤكد على أن الرأي الموجود في كتابات الآباء عن موت النفس على أنه انفصال عن نعمة الله وحرمان منها، وعلى أنه عدم وجود النفس، عبَّر عنه أيضاً الأب جورج فلوروفسكي، وأعقبه بقوله: "لا يكون الوجود والحياة هما نفس الشيء بالنسبة لمن يميز بين حياة النفس ووجودها الأبدي في الجحيم. فمن الممكن أن يموت الإنسان موت الجحيم الأبدي وبالتالي لا يحرم من الحياة، ولكنه لا يمكن أن يُحرَم من الوجود لأن الله قضى بذلك".

إننا نستطيع أن نحدد ثلاثة استنتاجات عامة في دراسة رسالة الأب يوحنا رومانيدس من جهة الموضوع الذي يعنينا.

أولاً، أن الله وحده هو الخالد بالطبيعة لأنه موجود بذاته، على حين أن نفوس الناس والملائكة هي خالدة بالنعمة. وبالإضافة إلى ذلك، يقول القديس يوحنا الدمشقي عن الملائكة "أنها خالدة ليس بالطبيعة ولكن بالنعمة، لأن كل ما كان له بداية يأتي أيضاً إلى نهايته الطبيعية"[٢٩]. وما ينطبق على الملائكة ينطبق أيضاً على نفوس الناس، طالما أن لهم أيضاً بداية محددة وأنهم مخلوقون.

ثانياً، بحسب الفلسفة اليونانية، فإن النفس تستطيع أن تكون خالدة ليس بسبب أن الله الذي خلقها أراد ذلك، ولكن فقط عندما يوجد دليل ما على أنها غير مولودة،

---

[29] - John of Damascus, The Orthodox faith, Bk. 2, ch. 3, FC 37, p. 206.

وبدون بداية، وخالدة بالطبيعة. وعلى أية حال، وبحسب الآباء، فإن النفس خالدة ليس لأن هذه هي قدرتها الطبيعية، ولكن لأن الله أراد لها أن تكون كـــذلك. وكنـــتيجة لذلك، "فإن خلود الذي يخلص والذي يُعَاقَب يعتمد على إرادة وعمل الله، وليس على طبيعة النفس ذاتها". ووجود الملكوت الأبدي والجحيم الأبدي هـــو بســـبب إرادة الله، وذلك يعتمد على حالة الإنسان[٣٠].

ثالثاً، يُعتَبَر أولئك الذين لا يقتنون نعمة الله مائتين روحياً حتى لو كانوا يحيـــون للأبد، لأن انفصال الإنسان عن الله هو الموت الروحي[٣١].

وكنـــتيجة لذلك، نتكلم في الكنيسة الأرثوذكسية عن خلود النفس، ولكن ليس داخل الافتراضات الفلسفية وعلم اللاهوت النظري الذي للغرب. لايجب أن يكون هناك خلط بين الفلسفة وعلم اللاهوت. ومما قلناه فيما سبق، يـــبدو واضحاً أن النفس خالدة لأن الله أراد لها ذلك، وأنه ينبغي على الإنسان المصنوع من نفس وجسد أن يـــبقى خالداً إلى الأبد ومشاركاً في قوة الله المؤلهة غير المخلوقة.

---

30 - John Romanides, op. cit. p. 126f.
31 - Ibid, p. 127.

الباب الخامس

النـــار المطـــهـــرة

إن انفصال الروح من الجسد هو لغز كبير، ولقد رأينا فيما سبق ما يحدث عندما يقترب هذا الميعاد، أي ما يحدث عندما تجد الروح نفسها على الحافة وتستعد للخروج من الجسد. كل هذه الأسرار أعلنها لنا المسيح، وشهد لها قديسو كنيستنا. كما نجد في حياة القديسين العديد من الأمثلة المرتبطة بهذه المسائل الجوهرية.

وضع اللاتين نظرية المطهر التي تنص على أن أرواح كل الناس، الأبرار والأشرار، سوف تدخل فيما يسمونه المطهر بعد أن تترك أجسادها. يتكلم تقليد الآباء عن تطهير القلب، ولكن هذا له معنى مختلف. فنظرية اللاتين عن المطهر هي سوء تأويل وتشويه لنصوص الكتاب المقدس المتعلقة بالموضوع، ولنصوص آباء الكنيسة، حيث استعملوها لأغراض أخرى.

من المفيد أن نفحص الفرق بين الأرثوذكس واللاتين فيما يخص موضوع المطهر. فهو أحد المواضيع التي تهمنا في هذا الكتاب.

لقد عُقِدَ مجمع فيرارا-فلورنسا ١٤٣٨-١٤٣٩ بهدف "توحيد" الكنائس. ومن ضمن عدة مواضيع أخرى، تناول المجمع قضية المطهر والفرق بين الأرثوذكس واللاتين في هذه النقطة حيث أخذ هذا الموضوع الصدارة. إننا سوف نتابع هذا الحوار، بالإضافة إلى وجهات نظر القديس "مرقس آفيانيكوس" لأنها مهمة جداً.

إنني أشعر أننا بحاجة لتوضيح بعض الملاحظات الرئيسية في البداية.

أولاً، سوف نتناول الموضوع كله على أساس تعليم القديس مرقس آفيانيكوس الذي كان رئيساً للوفد الأرثوذكسي في المجمع الذي لم تقبل الكنيسة الأرثوذكسية قراراته.

ثانياً، قبل أن نتناول تعليم القديس مرقس بالتفصيل سوف نلقي نظرة من منظور تاريخي على الطريقة التي بدأ بها المجمع وكيف تم تناول الموضوع فيه. لأنه سيكون من الصعب متابعة تعليم القديس دون هذا التوضيح.

ثالثاً، طالما أننا سنتناول بالذات تعاليم القديس مرقس آفيانيكوس الخاصة بموضوع المطهر والجحيم والفردوس فلن نستشهد بمراجع لآباء الكنيسة الآخرين. بالإضافة إلى ذلك سوف نحلل في فصول أخرى من هذا الكتاب المواضيع الخاصة بالفردوس، والجحيم، وملكوت الله، والحياة الأبدية. قد يساعدنا التكرار في هذه الموضوعات، والذي لا نستطيع تجنبه، على تدعيم معرفتنا فيما يخص هذه المسائل الخطيرة.

١- المناقشات الخاصة بالمطهر في فيرارا-فلورنسا

أول مسألة تمت مناقشتها بين الأرثوذكس واللاتين في فيرارا هي مسألة المطهر. فقد بدأ افتتاح المجمع في يوم ٩ أبريل ١٤٣٨. إلا أن الحوارات حدثت مؤخراً في يونيو من نفس العام. سوف نتابع هذه المناقشات بحسب الوثائق اليونانية للمجمع، وبحسب المعلومات المستمدة من سيروبولس التي هي معلومات أصيلة.

من بين العديد من الاختلافات بين الكنائس، فُضِلَ البدء بمسألة المطهر. فقد قال الكاردينال يوليانوس سيزاريني ممثل اللاتين أنهم كانوا يفضلون البدء بمناقشة مسألة سلطة البابا، إلا أنه رأى أنه من الأفضل البدء بالحديث عن "النار المطهرة بحيث نتطهر نحن أيضاً بالكلام عنها".

وقد وافق القديس مرقس آفيانيكوس على هذا الرأي، إلا أنه أراد أن يعلم من أين اكتسب اللاتين هذا التقليد، ومنذ متى آمنوا به، وما هي وجهة نظرهم الحقيقية من جهة هذا الموضوع[٣٢].

قبل بداية المناقشات عن موضوع المطهر، سأل القديس مرقس الإمبراطور يوحنا باليولوجوس عن الطريقة التي يفضل بها أن يجاوب على اللاتين: "هل بطريقة نزاعية عنيدة أم بطريقة دبلوماسية؟". وكان رد الإمبراطور "قل كل الأشياء الصحيحة الخاصة بنا بطريقة نزاعية"[٣٣]. هذا أمر مهم، لأننا سوف نرى فيما يلي أنه عاد وفضل طريقة أخرى وهي طريقة اللين، مما اضطر القديس مرقس لالتزام الصمت أثناء الحوار عن موضوع المطهر.

في الحقيقة، إلتقى الوفدان المفوضان لفحص هذه المسألة في الرابع من يونيو. وقام الكاردينال يوليانوس بتوضيح آراء اللاتين، حيث قال بطريقة حازمة: "يوجد مطهر بمعنى أنه في الدهر الحاضر تتطهر أرواح الخطاة بخطايا قابلة للغفران، بواسطة النار، بمعونة الكنيسة، من خلال صلوات الكهنة، بالإضافة إلى أنهم يتحررون من العقوبة من خلال الصدقات وأعمال الخير".

---

[32] - Sylvestre Syropoulos: Les "Memoires du Grand Ecclesiarque de l'Eglise de Constantinople, sur le concile de Florence, Editions du Centre National de la Recherche Scientifique, Paris VIIe 1971, p. 272.

[33] - Ibid. p. 280.

لقد قال بطريقة أكثر تحليلية أنه توجد ثلاثة أماكن وفئات. المكان الأول خاص بالقديسين الذين تذهب أرواحهم إلى السماء بعد الموت، والثاني خاص بالخطاة وغير التائبين الذين يبقون في الجحيم مثل روح يهوذا، ويوجد مكان آخر متوسط توجد فيه أرواح ذوي الخطايا القابلة للغفران، لأنهم اعترفوا بها وتناولوا القربان المقدس، ولكنهم مازالوا "مديونين بعقوبة". فنفوس هؤلاء الناس تمر بنار المطهر[٣٤].

بحسب رواية سيروبولس، قال الكاردينال يوليانوس، من ضمن أشياء أخرى، أن أرواح الذين تابوا، واعترفوا بصدق، ولكنهم لم يسعفهم الوقت لكي يتمموا قانون التوبة الذي وضعه لهم أب الاعتراف، ولم يعطوا أثماراً للتوبة تكفر عن خطاياهم "تتطهر بنار المطهر؛ البعض منها بسرعة، والبعض الآخر ببطء، بحسب الخطايا التي ارتكبوها. وبعد انتهاء تطهيرهم يرحلون إلى النعيم الروحي"[٣٥].

لقد عبَّر اللاتين عن هذه الآراء مستشهدين بالعديد من النصوص من الكتاب المقدس، ومن آباء الكنيسة. فقد استشهدوا من الكتاب المقدس بكلمات بولس الرسول: "لأنه بنار يستعلن وستمتحن النار عمل كل واحد ما هو. إن بقي عمل أحد قد بناه عليه فسيأخذ أجرة. إن احترق عمل أحد فسيخسر وأما هو فسيخلص ولكن كما بنار" (١كو٣: ١٣-١٥). وبالمثل استعملوا العديد من نصوص آباء الكنيسة القديسين[٣٦].

تظهر بوضوح من خلال هذه الآراء ثلاثة أشياء.

أولاً، أن اللاتين عندما تحدثوا عن نار المطهر ميَّزوا بوضوح بينها وبين النار الأبدية، لأنهم تكلموا عن نار "في الدهر الحاضر" قبل المجيء الثاني للسيد المسيح.

ثانياً، أن هذه النار هي في الواقع نار مخلوقة، فهي ليست قوى الله غير المخلوقة.

ثالثاً، أن أرواح الناس تتطهر بواسطة هذه النار.

سوف نرى آراء الأرثوذكس في الحوار، ولكن بصورة رئيسية في تعليم القديس مرقس آفيانيكوس التي سوف نقدمها في فصل آخر من هذا الباب.

---

34 - I. D. Mansi: Sacrorum Consiliorum Nova et Amplissima Collectio. Vol. 31A, Akademische Druck – U. Verlagsanstalt, Graz, Austria, 1961, p. 486.

35 - S. Syropoulos, op. cit. p. 280.

36 - I. D. Mansi, op. cit. p. 486.

بعد أن وضح الكاردينال يوليانوس آراءه، تكلم القديس مرقس. وسجل سيلفستر سيروبولس، من ضمن العديد من الأشياء، أن القديس مرقس قال أنهم حتى ذلك الحين كانوا يظنون أن اللاتين يؤمنون بأشياء أخرى، إلا أنهم سمعوا الآن أشياءً مختلفة. فقد قال في الواقع بصورة قاطعة: "لأنه من خلال بيان نيافتكم وجدت أن الاختلاف بيننا بسيط، وأتضرع إلى الله أن يصحح هذا الاختلاف". وكما يقول سيروبولس، كان من الطبيعي أن يقول القديس مرقس هذا بطريقة دبلوماسية لكي يخلق مناخاً من الصداقة[37]. وعلى أية حال، لقد طلب منهم أن يسجلوا آراءهم كتابةً، حتى يستطيع أن يعطي رده عليها.

وقدم مانسي وثائق رسمية مسجل فيها أنه مباشرة بعد ما قيل في هذه الجلسة الأولى تم توثيق كل ما تمت مناقشته في الجلسات التالية التي انعقدت في الرابع عشر من يونيو حين أعطى الأرثوذكس ردهم. لقد حجب سيروبولس حدثاً ما يظهر كل الفكر السائد، إلا أنه قدم بوضوح السبب الذي جعل القديس مرقس يتراجع عن إعطاء ردود أثناء هذه الجلسات، على حين تولى المطران نيكاياس فيساريون مهمة الإعلان عن الرأي الأرثوذكسي.

لقد دارت مناقشات لا تنتهي بين الأرثوذكس عن الرد الذي ينبغي عليهم إعطاؤه فيما يخص نار المطهر. وفي النهاية، قام كل من القديس مرقس والمطران نيكاياس بكتابة بيان، وتمت قراءة البيانين في اجتماع للأرثوذكس حيث كان على الإمبراطور اختيار أحد النصين. فأعطى أوامره بأخذ مقدمة من نص فيساريون وأي شيء فيه يبدو مفيداً، وأخذ الأفضل والأغلب من نص القديس مرقس، وبالتالي تجميع "البيان الذي سوف يتم تقديمه". وهنا بدأت "الفضيحة بين نيكاياس والأفسسي"[38].

تولى فيساريون مهمة الحديث، ولكن كما تقول الوثائق أنه تعين على آخرين أيضاً أن يتدخلوا "وكان اليونانيون يدافعون عن أنفسهم في هذا الصدد"[39]. على كل حال، يبدو مما أعلمنا به سيروبولس أن نيكاياس فيساريون هو من قام بإلقاء الخطبة الرئيسية. فسيروبولس يقول أن القديس مرقس كتب كلمات جيدة جداً تفند آراء اللاتين، وأن اللاتين طالبوا القديس مرقس بالرد، وبإعطاء رأي وتعليم الكنيسة

---

[37] - S. Syropolous, op. cit. p. 282.
[38] - Ibid. p. 284.
[39] - I. D. Mansi, op. cit. p. 486.

الأرثوذكسية المتعلق بموضوع المنتقلين. إلا أن القديس مرقس "لم يفعل ذلك إذ منعه الإمبراطور من الحديث". فأصر اللاتين على معرفة السبب الذي جعل القديس مرقس لا يتكلم وطالبوه بالكلام. ولكن القديس "كان مقهوراً بشدة بأمر الإمبراطور، كما لو كان مكبلاً بلجام فوقع في مأزق". ثم تحدث فيساريون، وهو في الحقيقة ترك مكانه حيث كان يجلس بجوار القديس مرقس "وجلس في نفس المكان الذي كان يجلس فيه القادة الرسميون المذكورون آنفاً"[٤٠].

تظهر هذه الحادثة أيضاً موقف القديس مرقس الصعب، حيث أنه كان من جهة ممنوعاً من الكلام من قِبَل الإمبراطور، ومن جهة أخرى أصبح موضع غيرة وحقد فيساريون. وعلى الرغم من ذلك، أعطى القديس مرقس إجابات ناجحة خلال المناقشات التي أعقبت ذلك. يكتب سيروبولس قائلاً: "إننا نتعجب كيف استطاع الأفسسي أن يعطي حلولاً مصحوبة برسوم توضيحية دون أن يعلم مسبقاً ما كان الإمبراطور يوحنا مزمعاً أن يعرض"[٤١].

لكن دعونا نتابع الحوار المهم الذي دار في فيرارا بين الأرثوذكس واللاتين فيما يخص نار المطهر.

تلقى فيساريون أمراً من الإمبراطور بالإجابة على آراء اللاتين. فبدأ بتحليل النص الرسولي: "إن احترق عمل أحد فسيخسر وأما هو فسيخلص ولكن كما بنار"(١كو٣:١٥). وقال أن الأعمال التي ستحترق هي أعمال وحياة الناس الذين عاشوا في هذا العالم. وأما النار التي يتحدث عنها الرسول فهي النار الأبدية الخاصة بالدهر الآتي، ولا يوجد أي ذكر لنار أخرى. "إن النار التي يتكلم عنها الرسول تخص الدهر الآتي وليس الحالي". وأيضاً فعل "سيخلص" لا يعني الخلاص ولا التجديد ولكنه يعني "أنه سوف لا يفنى". أي أن الخاطي لن يفنى ولكنه سيبقى في "عذاب في النار الأبدية"[٤٢].

لقد أصر اللاتين على وجود نارين، واحدة في الدهر الحالي والتي يحصل من خلالها تطهير الروح، والأخرى في الدهر الآتي وهي ليست مطهرة ولكنها أبدية. وبالمثل

---

40 - S. Syropolous, op. cit. p. 286ff.
41 - Ibid. p. 288.
42 - I. D. Mansi, op. cit. p. 486f.

قالوا أن نار الدهر الحالي عامة، بمعنى أن "الجميع يتطهرون بالنار". فصاحب الخطايا الكثيرة يُطَّهر لزمن طويل، على حين أن صاحب الخطايا القليلة "يخرج بعد قليل وبمساعدة الكنيسة أيضاً"[43].

لقد بررت إجابات اللاتين القديس مرقس، الذي عندما سمع المقدمة الافتتاحية للكاردينال يوليانوس قال أن تعاليم اللاتين المعطاة عن نار المطهر تختلف عما سُمِع في هذه الافتتاحية، لأنه يوجد فرق على ما يبدو. فقد وضحت المناقشات حقيقة كلامهم عن نارين: واحدة حالية والأخرى آتية، وعن أن كل الناس يعبرون خلال نار المطهر.

من ثم أجاب الأرثوذكس أن الكنيسة الأرثوذكسية لا تفرق بين نار أبدية ونار حالية. فالكنيسة الأرثوذكسية تفسر نص بولس الرسول على أنه يعني الحياة الأبدية، وأن أرواح الخطاة تدخل في مكان مظلم وحزين "حيث تعيش في أسى وتُعاقَب بالحرمان من النور الإلهي". إلا أنها تتطهر من خلال تضرعات وصلوات الكنيسة، ولا يحدث هذا التطهير من خلال أي نار موجودة، ولكن من خلال عمل الصلاة والتضرع وعمل الخير.

لقد ظهر على مدار المناقشات وجود خلافات بين الأرثوذكس واللاتين. الاختلاف الأول هو أن الأرثوذكس كانوا يتحدثون عن مكان للعقاب والحزن وليس عن نار، بينما كان اللاتين يتحدثون عن "عقاب وتطهير من خلال نار". ويتمثل الاختلاف الثاني في حقيقة أن الأرثوذكس قالوا أن نفوس الخطاة غير التائبين لا تأخذ عقابها الأخير الآن طالما أنهم هم أيضاً ينتظرون قيامة أجسادهم تماماً مثل نفوس القديسين التي تأخذ نعماً الآن "ولكن ليس بصورة كاملة". فهم سيأخذون النعم الصالحة بصورة كاملة عند قيامة الأجساد واتحادها بالنفوس مرة أخرى.

لقد كان اللاتين يقولون أن نفوس الخطاة لا تُعاقَب بصورة نهائية طالما أنهم هم أيضاً ينتظرون قيامة أجسادهم للعقاب الأبدي، على حين أن نفوس القديسين "حصلت على إكليل الكمال السماوي" إلا أنها ستتمتع أبدياً "عندما تلبس أجسادها"[44].

طلب اللاتين من الأرثوذكس أن يعطوهم آراءهم مكتوبة حتى يتسنى لهم التفكير فيها ومناقشتها فيما بعد. وفي الواقع، عُقِدَت أيضاً اجتماعات أخرى لمناقشة هذا الموضوع في الخامس والعشرين وفي السابع والعشرين من يونيو.

---

43 - Ibid. p. 487.
44 - Ibid.

لقد كان الموضوع الرئيسي لهذه الاجتماعات الأولى نص بولس الرسول الذي يتحدث عن الخلاص "كما بنار". واستند الأرثوذكس على تفسير يوحنا ذهبي الفم للنص، والذي سوف نراه في الفصل التالي عندما نستعرض تعاليم القديس مرقس عن نار المطهر بالتفصيل. على كل حال، عندما عاد اللاتين للمناقشة، أصروا على أن فعل "يخلُص" و"يُخلِّص" قيل عن الجيد وليس عن الرديء. لقد استشهدوا بالنصوص الكتابية التي يظهر فيها أن كلمة يخلُص تعني "الخلاص، والمعونة، والفداء من الأشرار، والحياة من جديد". مثل قول داود المميز: "يا إلهي! خلِّص أنت عبدك المتكل عليك"، بالإضافة إلى صرخة بطرس عندما كان يغرق "يا رب خلصني"[45]. ولكن الأرثوذكس عارضوا ذلك مستخدمين نصوصاً أخرى لها معنى آخر.

لم يُرِد الأرثوذكس في هذه المرحلة الأولى من المناقشات أن يوضحوا كل تعليمهم عن هذا الموضوع، "ولكنهم أرادوا فقط أن يطرحوا الأسئلة والأجوبة بالتوازي". فقد أرادوا بهذه الطريقة التطويل في أعمال المجمع "حتى يصل سفراء الملوك"[46]. فقد أرسل البطريرك مندوباً لملوك فينيسيا ليساعدوه على إرسال مندوب للقسطنطينية حيث كانوا في مأزق كبير. وهذا هو السبب الذي جعل الأرثوذكس يطيلون المناقشات دون أن يعبّروا عن آرائهم بصورة كاملة.

وعلى الرغم من ذلك، كان الأرثوذكس يناقشون فيما بينهم "إن كان القديسون يتلقون التنعمات بصورة كاملة أم لا". وقد تمت هذه المناقشات في السادس عشر من يوليو ١٤٣٨. فقد طلب منهم الإمبراطور التعبير عن آرائهم كتابةً، وفي الحقيقة كان هناك "جدلاً قوياً حول هذا الموضوع". وفي النهاية سادت فكرة "أن القديسين يتلقون، ولا يتلقون التنعمات بالكامل. فالأرواح كأرواح، تتلقى بصورة كاملة، ولكنها ستتلقى بصورة أكثر كمالاً عند القيامة واتحادها بأجسادها، وبعد ذلك ستضيء مثل الشمس، أو مثل النور الذي أشع من ربنا يسوع المسيح على جبل طابور"[47].

لقد استمرت المناقشات عن نار المطهر أيضاً في فلورنسا التي انتقل إليها مقر المجمع. إننا لا ننوي أن نبحث في هذا الفصل كل شيء نوقش هناك، ولكن ما قيل عن

---

45 - Ibid. p. 490.
46 - Ibid. p. 491.
47 - Ibid.

المطهر فقط، حيث كان هذا الموضوع أحد المواضيع التي نوقشت. لقد انتهوا في فلورنسا بتوصية يبدو أنها كانت استرضائية. فهذا الاقتراح ينص على أن "أرواح الأبرار، لكونها أرواح، حصلت بالفعل وبصورة كاملة على إكليلها السماوي، وأرواح الخطاة على العقاب الكامل، وأما المتوسطون فيوجدون في مكان للعذاب الذي هو إما نار، أو ظلمة، أو اضطراب، أو شيء آخر لا نعارضه".[48]

يعتبر هذا الاقتراح استرضائي، لأنه يبدو أن اللاتين عادوا ثانية إلى نفس الأشياء في مناقشاتهم. فقد قدم اللاتين نصاً مكتوباً، مقترحين على الأرثوذكس أن عليهم أن يقبلوه ويوقعوا عليه وبالتالي "فلندع الوحدة تتحقق". يتناول هذا النص موضوع نار المطهر على أنها نار موجودة، ويوجد بداخلها الذين تابوا واعترفوا. توجد في هذا النص جملة مهمة توضح الفرق بين اللاتين والأرثوذكس. لقد أصر اللاتين على أن فئة القديسين الذين لا يحتاجون للعبور على نار المطهر "يرون جوهر الله على الفور". وأكدوا بالمثل على أن كل الذين تطهروا بسبب دخولهم المطهر سوف يحسبون هم أيضاً مستحقين "لرؤية جوهر الله مباشرة"[49].

هنا قدم اللاتين وجهة نظرهم عن أن القديسين يرون جوهر الله، على حين أن التقليد الأرثوذكسي يميز بوضوح بين جوهر الله وقوى الله، ويقول بوضوح أن الإنسان يشارك في قوى الله غير المخلوقة وليس في جوهره. يتكلم تعليم مجمع فيرارا-فلورنسا عن وجود نار مطهرة مؤقتة تطهر الإنسان وتقوده للاشتراك في جوهر الله، وهذا التعليم يظهر أن الفكر اللاتيني ينادي بأن النار المطهرة هي نار مخلوقة وأن الإنسان يستطيع أن يشارك الله في جوهره. وعلى أية حال، نحن جميعاً نعي أن التعليم الأرثوذكسي ينادي بأن التطهير يأتي من قوى الله المطهِرة غير المخلوقة، وأن الاستنارة والاتحاد بالله هما المشاركة في قوى الله المنيرة والمؤلهة وليس في جوهره.

يبدو إذاً أن التعليم عن نار المطهر هو توحيد هرطوقي بين جوهر الله وقواه، وهذا يعتبر خطأً جوهرياً للاتين، وجنوحاً رئيسياً عن علم لاهوت الآباء. وفي الحقيقة لو قام أي شخص بفحص دقيق للاختلافات بين اللاتين والأرثوذكس فسوف يرى بوضوح أنها جميعاً تنصَّب في اختلاف واحد، وهو الحقيقة الخاصة بجوهر وقوى الله.

---

[48] - Ibid. p. 1004.
[49] - Ibid. p. 1005-1008.

لقد تم اقتراح بيان في المحادثات غير الرسمية بين الأرثوذكس واللاتين بحيث إذ يوقع عليه الطرفان تحدث الوحدة. وكان الأرثوذكس مستعدين لقبول عرض اللاتين عن النار المطهرة، ولكنهم لم يكونوا ليقبلوا وجهة نظرهم من جهة "جوهر الله وقواه". يقول التقرير اليوناني: "لقد كانوا يحاولون إجبارنا على قبول المكتوب، وأما نحن فلم نقدر أن نقبله حيث لم يكن لدينا أمراً إمبراطورياً"[٥٠].

لقد دارت العديد من المناقشات بخصوص نار المطهر. وعلى حين أنه تم التوصل لاتفاق من جهة مسائل أخرى، إلا أنهم بقوا مختلفين من جهة نار المطهر، ومن جهة تخصيص المواهب الإلهية. فقد قال الأرثوذكس عند نقطة معينة: "إننا غير منقسمين من جهة المطهر، ولا نحتاج لأن ننقسم"[٥١]. وقد أراد اللاتين أن يجعلوا شرط الاتفاق والوحدة هو موضوع المطهر. وكان هناك أعضاء للوفد الأرثوذكسي يريدون إضافة موضوع المطهر كشرط لإتمام الوحدة، إلا أن الإمبراطور كان معارضاً لذلك[٥٢]. وأخيراً تم وضع معاهدة تنص على أن الأبرار يؤخذون للسماء فور موهم، وأن الذين سقطوا في خطية للموت دون أن يتوبوا "يذهبون للجحيم مباشرة"، وأن أرواح الذين أخطئوا وتابوا دون أن يكونوا قد صنعوا أثماراً تليق بالتوبة "يتطهرون بعد الموت". ومن خلال صلوات الأحياء، والتقدمات، والتذكارات التي يصنعونها لهؤلاء الأموات فإنهم يخلصون ويتحررون من العقوبات[٥٣].

وبالطبع لم يقم القديس مرقس آفيانيكوس بالتوقيع على هذه المعاهدة، ولا بعض الذين اتفقوا معه، ولا أولئك الذين كانوا قد غادروا فلورنسا قبل ذلك. وفي النهاية، لم تتحقق "وحدة الكنائس" التي كان يسعى إليها مجمع فيرارا-فلورنسا، وفي الواقع كانت هذه بركة كبيرة للأرثوذكسية. لقد عارض الأرثوذكس هذه الوحدة، سواء كانوا من الإكليروس أو من عامة الشعب الذين كانوا يعيشون التقليد الأرثوذكسي، وبالتالي لم يقبلوا الأشياء التي تم التوقيع عليها بخصوص نار المطهر.

---

50 - Ibid. p. 1008.
51 - Ibid. p. 1010ff.
52 - Ibid. p. 1016.
53 - Ibid. p. 1029-1032.

من الجدير بالذكر أن مجمع القسطنطينية المنعقد سنة ١٧٢٢ أشار في منشور لأرثوذكس أنطاكية إلى موضوع نار المطهر من ضمن مواضيع أخرى. إنه نص مجمعي مهم جداً وذو قيمة كبيرة.

فهو ينص على أنه على الرغم من أن اللاتين يؤكدون على وجود ثلاثة أماكن تذهب إليها أرواح الأموات، "إلا أننا نحن الأتقياء المتبعين الحق والمعرِضين عن مثل هذه الابتداعات، نعترف ونقبل بوجود مكانين لأرواح الأموات وهما الفردوس والجحيم، للأبرار والأشرار، كما يعلمنا الكتاب المقدس. إننا لا نقبل بأية وسيلة بوجود مكان ثالث، أي مطهر، حيث أنه لا الكتاب المقدس ولا الآباء القديسين علمونا هذا الأمر. وعلى أية حال، نحن نؤمن بوجود عدة منازل لهذين المكانين. لم يتناول ولا واحد من معلمي الكنيسة موضوع المطهر ولا علَّم بمثل هذا، ولكنهم تكلموا جميعاً عن مكان واحد وحيد للعقاب وهو الجحيم، ومكان واحد منير ساطع وهو الفردوس ؛ ولكن لكل من المكانين منازل كثيرة كما قلنا. وحيث أنه لا مجال للجدل أن أرواح القديسين الأبرار تذهب للفردوس، وتذهب للجحيم أرواح الأشرار، الذين منهم النجسون، والذين أخطئوا بدون غفران حيث يعاقبون للأبد. وأما أولئك الذين أخطئوا خطايا قابلة للغفران فلهم رجاء في الحصول على الغفران من خلال رحمة الله غير المعبر عنها. وتوجد في الكنيسة صلوات وتضرعات وليتورجيات، بالإضافة إلى تذكارات وصدقات تقدم لصالح هذه الأرواح التي أخطأت خطايا قابلة للغفران حتى تحصل على نياح وراحة. وهكذا عندما تصلي الكنيسة لأجل أرواح الراقدين، فإننا نترجى حصولهم على راحة من الرب، ولكن ليس من خلال النار والمطهر، ولكن من خلال محبة الله لبني البشر التي من خلالها يظهر صلاح الله اللامتناهي"[٥٤].

نستوضح مما قيل وجود نقطتين مهمتين في تعليم اللاتين عن نار المطهر تجعلانه مختلفاً عن التعليم الأرثوذكسي. الأولى هي أن نار المطهر تختلف عن نار جهنم الأبدية ، وهذا المفهوم ليس له وجود لا في الكتاب المقدس ولا في التقليد الآبائي. والنقطة الثانية هي أن "نار المطهر" مخلوقة طالما أنهم يقولون أن الناس يحصلون على رؤية جوهر الله من

---

[54] - John Romanides: Texts of dogmatic and symbolic theology, ed. Pournaras, Thessaloniki 1972, p. 574-576.

خلال نار المطهر، وحيث أن تعليم اللاتين يوحد بين الجوهر والقوى (فهم يتكلمون عن قوى نقية وعن قوى مخلوقة).

سوف نرى فيما يلي على أية افتراضات يستند تعليم اللاتين هذا، وما هي نتائج هذا على الحياة الروحية. يجب علينا على أية حال أن نلاحظ أن هذا التعليم يختلف بوضوح عن علم لاهوت آباء الكنيسة.

٢- تعليم القديس مرقس آفيانيكوس عن نار المطهر

كان القديس مرقس مطران أفسس أحد رؤساء مجمع فيرارا-فلورنسا المعبرين عن التعليم الآبائي الأرثوذكسي في كل الموضوعات. ومن يدرس تعليمه يقتنع بوضوح أنه يعبر عن التعليم الأرثوذكسي، وبصفة رئيسية هو تعبير عن علم اللاهوت الخاص بالقديس غريغوريوس بالاماس. ومن هذا المنطلق نستطيع أن نرى قيمة علم اللاهوت الخاص به.

لقد كان أمراً طبيعياً بالنسبة له أن يهتم بالنار المطهرة، وأن يعبر عن وجهات نظر الأرثوذكس في هذا الموضوع. وحيث أن ما قاله مهم وله علاقة بالعديد من المسائل اللاهوتية المرتبطة به، فإننا سوف نتناول هذه الأقوال بتحليل شامل.

إن الأشياء التي سوف نتناولها بالتحليل مأخوذة من عظتين للقديس مرقس تم حفظهما (عظات كان قد ألقاها في المناظرات في مجمع فيرارا)، بالإضافة إلى بعض الفصول التي تلخص تعليمه التي رفض فيها تعليم اللاتين عن وجود نار مطهر.

تحمل العظة الأولى عنوان: "تفنيد فصول اللاتين التي اقترحوها عن نار المطهر للمبجل جداً مرقس آفيانيكوس مطران أفسس"[٥٥]. ومن الواضح أن هذه هي مقالة كتبها القديس مرقس مباشرة بعد أن تم وضع الموضوع، ولكن بعد أن كان أمر الإمبراطور قد صدر بالفعل. وأما عنوان العظة الثانية فهو: "دفاع ثانٍ موجه للاتين يبين أيضاً التعليم الحقيقي الذي لكنيسة اليونانيين للحكيم العظيم العالم مرقس، نبيل أفسس"[٥٦]. وأما الفصول فعنوانها: "عشرة اعتبارات تظهر أنه لا توجد نار مطهر"[٥٧].

---

[55] - Patrologia Orientalis vol. 15, pp. 39-60.
[56] - Ibid, p. 108-151.
[57] - PO vol. 17. p. 284-287.

في الواقع من الصعب تقديم كل تعليم القديس مرقس عن هذا الموضوع بطريقة تحليلية. فسوف نحتاج معالجة خاصة لكي نحلل كل الآراء. وعلى أية حال، سوف أحاول فيما يلي أن أبين الأوضاع العامة التي أخذها القديس من جهة نار المطهر محاولاً ألا أشوه محتواها. إنني أعتبر ذلك مهماً لأننا للأسف لا نعلم سوى القليل عن موضوع نار المطهر. كما أن الموجود لا يعبِّر بصفة كاملة عن وجهة النظر الأرثوذكسية في هذا الموضوع.

(أ) الحاجة إلى مناقشة عقائدية

ركَّز القديس مرقس في عظته الثانية على تقصي عبقري للأفكار العقائدية التي هي موضع شك. فقد كتب بصورة متميزة: "توجد حاجة حقيقية لبحث ومناقشة أكثر لكل ما هو شائك في العقائد، كما توجد حاجة لكلمات صارمة وأصيلة في كل حالة"[٥٨].

يجب أن يكون البحث في المواضيع العقائدية الشائكة مصحوباً بالحق، وبلا خداع، ومستعملاً البراهين الدامغة باستمرار. فمثل هذه المناقشة ستكون مفيدة جداً لأن الحقيقة ستعلن[٥٩]. ومن الطبيعي أن يصر القديس على أن الفائدة ستكون عظيمة لو أن كلا الطرفين عمل على البحث عن الحقيقة وليس على النزاع، ولو كانا غير مهتمين بالفوز بأية وسيلة، بل بأن يكونا قادرين على الاحتمال وقابلين للهزيمة بروح طيبة[٦٠]. لقد كان هذا عتاباً للاتين الذين كانوا يسلكون بطريقة عكسية تماماً. فهم لم يكونوا يطلبون الحقيقة عن نار المطهر، ولكنهم كانوا ببساطة يفرضون آراءهم عن هذا الموضوع وعن مواضيع أخرى.

يشير القديس مرقس للمجمع الرسولي الذي أقيم ليحدد ما إذا كان ينبغي على المسيحيين الأمميين أن يختتنوا. ويركز بالأخص على المناقشة التي حدثت بين الرسل، وعلى الوفاق الحادث في اجتماعهم، ويقول أنهم هم أنفسهم تعين عليهم في هذه المحادثات أن يسعوا للسلام والوفاق حتى ولو كان عليهم أن يخوضوا في مثل هذا النقاش[٦١].

---

58 - PO. Vol. 15, homily 2, p. 108.
59 - Ibid.
60 - Ibid.
61 - Ibid. p. 108f.

ينبغي إذاً أن تناقَش العقائد بهذه الطريقة عندما يكون هناك اهتمامـــاً بالســلام والوفاق. ولكن إذا ساد النـــزاع ومحاولة فرض كل رأي، فلن تُجنَى أية فائدة. إن هذا الاعتدال هو أمر ضروري لكل مناقشة عقائدية. لأنه إن لم يعمل الروح القدس، وإن لم يسُد السلام أثناء المناقشات، فسيكون من المستحيل الوصول للحقيقة.

(ب) الفردوس والجحيم موجودان

إن السبب الذي أدى إلى مناقشة موضوع الفردوس والجحيم هو أن تعليم اللاتين عن نار المطهر يرتبط بهذا الموضوع.

فالقديس مرقس يستبعد وجود نار مطهر مستنداً على مثل الرجل الغني ولعــازر الذي قاله السيد المسيح. فروح لعازر موجودة في حضن إبراهيم، على حــين أن روح الرجل الغني موجودة في الجحيم. وكما يقول القديس مرقس فإن الرب يستعمل في هذا المثل تعبير حضن إبراهيم لكي يشير إلى "النهاية السعيدة جداً لأصدقاء الله"، كما أنـه استعمل كلمة جحيم ليوضح "الدينونة الأخيرة للمعذبين والعقاب الأبدي للخطــاة". وبالطبع في هذا المثل "لم يُشِر السيد المسيح إلى وجود مكان آخر بين هــذين المكــانين خاص بعذاب مؤقت". وكنــتيجة لذلك نقول أنه يوجد فردوس وجحيم، ولا يوجــد مكان آخر مؤقت للعذاب. بالإضافة إلى ذلك، وبحسب هذا المثل، توجد هوة عميقة بين الفردوس والجحيم[٦٢].

لا يوجد أي موضع في الكتاب المقدس يوضح أنه يوجد بعد خروج الروح مــن الجسد مباشرة فردوس وجحيم ونار مطهر. فعندما تتحرر روح شخص ما من جســده لكي تصير غير جسدية وغير مادية "يكون من غير المنطقي أن تتعذب بنار مادية" طالمــا أن جسدها يكون قد تحلل. ولكن بعد القيامة، عندما تعود روحه لجسده غير الفاســد ثانية، وعندما تتغير كل الخليقة، وبعد أن تنقسم النار، بمعنى أن ضوءها ونارها ينفصلان فعندئذ فقط سوف يذوق الشخص الجحيم الأبدي، تماماً مثل الشياطين، لأنهم هم أيضاً لديهم بعض المادة والكثافة ولديهم أجسام هوائية ونارية[٦٣].

---

[62] - Ibid. vol. 15, Homily 1, p. 58.
[63] - Ibid. p. 58ff.

لا يوجد إذاً سوى فردوس وجحيم، ولا شيء بينهما. وتبدأ علامتهما في الظهور عند رحيل الروح من الجسد.

إنه أمر صحيح أن الكتاب المقدس يتكلم عن الجحيم قبل تجسد السيد المسيح، وقبل هزيمة الموت بواسطة ذبيحة السيد المسيح على الصليب. ولكن لا يمكن التوحيد بين الجحيم الموصوف في الكتاب المقدس ونار المطهر الخاصة باللاتين. **فالجحيم هو مكان عقلي لأن الأرواح ليس لها شكل**[٦٤]. تبقى أرواح الأبرار في الجحيم حتى مجيء المخلص وذلك ليس إلا بسبب الخطية الجدية "وليس كما في نار وعذاب بأي شكل من الأشكال، ولكن كما في أسر وسجن"[٦٥]. لا يتعلق الأمر إذاً بنار مطهرة كما يعلم اللاتين.

لابد إذاً أن يوجد بشكل ما ارتباط وثيق بين التعليم المنادي بوجود نار مؤقتة بين الفردوس والجحيم، والتعليم المنادي باستعادة كل الأشياء طالما أنه يزرع التراخي في الشخص الكسول. لقد علَّم أوريجانوس باستعادة كل الأشياء، وبانتهاء الجحيم الأبدي، وقد تسلل هذا التعليم إلى الكتابات الأولى للكنيسة أيضاً. ولكن هذا التعليم تم رفضه وتحريمه من قِبَل المجمع المسكوني الخامس، لأنه يجعل الكسالى أكثر كسلاً طالما أنهم اعتمدوا على الإفراج عنهم من العذابات. بنفس الطريقة ينبغي على الكنيسة شجب التعليم المنادي بنار المطهر طالما أنه يدعم الانطباع بأن الجهاد ليس ضرورياً في الحياة الحاضرة طالما أنه سيكون هناك تطهيراً آخر. "هذه هي إذاً الأسباب التي تجعل الكنيسة ترفض العقيدة المقترحة المنادية بنار المطهر، إذ أنها تجعل الأشخاص الجادين كسالى وتقنعهم بألا يجاهدوا بأية وسيلة ليطهروا أنفسهم في الحياة الأبدية طالما أنهم يتوقعون تطهيراً آخر"[٦٦].

يقول القديس مرقس في تحليله لموضوع الفردوس والجحيم معبراً أيضاً عن تعليم الكنيسة أنه لا الأبرار يقتنون هذه الحالة السعيدة بصورة كاملة بعد الموت، ولا الأشرار يقادون للعذاب الأبدي حيث سيتعذبون إلى الأبد، ولكن كلاً من هذه الأشياء "سيحدث بالضرورة بعد الدينونة في اليوم الأخير وقيامة الجميع". أما في الوقت الحالي،

---

64 - Article on intermediate state of souls, Encyclopedia of religion and ethics, vol. 8, p. 1014 (GK).
65 - Mark, Archbishop of Ephesus: Homily 1, PO 15, p. 59.
66 - Ibid. p. 60.

فكل من الأبرار والأشرار "موجودون في الأماكن المناسبة لهم". فالأبرار موجـــودون في السماء مع الملائكة في راحة كاملة وحرية ولهم عربون ملكوت السموات، على حين أن الخطاة مغلق عليهم في الجحيم ومنــتظرين في عدم راحة وحزن بلا تعزية مثل الشخص المدان المنــتظر حكم القاضي متوقعاً عذاباً أبدياً[٦٧].

يظهر من خلال تعليم القديس مرقس أنه لا توجد حالة متوسطة للأرواح كمــا يصر اللاتين على وجود مكان متوسط بين الفردوس والجحيم، هو نار مطهــرة. إلا أنــه يدعم فكرة وجود حالة متوسطة للنفوس من منظور أنه بعد خروج الأرواح من الجســد، تنــتظر البارة منها نعيم الفردوس الأبدي، والشريرة منها تنــتظر الحكم النهائي للقاضي بالعذاب الأبدي. ولكن يكون تمتع الأبرار برؤية الله بعد خروج الروح من الجسد أكثــر عمقاً من رؤيتهم له في الحياة الحاضرة. إنه يكتب أنه بعد الموت يتمتع البــار برؤيــة الله المباركة "والنور الساطع منه بصورة أكثر كمالاً ونقاءً مما تمتعوا به في خبرتهم السابقة"[٦٨].

ولكي يدعم القديس مرقس وجهة النظر هذه، استعمل نصوصاً مــن الكتــاب المقدس ومن آباء الكنيسة. ففي الدينونة الأخيرة التي ستكون بعد المجيء الثاني للمســيح سوف يسمع الأبرار الكلمات: "تعالوا إليّ يا مباركي أبي ورثوا الملك المعد لكم". هذا يعني أنهم لن يكونوا قد ورثوا بعد هذا الملك بعد رحيل أرواحهــم مــن أجســادهم. بالإضافة إلى أنهم لو كانوا قد ورثوه فلم يكن هناك داعٍ لقيامة أجســادهم، ولمجــيء الديان، ولحدوث الدينونة العامة المخيفة[٦٩].

وعلى نفس المنوال أيضاً، يكتب بولس الرسول: "لأنه لابد أننا جميعاً نظهر أمام كرسي المسيح لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما يصنع خيراً كــان أم شــراً" (٢كو٥: ١٠).وهذا يعني أنه قبل كرسي الدينونة، وقبل ظهورنا أمام المسيح وخصوصاً بعد أن تعيش الروح بدون الجسد لن يحصل أي أحد "على ما يستحق جزاء ما عملــه حينما كان في الجسد"[٧٠].

---

[67] - Ibid. Homily 2, p. 109f.
[68] - Ibid. p. 110.
[69] - Ibid. p. 112.
[70] - Ibid. p. 113.

لقد سؤل أثناسيوس العظيم عما إذا كان الأبرار يتمتعـون بـالنعيم والأشـرار بالجحيم بعد خروج الروح من الجسد فأجاب: "ليس بصورة كاملة، ولكن هذا الفرح الذي يعيشه القديسون الآن هو تمتع جزئي، تماماً كما أن الحزن الذي يشعر به الخطاة هو نعيم جزئي"[71].

ويضع القديس مرقس استنتـاجاً بقوله أنه لا الأبرار يتمتعون بالصالحات الأبدية بصورة كاملة، ولا الأشرار يتلقون العقاب الكامل ويرسَلون إلى جهنم. بالإضـافة إلى أنهم قبل قيامة أجسادهم يكونون غير كاملين "كما لو كانوا مشطورين إلى جزئين، أي بدون جسد". إنهم لن يتلقوا جوائز ومكافئات جهاداتهم إلا بعد دخول أرواحهـم في أجسادهم غير الفانية[72].

لا يوجد إذاً نار أخرى مطهرة مخلوقة تتوسط بين الفردوس والجحـيم اللـذين يذهب إليهما الأبرار والخطاة مباشرة بعد رحيل الروح من الجسـد. فهـذه العقيـدة اللاتينية الخاصة بوجود نار مطهرة مخلوقة لا يمكن أن يدعمها تقليد الكنيسة.

(جـ) لا وجود لنار مطهرة

ليس ما قيل هو البرهان الوحيد على عدم وجود نار مطهرة. فالقديس مـرقس حامل التقليد الأرثوذكسي يدحض نظريات اللاتين ببراهين دامغة، ويظهر وجهة نظـر الأرثوذكس في هذا الموضوع.

إنه يتمسك أولاً بأنه لا يوجد أي موضع في الكتاب المقدس أو في التقليد الآبـائي يتحدث عن وجود نار مطهرة. لكن حيثما توجد إشارة لهذا الموضوع، يكون الحديث عن نار غير مخلوقة وأبدية سوف يتذوقها الخطاة بعد المجيء الثاني للمسيح. إننا سوف نتحدث عن ذلك باستفاضة، ولكن يجب علينا هنا أن نشير إلى أن تعليم اللاتين عن وجـود نـار مطهرة قبل المجيء الثاني للمسيح هو تعليم غير مدَعَم وغير مثبت في الكتاب المقدس.

إن وجهة النظر المنادية بأنه من الممكن للأرواح أن تتحرر من الخطية عن طريق عقوبات مطهرة في نوع من النار المؤقتة "لم يعبَّر عنها كتابـةً لا في صـلوات، ولا في

[71] - Ibid. p. 111.
[72] - Ibid. p. 114.

تسابيح، ولا في أقوال المعلمين"[٧٣]. وعلى الرغم من استشهاد اللاتين ببعض النصوص في هذا الموضوع، إلا أن هذه النصوص مفسَرة بطريقة خاطئة ومتداخلة. بمعنى أنها فُسِرَت بتقليد تفسيري مغاير كما سوف نرى بصورة أكثر تحليلاً فيما يلي.

يستطيع المرء أن يجد في النصوص الآبائية أن أولئك الذين أخطئـوا و لم يتوبـوا "يُعاقَبون على وجه الخصوص"، ولكن ليس أنهم أُلقوا في جهنم. تتكلم نصوص الكتاب المقدس والآباء عن حزن أولئك الذين هم في الحالة المتوسطة حيث يؤدَبون ويعـاقَبون إما بخزي وعذاب الضمير، أو بالندم، أو بالقيود والظـلام، أو بـالخوف والتشـكك من جهة المستقبل، أو حتى بتأجيل رؤية الله وذلك بحسب ما فعلوه. ولكـن لا يوجـد مطلقاً أي قول عن نار "جسدية معاقِبة، ومطهرة للأرواح العديمة الأجساد"[٧٤]. فلم يقم أي من الآباء بتفسير هذه النصوص من الكتاب المقدس على أنها تدل على النار المطهرة التي يعلم بها اللاتين[٧٥].

يقول الرب في العظة على الجبل أن أياً من يقول لأخيه يا أحمق "يكون مستوجباً نار جهنم". ويشرح القديس مرقس أن الرب لم يعهد به إلى "المطهر ولكـن إلى نـار جهنم". إنه على أية حال سوف يقدم حساباً عن كل كلمة بطالة "في وقت الدينونـة، ولكن الرب لم يُعَلِّم أن المرء يتطهر بنار"[٧٦].

يقول الكتاب المقدس أن رؤية الله هي مكافأة عظيمة لأولئك الذين طهروا قلوبهم وذلك بحسب قول السيد المسيح: "طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله"(مـت٥:٨). من الطبيعي أن يكون هناك أعماق من رؤية الله تتناسب مع أعماق التطهير. من أجـل ذلك، لا يكون للجميع نفس عمق التطهير، وبالتالي ليس هناك حاجة إلى نار مطهرة لو كان التطهير في البعض غير كامل. يـبدو في الكتاب المقدس بوجه عام أن "الأقل تطهراً سوف يرى الله أقل". فالناس يرون الله بحسب عمق التطهير. هذا هو السبب الذي يجعل وجود تطهير آخر بعد الرحيل من هذه الحياة غير ضروري[٧٧].

---

[73] - Ibid. Homily 1, p. 40.
[74] - Ibid. Homily 2, p. 118.
[75] - Ibid. p. 133.
[76] - Ibid. p. 150.
[77] - Ibid. p. 144f.

لا يوجد إذاً أية أقوال مباشرة في الكتاب المقدس تشير إلى وجود نار مؤقتة مطهرة بعد رحيل الروح من الجسد. ولا يوجد أي توافق بين تعليم اللاتين الجديد هذا، وبين روح الكتاب. لا وجود إذاً لنار مطهرة بين موت أي إنسان والمجيء الثاني للمسيح.

(د) البراهين اللاهوتية المناهضة لوجود نار مطهرة

إن عظات القديس مرقس آفيانيكوس عن موضوع نار المطهر غنية جداً، ومن الطبيعي أن يكون تقديمها في هذا التحليل الموجز لتعليمه أمراً صعباً إذ أننا سنحتاج لاختصارها وتجزئتها. ولكن على الرغم من صعوبة تقديم التعليم الكامل للقديس مرقس، فنحن نحاول ألا نشوهه، بل أن نفحص آراءه العامة التي تخص الموضوع الذي نتناوله الآن.

في نهاية عظته الأولى وضع القديس مرقس، كاستنتاج، الأسباب التي تجعل وجود نار مطهرة أمراً مستحيلاً كما يفهمها اللاتين على أنها نار مخلوقة ومؤقتة وتتوسط بين الموت والمجيء الثاني للمسيح. وهذه الأسباب هي كالتالي:

أولاً، طالما أن الاشتياق لله، أي هذا الحب ذاته، يطهر الناس ويجعلهم مشابهين لله فلماذا لا يمكن أن يحدث نفس الشيء أيضاً بعد الموت؟ ألا يستطيع هذا الحب أن يطهرهم من الآثام الصغيرة دون الحاجة لمثل هذه النار المطهرة؟

ثانياً، يتعلق الأمر بصلاح الله، وليس بفحص أعمال الخير الصغيرة أو معاقبة الخطايا الصغيرة. ولكن الخير الصغير الموجود وسط شرور عظيمة لا يُكافأ، كما أنه ليس من الضروري أن الشر القليل الذي فعله أولئك الذين حققوا أشياءً عظيمة يأتي إلى الدينونة. هذا هو السبب الذي ينفي الحاجة لوجود نار مطهرة.

ثالثاً، لا يمكن أن يُكافأ الخير القليل الموجود في الخطاة، ولكنه يغير من شكل عقابهم. وهذا بعينه ما يحدث مع القديسين، فالشر القليل الموجود فيهم لا يجلب لهم العقاب ولكنه يؤثر على نعيمهم. وبالتالي طالما أنه هناك تأثير على نعيم الأبرار وتغيير في عقاب الخطاة فما الحاجة إذاً لوجود نار مطهرة؟

رابعاً، كنتيجة للنقاط السابقة، تحدث رؤية الله لكل الناس بالتساوي، ولكن تعتمد هذه الرؤية على الفرق بين تطهيراتهم وعمقها. بالتالي فإن الذين يكون تطهيرهم غير كامل "لا يحتاجون لنار مطهرة".

خامساً، يعلن القديس غريغوريوس اللاهوتي في عظة عيد القيامة بطريقة واضحة ومعبرة أنه لا وجود لتطهير "بعد هذا الليل". بمعنى أنه لا تطهير بعد هذه الحياة التي توصَف بأنها ليل.

سادساً، يقول القديس غريغوريوس في عظته أن الأفضل بالنسبة لنا أن نطهر أنفسنا هنا لئلا نُرسَل لعذاب جهنم لأن هذا هو "وقت العذاب وليس وقت التطهير". يبدو إذاً بوضوح أنه لا تطهير بعد رحيل الروح من الجسد ولكن فقط جهنم أبدي.

سابعاً، في مثل الغني ولعازر، لم يذكر المسيح مكاناً مؤقتاً بين الفردوس والجحيم "ولكن هوة عميقة لا يمكن عبورها بينهما" تمثل تضاد مباشر وحاد.

ثامناً، من المستحيل أن تُعاقَب الروح غير المادية والعديمة الجسد بطريقة مادية أي بنار. هذه النار الأبدية ستوجد بعد المجيء الثاني للمسيح ، وبعد قيامة الجسد غير الفاني.

تاسعاً، لم يكن الجحيم الذي نزلت إليه أرواح قديسي العهد القديم في صورة نار، ولكنه كان في صورة أسر وسجن. وبنفس الطريقة ستكون أرواح الذين أخطئوا خطايا متوسطة " في نفس هذا النوع من الجحيم بعد الموت. بمعنى أن أولئك الذين أخطئوا قليلاً سوف يعيشون في سجن حتى المجيء الثاني للمسيح، وهم منتظرون الدينونة الأخيرة حين يبدأ جهنم. هذا هو السبب الذي ينفي الحاجة لنار مطهرة.

عاشراً، إن الآباء القديسين الذين عاشوا حياة ملائكية على الأرض ورأوا رؤى وأحلاماً بخصوص العذاب الأبدي للخطاة والملحدين، مثلما هو موصوف في مثل الغني ولعازر، "لم يحكوا أبداً عن وجود نار مؤقتة مطهرة".

حادي عشر، يجب شجب عقيدة نار المطهر لأنها تقود الناس لأن يكونوا غير مبالين وغير مجاهدين في الحياة الحاضرة لكي يتطهروا، منتظرين تطهيراً مستقبلياً. تماماً مثلما شُجِبَت عقيدة استعادة كل الأشياء لأن لها نفس التأثير[٧٨].

لقد وضع القديس مرقس نفس البراهين أيضاً في قياساته المنطقية عن عدم وجود نار مطهرة شارحاً لماذا لا نستطيع قبول وجود مثل هذه النار المؤقتة والمخلوقة. تتركز براهين القديس في هذه القياسات على ثلاثة نقاط فقط:

---

[78] - Ibid. Homily 1, pp. 56-60.

الأولى، أن كل الكتاب المقدس وتقليد الكنيسة يعلمان بوجود فرق في رؤية الله بحسب درجة تطهير الشخص في هذه الحياة. فالذي تطهر أكثر يرى مجد الله بصورة أكثر كمالاً. فدرجة رؤية الله تتناسب مع درجة التطهير. وحتى الشخص قليل الخطايا "يستطيع هو أيضاً أن يرى الله دون أي احتياج لنار مطهرة"، لأن محبة الله لبني البشر كافية، ولكنه بلا شك يرى الله بدرجة نسبية. إلا أن التعليم الخاص بنار المطهر يلغي الاختلافات في التمتع برؤية مجد الله. إذ أنه لو مر أشخاص هذه الفئة خلال نار المطهر فستكون نتيجة ذلك أن كل أرواح الأبرار "ستكون في نفس الدرجة من رؤية الله أي من النعيم". ولكن هذا خطأ لأن المسيح قال أن في ملكوت أبيه "منازل كثيرة"(يو١٤: ٢).

البرهان الثاني، هو أنه من المستحيل أن تتغير إرادة إنسان بأي نار مطهرة بعد رحيله من هذه الحياة. "فحركة الإرادة والأعمال محصورة فقط في الحياة الحاضرة". من الممكن أن تتغير إرادة الإنسان طالما هو موجود في هذه الحياة، إلا أنها تبقى بلا حركة بعد الموت "وعندئذ يتلقى المكافأة أو العقاب عن هذه الأشياء وليس عن دخوله المطهر". وحيث أن الإرادة المستقيمة مطلوبة للحصول على النعيم، وحيث أن المطهر لا يستطيع تحويل الإرادة من الشر إلى الخير، وحيث أن هذا يكون بحسب الطريقة التي عاش بها الشخص في حياته الأرضية، لا يستطيع المطهر إذاً أن "يساهم في أي شيء" من جهة النعيم. هذا أيضاً يعني أن الناس لا يستطيعون التطهر بأي مطهر.

البرهان الثالث، هو أنه كما يوجد درجات في التنعم بملكوت السموات توجد أيضاً درجات للعقاب. وكما قلنا من قبل، لا يمكن مكافأة الخير القليل الذي للخطاة "إلا أنه يستطيع حينئذ أن يحصل على عقاب مختلف". وبالتالي حتى الشر القليل الموجود لدى البار "لن يدخله جهنم ولكنه سيؤثر على درجة تنعمه". من أجل ذلك من غير الممكن أن توجد نار مطهرة كما يدعي اللاتين[٧٩].

(٥) تفسير نص رسولي

يستعمل اللاتين العديد من النصوص الكتابية ليدعموا الإيمان بنار المطهر. وهذا هو السبب الذي جعل القديس مرقس يقدم في هذه العظات، التي تعارض هذا الإيمان

---

[79] - Ibid. PO vol. 17. pp. 284-287.

والتي استُخدِمَت في مجمع فيرارا-فلورنسا، تفسيراً لهذه النصوص الكتابية ويوضح أن اللاتين أساءوا حقاً تفسيرها لكي يدعموا تعليمهم الجديد.

إن النص الرئيسي الذي اعتمدوا عليه هو نص من رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس يتحدث فيه عن امتحان العمل بنار. يكتب الرسول قائلاً: "ولكن فلينظر كل واحد كيف يبني عليه. فإنه لا يستطيع أحد أن يضع أساساً آخر غير الذي وضع الذي هو يسوع المسيح. ولكن إن كان أحد يبني على هذا الأساس ذهباً فضة حجارة كريمة خشباً عشباً قشاً فعمل كل واحد سيصير ظاهراً لأن اليوم سيبينه. لأنه بنار يستعلن وستمتحن النار عمل كل واحد. إن بقي عمل أحد قد بناه عليه فسيأخذ أجرة. إن احترق عمل أحد فسيخسر وأما هو فسيخلص ولكن كما بنار" (١كو٣ :١٠-١٥).

يقول القديس مرقس أنه على الرغم من أن هذا النص يقدم لنار مطهرة إلا أن "الغالب أنه يستبعدها". يظهر ذلك في الكلمات التالية. أولاً، يدعوها بولس الرسول ممتحنة وليست مطهرة. ثانياً، سوف تعبر كل الأعمال حتى الصالحة والثمينة خلال النار. مما يعني أنه لا يحتاج الجميع لتطهير. ثالثاً، يقول بولس الرسول أنه على حين أن عمل الأشرار سوف يحترق إلا أنهم هم أنفسهم سيعانون الخسارة، ولكن اللاتين يفسرون ذلك بأن المتطهر سوف يربح. رابعاً، الأشياء التي يقولها الرسول سوف تحدث في وقت الدينونة وفي الدهر الآتي، ولا تتعلق بأي نار مطهرة بين الفردوس والجحيم. بالإضافة إلى ذلك لا يوجد أي شيء في الكتاب المقدس يقول ذلك. وفي الواقع كان المسيح واضحاً عندما قال: "فيمضي هؤلاء إلى عذاب أبدي والأبرار إلى حياة أبدية" (مت ٢٥:٤٦).

وبالتالي فإن الأمر يتعلق بصورة رئيسية بنعمة الله غير المخلوقة التي تنير الأبرار وتحرق الخطاة. يتفق هذا أيضاً مع نصوص الكتاب المقدس التي يقدمها القديس مرقس للمقارنة. يقول داود النبي: "نار قدامه تأكل وحوله عاصف جداً"(مز٥٠:٣). وأيضاً: "قدامه تذهب نار وتحرق أعداءه حوله"(مز٩٧:٣). ويكتب دانيال النبي:"نهر نار جرى وخرج من قدامه"(دا٧: ١٠).

والأهم في ذلك على وجه الخصوص عبارة بولس الرسول: "إن احترق عمل أحد فسيخسر وأما هو فسيخلص ولكن كما بنار". فالقديس مرقس يقول في تفسير هذه العبارة أن العمل الذي سيحترق وسيختفي نهائياً إلى الأبد هو نية أو فعل شرير. تعود

كلمة "سيخسر" على أعمال الشر التي يحملها الأشرار، وكلمة "سيخلص" تعني حفظهم. فقوله "سيخلص" يعني أنه سيبقى سجيناً إلى الأبد ولن يفنى بواسطة الشر[٨٠].

هذا يعني أن نعمة الله سوف تحفظ الخطاة أيضاً فيستعيدون طبيعتهم بحيث يبقون هم أيضاً إلى الأبد في جهنم. بالتالي يكون المقصود من الخلاص هنا هو الحفظ.

إن تفسير القديس مرقس آفيانيكوس هذا ليس تفسيراً عشوائياً ولكن يعلّم به أيضاً آباء الكنيسة القديسون. يشير القديس مرقس إلى تفسير القديس يوحنا ذهبي الفم وتعليم القديس باسيليوس الكبير عن نار الدهر الآتي.

فالقديس يوحنا ذهبي الفم، الذي هو "فم" بولس الرسول كما أن بولس الرسول هو "فم" المسيح، يفسر عبارة بولس الرسول تلك: "أن الخاطئ سيخلص ولكن كما بنار" على أنها تعني أنه سوف يبقى معذباً في النار ولن يفنى مع أعماله الشريرة[٨١]. يرتبط هذا بالتعليم الأرثوذكسي المنادي بأن الإنسان هو شخص، وأنه من المستحيل أن يتحول إلى لا وجود وإلى عدم، وأن المسيح بقيامته أعطى لكل الناس، أبرار وأشرار، نعمة القيامة التي ستحدث عند مجيئه الثاني، وأنه سيكون هناك استعادة للطبيعة وليس للإرادة، وأنه على حين سيتمتع الأبرار "بالنعيم الأبدي" فإن الأشرار سيحظون "بالشقاء الأبدي".

يفسر القديس باسيليوس الكبير قول الكتاب "صوت الرب يقطع لهب نار" (مز٢٩ :٧) قائلاً أنه طالما أن للنار خاصيتان: إنارة وحرق، فإن صوت الله سوف يقطع خلال هذه النار "بحيث تكون نار جهنم بدون نور الشمس، على حين يبقى نور الراحة"[٨٢].

يقدم القديس مرقس نص القديس باسيليوس الكبير ويقول أن أعمال الأبرار الساطعة المنيرة تظهر أكثر سطوعاً، وسيرث الأبرار النور. أما الخطاة فسيتكبدون خسارة باحتراق أعمالهم على حين أنهم "سيرثون خلاصاً أسوأ من الفناء وذلك ببقائهم في النار إلى الأبد (لأن هذا هو المعنى المقصود بكلمة "سيخلص") لئلا يظنوا أن النار المدمرة سوف تفنيهم تماماً"[٨٣]. وفي نفس الوقت يقول القديس مرقس أنه لو فهم أي مفسر

---

80 - Ibid. PO vol. 15, Homily 1, pp. 45ff.
81 - Ibid. p. 47.
82 - Ibid. p. 47.
83 - Ibid. p. 48.

كلمة خلاص على أنها التخلص من الجحيم، وأن الذهاب خلال النار يعني التطهير فإنه "قد فهم هذا النص بطريقة خاطئة تماماً"[٨٤].

يرى القديس مرقس آفيانيكوس أن تفسير القديس يوحنا ذهبي الفم هو الأهم، ويتفق معه على ذلك معلمو الكنيسة. يكون إذاً بذلك تفسير ذهبي الفم "هو الأكثر دقة وصحة"[٨٥]. إنه يقوم هو نفسه في إطار هذا المرجع بإضافة تفسير مرتبط بالأحداث التي حدثت في كورنثوس، وأعطت الفرصة لبولس لكي يقول هذه الكلمات.

يتمسك القديس مرقس آفيانيكوس بأن بولس الرسول في هذه الحالة يشير إلى مسيحي كورنثوس الذي سقط في الزنا. لقد كان واحداً من المعلمين، وعلى الرغم من سقوطه في جرم عظيم "إلا أنه احتفظ بمهمة التعليم، واحتفظ بالنظام الذي يظهره كأنه غير مذنب لا من جهة الحكمة الخارجية ولا من جهة الغنى"[٨٦]. يبدو إذاً أن بولس الرسول كان يرى معلماً معيناً كان قد أخطأ ومع ذلك استمر في التعليم واثقاً في حكمته الخارجية وغنى ذهنه.

ولقد استنتج القديس مرقس هذا الاستنتاج مما قيل في الفصل المتعلق بذلك في رسالة بولس الرسول.

هكذا، وبحسب القديس مرقس، فإن هذه الكلمة "موجهة خصيصاً للرجل الذي كان قد زنى". فمثل هذا المعلم ليس فقط لن يتلقى مكافأة على تعليمه، ولكن أيضاً عمله التعليمي سيحترق كرماد وسيبقى لكي يدان على أعماله. "مثل هذا المعلم لن يفنى هو نفسه مع عمله ولكنه سيُحفَظ ويبقى ليُحَاكَم ويجاوب عما فعله ويخضع لدينونة أبدية دون أن يحصل على أية فائدة من عمل التعليم هذا الذي سوف يُدَمَّر وأما هو فسيُحفَظ في خلاص أسوأ من الفناء، لأنه كان سيكون من الأفضل لمثل هذا الذي جلب على نفسه هذا الشأن لو لم يكن قد وجِد، أو لو لم يكن قد حُفِظَ"[٨٧].

يجب علينا أن نشير إلى أن القديس مرقس يستعمل كثيراً كلمات القديس يوحنا ذهبي الفم عن أن الخلاص يعني "أن يبقى المرء حياً". ".... يعني الخلاص فقط ألا يفنى

---

84 - Ibid.
85 - Ibid. Homily 2, p. 134.
86 - Ibid.
87 - Ibid. p. 136f.

المرء مع عمله، أي أنه يـبقى بينما يفنى عمله". سوف يظهر هذا الرجل أمام الـديّان "محاطاً بالنار". بالإضافة إلى ذلك، فإن هذه النار التي يتكلم عنها بولس الرسول ليست إلا امتحاناً "وليست هي النار التي سيـبقى فيها الخطاة إلى الأبد"[٨٨]. أي أن القـديس مرقس يميز هنا بوضوح بين نار الدينونة الممتحنة عند المجيء الثاني للمسيح والنار الأبدية التي لجهنم. ومن الطبيعي أن تكون نار الدينونة غير مخلوقة. أعتقد أن هذا التمييز يظهر من جهة محاكمة الدينونة المقامة بواسطة المسيح نفسه، ومن جهة أخرى الطبيعة الخارقة لقوى الله التي تكون بسبب حالة الشخص الروحية.

يرفض القديس مرقس وجهة النظر بأن كلمة خلاص لا تستعمل لما هو سـيء، ولكن فقط لما هو حسن مستشهداً بنص في سفر أيوب متعلق بذلك. فقد قال الرسول الذي جاء لأيوب بعـد الكارثـة ليخـبره بمـا حـدث: "ونجـوت أنـا وحـدي لأخبرك"(أي١: ١٥). لقد قال القديس مرقس أنه خلص وحُفِظ من الكارثة بهـدف أن يعلم أيوب بالأخبار السيئة[٨٩].

وكنـتيجة لذلك، يكون من غير الممكن أن تكون كلمة الرسول مدعمـة لأي نار مطهرة كما يقول اللاتين. فهي تعود بوضوح على المحاكمة الآتية، وعلى الدينونـة، وعلى حفظ الخاطئ بمعنى ذهابه إلى النار دون أن يفنى مع فناء أعماله الشريرة.

(و) النصوص الآبائية في الحوار

لقد استعمل اللاتين هم أيضاً نصوصاً آبائية أثناء الحوار لكي يدعموا تعلـيمهم الجديد عن نار المطهر، وذلك لأن الأرثوذكس كانوا يطلبون أن يعرفوا أين وجدوا مـا يدعم تعليمهم هذا الغريب عن الكنيسة الأرثوذكسية. ولكننا سوف نرى فيما يلـي أن اللاتين في الواقع شوهوا نصوص الآباء والنصوص الكتابية أيضاً.

إنني غير مزمع أن أعطي تحليلاً مطولاً لهذا الجانب من الموضوع ولكنني سـوف أعلق ببساطة عليه، موضحاً أيضاً الاستنتاجات المطلوبة.

---

[88] - Ibid. p. 138.
[89] - Ibid. p. 139.

استعمل اللاتين "بعض الكلمات من المجمع المسكوني الخامس" التي يبدو فيها قبول تعليم القديس أغسطينوس والقديس إمبروسيوس، وبعد ذلك استعملوا نصوصاً من القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات، وصلوات القديس باسيليوس الكبير، وأقوال القديس غريغوريوس النيصي، بالإضافة إلى أقوال ديونيسيوس الأريوباغي وأبيفانيوس وثيئوريموس الدمشقي، وقد استشهدوا أيضاً بالطوباوي ثيئودوريت[٩٠].

إذ استعمل اللاتين كل هذه النصوص الآبائية، انتهوا إلى أن عدل الله لا يترك أي شيء بلا دينونة، وبالتالي ينبغي وجود مكان آخر لأولئك الذين لم يعاقبوا في هذه الحياة. ولا يتعلق الأمر بالعقاب في السماء، أو في الجحيم الذي سوف يعاقَبون ويتطهرون فيه. يقول اللاتين بعد كل هذه الأشياء: "يتعلق الأمر بمكان آخر يجب أن يتم فيه هذا التطهير، والذي من خلاله يؤخذ كل من تطهر إلى النعيم السماوي إلى الأبد"[٩١].

يقوم القديس مرقس آفيانيكوس حامل التقليد الأرثوذكسي والشاهد الأصيل للأسفار المقدسة ولأقوال الآباء بتحليل وتفسير كل هذه النصوص بحسب الأرثوذكسية، داحضاً آراء اللاتين. إنه يوضح أنه ولا واحد من هذه النصوص التي للآباء يتحدث بوضوح عن وجود ما يسمى مطهر، وبالتالي لا يوجد مبرر لإدعاء اللاتين بوجود مطهر. فهم يقومون بكل بساطة بتشويه وخطأ تفسير أقوال الآباء في محاولاتهم لتدعيم رأيهم.

وبالتالي يوضح القديس مرقس أن بعض هذه النصوص، مثل تلك المأخوذة من القديس أغسطينوس والقديس إمبروسيوس، لا تتكلم بوضوح عن نار المطهر، وأما النصوص الأخرى فيُساء تفسيرها، مثل نصوص القديس باسيليوس الكبير، وديونيسيوس الأريوباغي، والقديس يوحنا الدمشقي، والقديس غريغوريوس النيصي، وما إلى ذلك.

ينبغي علينا بلا شك أن نشير إلى أن القديس غريغوريوس النيصي لا يتكلم عن استعادة كل الأشياء بطريقة فلسفية وهرطوقية كما يريد تقديمه بعض المفكرين المعاصرين المتأثرين بالتقليد الغربي التفسيري، ولكنه ينتمي لتقليد الكنيسة الأرثوذكسية. وسوف نتناول ذلك في باب آخر.

---

[90] - Ibid. Homily 1, pp. 48-55.
[91] - Ibid. p. 55.

وبالمثل قام القديس مرقس بانتقاد حقيقة أن اللاتين استعملوا نصوصاً من المجمع المسكوني الخامس، حيث تمسك القديس بأن هذا المجمع المسكوني العظيم ليس قادراً على تشريع مثل هذه التعاليم. ثم يختم القديس مرقس بصورة حادة: "لم يسلمنا، لا الكتاب المقدس ولا المجمع المسكوني الخامس، جحيماً مزدوجاً وناراً مزدوجة"[92].

يحلل القديس مرقس هذا الموضوع بعناية في عظته الثانية مقدماً العديد من النصوص التي تشير إلى الدهر الآتي دون أية كلمة واضحة عن نار مطهرة، بالإضافة إلى نصوص تعليم القديس غريغوريوس النيصي وكيف تواجه الكنيسة هذا التعليم الخطير. إلا أن هذا ليس المكان المناسب للاسترسال في ذلك.

وبوجه عام يؤكد القديس مرقس على أن اللاتين أساءوا فهم تعليم الآباء عن هذا الموضوع وشوهوه. فليس لدى اللاتين أية افتراضات مستقيمة لفهم آباء الكنيسة، وبالتالي لم يصيبوا في تفسيرهم.

يتكلم التعليم الأرثوذكسي عن غفران الخطايا وعن قيمة إقامة التذكارات. ولا يستطيع اللاتين بحق أن يفهموا معنى هذين الأمرين. سوف نتناول بصورة مختصرة فيما يلي تعليم الكنيسة المرتبط بذلك.

غفران الخطايا في التقليد الأرثوذكسي هو الخلاص من جهنم ومن العقاب. ويحدث هذا الغفران بثلاثة طرق في ثلاثة أوقات مختلفة؛ فالأول يحدث في وقت المعمودية، والثاني بعد المعمودية من خلال التوبة والندم أثناء الحياة الحاضرة، والثالث بعد الموت من خلال الصلوات والتقدمات وكل ما تصنعه كنيسة المسيح.

يكون الحصول على غفران الخطايا من خلال المعمودية بدون مجهود وله نفس القيمة بالنسبة لكل الناس، فهو عمل للنعمة ولا يُطَالَب فيه المرء بأي عمل سوى الإيمان فقط. أما الغفران بعد المعمودية فهو أمر شاق ويحتاج للتوبة والانسحاق من جانب المرء. والغفران بعد الموت هو أيضاً شاق لأنه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتوبة، "وبضمير منسحق متألم من أجل قلة البر"، ولكنه يكون بدون عقاب طالما أنه من المستحيل أن يجتمع معاً الغفران والعقاب بآن واحد.

---

92 - Ibid. pp. 48-56.

تسود نعمة الله في الغفرانين الأول والثالث، كما تساهم فيهما الصلوات، ولكننا لا نستطيع سوى عمل القليل جداً للحصول عليهما. أما الغفران الثاني فهو بواسطة نعمة الله ولكن أغلبه نابع من أفعالنا الشخصية: "وعلى العكس يأتي الغفران الثاني بدرجة قليلة من النعمة، حيث يكون الجزء الأكبر منه معتمداً على جهادنا". بالمثل يختلف الغفران الأول الحادث من خلال المعمودية عن الأخير الحادث بعد الموت لأن الأول هو غفران كل الخطايا، على حين يكون الأخير غفران الخطايا غير المميتة فقط، وبدون شك تلك التي تاب عنها الشخص أثناء حياته.

هذا هو تعليم الكنيسة الأرثوذكسية كما يقول القديس مرقس، وهذا هو السبب الذي يجعلها تصلي من أجل مغفرة خطايا الراقدين. فهي تطلب من الله أن يغفر خطايا المسيحيين التائبين الذين ماتوا في الإيمان دون أن تعين أي عقاب لأنها تعي أنه في مثل هذه الخطايا "يتفوق صلاح الله جداً على كلمة العدل"، **وبالتالي نتكلم في الكنيسة الأرثوذكسية عن صلاح الله وليس عن إرضاء العدل الإلهي**[٩٣].

يرتبط أيضاً موضوع إقامة التذكارات بغفران الخطايا. فالكنيسة الأرثوذكسية تقيم تذكارات للمسيحيين الذين رقدوا وتصلي إلى الله من أجلهم ولكن بطريقة مختلفة عن اللاتين ومن أجل هدف آخر. بمعنى آخر أنه من المستحيل أن يكون هناك ارتباطاً بين نار المطهر الخاصة باللاتين وإقامة التذكارات في الكنيسة الأرثوذكسية. فاللاتين يفترضون تطهيراً بواسطة عقاب، على حين يفترض الأرثوذكس تكميلاً لمسيرة المرء نحو الاتحاد بالله، تلك المسيرة التي لم تنتهِ. يعطي القديس مرقس معلومات مهمة في هذا الموضوع.

تقام التذكارات في الكنيسة الأرثوذكسية من أجل كل الذين رقدوا على رجاء القيامة وفي الإيمان بالمسيح يسوع. وبالتالي ينتفع من هذه التذكارات والصلوات الكنسية كل أولئك الذين ماتوا، أبرار وأشرار، قديسون وخطاة. ومن البديهي أن تختلف الصلوات من مسيحي لآخر. وحتى القديسين لهم خدمات تذكارية خاصة، ويُقدَم القمح في ذكراهم، ولكن تختلف الصلوات إذ لدينا علامات على قداستهم، وبسبب أنهم حسبوا في زمرة ومعية القديسين. إننا لا نطلب من الله أن يرحمهم، ولكننا نصلي "لكي نكرمهم ونخلد ذكراهم"، ونطلب منهم أن يصلوا لأجلنا.

---

[93] - Ibid. p. 55f.

من جهة فائدة الصلوات وإقامة التذكارات، يكتب القديس مرقس قائلاً: "بالمثل نصلي لكل أولئك الذين رقدوا في الإيمان، ونقول أن هذه الصلوات تحقق شيئاً للجميع، وأن القوة والبركة تعم على جميعهم"[٩٤]. تُرفَع إذاً الصلوات من أجل كل الذين رقدوا في الإيمان المستقيم.

تصلي الكنيسة أولاً من أجل الخطاة الذين أُسِروا في الجحيم "حتى يحصلوا على بعض الراحة، حتى لو لم يكن تحرراً كاملاً". تُرفَع الصلوات بصورة رئيسية لأجل أولئك الذين رقدوا في الإيمان "حتى لو كانوا خطاة بشدة". وفي الحقيقة، توجد قصص لقديسين كانوا يصلّون لأجل الملحدين، "إلا أن كنيسة المسيح لا تصلي أبداً لمثل هذه الحالات"[٩٥]. ينتفع الخطاة والذين أُسِروا في الجحيم بعد الموت بهذه الصلوات، لأنهم من جهة لم يُحكَم عليهم بصورة نهائية بعد و لم يصدر عليهم حكم المحكمة النهائي بعد، ومن جهة أخرى لأنهم لم يدخلوا جهنم بعد، وهذا ما سوف يحدث بعد المجيء الثاني للمسيح. لو كانت هذه الصلوات والتذكارات فعالة بالنسبة للخطاة، فكم ينتفع منها أولئك الذين تابوا و لم يسعفهم الوقت لكي يتطهروا بصورة كاملة ولكي يستنير عقلهم. فلو كان لهؤلاء خطايا صغيرة عابرة فإنهم يحصلون على ميراث الأبرار، أو يبقون حيث هم أي في الجحيم "ولكن تُخَفف عنهم آلامهم، ويحصلون على رجاء أفضل"[٩٦].

لكن إقامة التذكارات والصلوات في الكنيسة تفيد أيضاً الأبرار وأولئك الذين عاشوا حياة مقدسة. هذا التعليم هو تعليم جوهري في كنيستنا. ويؤكد القديس مرقس أن صلوات الليتورجية الإلهية تظهر أن "قوة هذه الصلوات، وخصوصاً صلوات القداس، تدعم أولئك الذين حظوا بالنعيم من الله". يظهر ذلك في صلاة الليتورجية التي وضعها يوحنا ذهبي الفم: "نقدم لك أيضاً هذه العبادة العقلية من أجل الأجداد، والآباء، والبطاركة، والأنبياء، والرسل، والشهداء، والمعترفين، والنساك، وكل أرواح الصديقين الذين رقدوا في الإيمان". وعلى الرغم من أننا نصلي من أجل القديسين، إلا أننا لا نطلب لهم البركات ، ولكننا نشكر من أجلهم ونفعل ذلك "لأجل تمجيدهم، ومع ذلك وبطريقة أو بأخرى تُقَدَم القرابين بإسمهم وتؤول إليهم"[٩٧].

---

94 - Ibid. Homily 2, p. 118.
95 - Ibid. p. 119.
96 - Ibid. p. 120-121.
97 - Ibid. Homily 1, p. 43f.

يحلل القديس مرقس بعناية أكثر في نص آخر ما يستفيده القديسون المعرضون للنار الموجودة في كل مكان مع الله، والتي هي قواه غير المخلوقة. فهو يكتب قائلاً: "لأن هذه النار تظهر القديسين أكثر لمعاناً مثل الذهب الممحص في فرن طالما أنهم ليس فيهم أية صفة أو فعل شرير...."[٩٨].

من الواضح في هذا النص، كما هو الحال أيضاً في نصوص الآباء القديسين المتعلقة بنفس الموضوع، أن القديسين يستنيرون بالأكثر ويحصلون على قدرة أعظم للاشتراك في مجد الله.

يستخدم القديس مرقس أيضاً نصاً للقديس ديونيسيوس الأريوباغي يبدو فيه أن الأسقف يصلي حتى من أجل أولئك الذين كملوا في الحياة الإلهية. يقول القديس باستشهاده بهذا النص أن قوة الصلوات وخصوصاً صلوات القداس تسند "أولئك الذين عاشوا حياة بارة ومقدسة". وتفسير ذلك هو أنه طالما أن الأمر يتعلق بالكمال، وأنه حتى القديسين لم يصلوا للكمال، فإن قدرتهم على المجد الإلهي تزداد. إنه يكتب قائلاً: تصل قوة الصلوات والليتورجية الإلهية حتى لأولئك الذين عاشوا حياة بارة ومقدسة "طالما أنهم هم أيضاً غير كاملين ومنفتحين باستمرار على ما يساهم في الصلاح حيث أنهم لم يتمتعوا بعد بالنعيم الكامل"[٩٩].

تصل إذاً صلوات الكنيسة للجميع، الخطاة والأبرار، ولكنها تعمل بطريقة مختلفة بحسب الحالة الروحية التي يصل إليها كل واحد في هذه الحياة. هكذا ينهي القديس بقوله: حيث أن صلوات الكنيسة تصل للجميع، فإننا لا نحتاج لنار مطهرة. يأتي التطهير والقداسة بواسطة صلاح الله ومحبته للبشر[١٠٠].

تعليم القديس مرقس هذا هو تعليم أرثوذكسي، وموجود في العديد من النصوص الآبائية. لن نتناول هذا بالتفصيل هنا. ما يجب علينا التأكيد عليه هو أنه بحسب التعليم الأرثوذكسي توجد ثلاثة مراحل للكمال الروحي: تطهير القلب، واستنارة النوس، والاتحاد بالله. فتكميل الإنسان ليس كاملاً. ويكون المرء جاهزاً باستمرار لتحسين حالته الروحية، وسوف تستمر هذه الحركة حتى في الدهر الآتي. وبالتالي قد يدخل المرء مرحلة

98 - Ibid. p. 46.
99 - Ibid. Homily 2, p. 121.
100 - Ibid. p. 121.

التطهير من خلال التوبة، إلا أنه قد لا يستطيع تكميل التطهير والوصول للاستنارة بسبب الموت، وقد يتحقق ذلك بواسطة الصلوات والتذكارات التي ترفعها الكنيسة. بمعنى أنه سيكون هناك زيادة لا نهائية للاشتراك في قوى الله المطهرة، والمانحة للاستنارة، والمؤلهة. هذه هي الطريقة التي نفهم بها العديد من المواقف في حياة القديسين الذين بصلواتهم برروا أولادهم الروحيين. لو أننا نظن أن التبرير هو استنارة النوس، وهو بلا شك غفران الخطايا بطريقة رئيسية، فإننا نستطيع إذاً تفسير هذه المواقف.

(ز) النار الأبدية غير مخلوقة

لا يوجد في أي نص من نصوص الآباء ما يشير إلى نار عقاب سوف يمر خلالها الناس بعد موتهم وخصوصاً أولئك الذين لم ينجحوا في أداء قانونهم. لقد رأينا في تعليم الآباء أنهم تكلموا بوضوح عن وجود فردوس وجحيم بعد المجيء الثاني للمسيح، وعربون للفردوس والجحيم بعد رحيل الروح عن الجسد. تقيم الكنيسة التذكارات حتى المجيء الثاني للمسيح، وهذه التذكارات تعطي قوتها لكل أولئك الذين ماتوا في الإيمان سواء كانوا خطاة أو أبراراً ومقدسين. لا يوجد أبداً أي قول عن وجود لنار مطهرة للمسيحيين الذين تابوا ولكنهم لم يكملوا التوبة.

يقول القديس مرقس أنه في المواضع التي تذكر فيها النار في الكتاب المقدس والنصوص الآبائية، يكون المقصود بها نار جهنم الأبدية التي هي في الواقع غير مخلوقة. لا يتعلق الأمر بشيء مخلوق، أو واقع مخلوق، ولكن بعمل الله الذي يُختبَر كنار من قِبَل أولئك الذين لم يتم شفاؤهم.

إنه يؤكد في عظته الأولى: "لو وجد أي ذكر للنار في هذه الصلوات والتسابيح، فهي ليست ناراً مؤقتة ذات قوة مطهرة، ولكنها بالأحرى نار أبدية وعقاب لانهائي، ويصلي القديسون لكي يخلص منها أولئك الذين رحلوا في الإيمان..."[١٠١].

هذه النار المذكورة في نصوص الكنيسة ليست ناراً مؤقتة ولكنها نار أبدية. يشير القديس مرقس إلى نص للقديس غريغوريوس اللاهوتي قائلاً: "إنه يقول أن هذه النار ليست مؤقتة وعابرة، ولكنها مستديمة وأكثر إيلاماً"[١٠٢].

---

[101] - Ibid. Homily 1, p. 42.
[102] - Ibid. p. 50.

ليست نار جهنم إذاً هي نار مادية مخلوقة، ولكنها غير مخلوقة. ويقول القديس مرقس أن النور بالنسبة للمستحق هو رؤية الله. وبلا شك هذا النور هو مجد الله غير المخلوق. يربط أيضاً القديس مرقس النور غير المخلوق بنار جهنم. فهو يقول أن النار الأبدية ليست مادية "حيث أنها نور لأولئك المستحقين رؤيتها". وهو إذ يحلل هذا المنظور يؤكد على أن قديسي الكنيسة يأخذون النار الأبدية والعقاب اللانهائي "بطريقة مجازية". فهي مسألة مجازية لأن نور الأبرار غير مادي، كما أن نار الخطاة ليست مخلوقة ولا مادية. فهما حقيقتان واقعتان وحالتان حقيقيتان، ولكنهما ليسا كالحالات التي نعرفها من عالم الحواس.

يستخدم الكتاب المقدس العديد من الصور ليصف حالة المعاقَبين مثل النار، والدود، والثعابين، وصرير الأسنان. تعبِّر كل هذه عن حقائق أخرى. **يعني القديسون بالنار الجهل بالله.** "لا يجب أن نظن أن هذه النار هناك هي نار مادية، ولا أن الظلمة الخارجية هي شيء آخر غير الجهل بالله".

إننا بلا شك عندما نتحدث عن الجهل بالله نعني عدم الشركة فيه، طالما أننا ندرك أن الخطاة سوف يرون الله. بمعنى أنهم سوف يرون الله ولكنهم لن يشتركوا فيه، وسيكونون جهّال به. إن معرفة الله في التقليد الأرثوذكسي هي الاشتراك فيه. تشير الدودة أو بعض السلالات من الزواحف السامة آكلة اللحوم إلى عذاب الأشرار بواسطة ضميرهم وندمهم المرير. يعني صرير الأسنان نفس الشيء بالضبط، أي أنه يشير إلى الحزن والغضب والنحيب المر الذي لأولئك الذين هم في صراع مع أنفسهم[١٠٣].

من الواضح إذاً أنه عندما يتحدث التقليد الكنسي عن النار، فإنه يقصد النار الأبدية غير المخلوقة. وهذا يعني أن الأمر لا يتعلق بنار مطهرة مؤقتة، ولكن باختبار نعمة الله غير المخلوقة كنار بسبب نجاسة المرء. وهذا هو بعينه السبب الذي يجعل وجود نار مطهرة، كما في فكر اللاتين، أمراً مستحيلاً.

إننا نستطيع بوجه عام أن نقول أن تعليم القديس مرقس آفيانيكوس، كما يبدو في عظاته في مجمع فيرارا-فلورنسا، ينتمي بصورة رئيسية لتقليد الكنيسة الأرثوذكسية الخاص بحياة الإنسان بعد أن تفارق روحه جسده. يعتبر القديس مرقس مفسر أصيل

[103] - Ibid. Homily 2, p. 130.

للتعليم الأرثوذكسي لأنه هو نفسه حامل لهذا التقليد. وهكذا من الواضح أن التعليم اللاتيني عن النار المطهرة هو تعليم خاوٍ، بقلم مستجد، إيمان جديد لا يمكن أن تتبناه الكنيسة الأرثوذكسية، وأيضاً يثبت القديس مرقس في هذا الشأن أنه مفسر أصيل للتقليد الأرثوذكسي.

٣- ما هو مصدر التعليم اللاتيني عن نار المطهر

من النقاط الهامة في دراستنا تلك أن نجد الأسباب التي قادت اللاتين إلى التعليم الخاص بنار المطهر. هذا أمر ضروري لأننا نعتقد أن ظهور هذا التعليم ليس مصادفة.

يجب علينا أن نوضح أنه كما يبدو من دراستنا أن التعليم عن نار المطهر هو جزء رئيسي من علم اللاهوت اللاتيني ككل، وأنه تكوّن بصورة عامة كجزء من هذا المناخ. إنه ليس إذاً مصادفة، ولكنه عرض من أعراض علم اللاهوت الغربي الذي نما أثناء انفصاله عن علم اللاهوت الأرثوذكسي. لقد كانت لدينا الفرصة بالفعل لتناول هذا في تحليلات سابقة، إلا أننا سوف ندرسه الآن بصورة مكثفة وتحليلية.

نستطيع أن نحدد خمسة عوامل قادت الفكر اللاهوتي الغربي للتعليم عن نار المطهر.

أولاً، غياب اللاهوت النسكي. فعلم اللاهوت الغربي، بانفصاله عن علم اللاهوت الأرثوذكسي وخصوصاً عن التقليد النسكي المتعلق بنقاوة القلب واستنارة العقل ورؤية الله، أعد الطريق لظهور التعليم عن نار المطهر.

يقال ذلك في ضوء الحقيقة القائلة أن علم اللاهوت النسكي السكوني (الهدوئي) الذي للكنيسة الأرثوذكسية يتكلم عن قوى الله التي هي نار تطهر الإنسان. وبالمثل تكتسب نعمة الله مسمى خاصاً من جهة عملها، إذ تدعى قوى مطهرة ومانحة للاستنارة ومؤلهة. بمعنى أنه عندما تطهر قوى الله غير المخلوقة الإنسان فإنها تسمى مطهرة، وعندما تنيره فإنها تسمى مانحة للاستنارة، وعندما تجعله يتحد بالله فإنها تسمى مؤلهة.

لقد قال السيد المسيح نفسه: "جئت لألقي ناراً على الأرض فماذا أريد لو اضطرمت"، ويكتب بولس الرسول قائلاً: "لأن إلهنا نار آكلة"(عب١٢: ٢٩).

يعبّر القديس يوحنا السلمي عن كل التقليد النسكي في هذا الموضوع قائلاً أننا نختبر نعمة الله أولاً كنار ولهب، ثم كنور. فعندما تأتي النار السماوية وتقيم في القلب، فإنها تحرق البعض بسبب قلة نقاوتهم، على حين أنها تنير البعض الآخر "بحسب درجة كمالهم". تسمى نفس هذه النار "ناراً حارقة، ومنيرة أيضاً". وبالتالي يخرج البعض من صلواتهم كما لو كانوا في فرن مشتعل شاعرين بالتخلص من نجاستهم، على حين أن البعض الآخر عندما ينتهون من صلواتهم يشعرون بأنهم خرجوا مستنيرين وكأنهم تزينوا بالتواضع والفرح[١٠٤].

يقول القديس يوحنا السلمي في موضع آخر أننا نتكبد ألماً كبيراً حتى تدخل نار الله إلى مذبحنا، أي إلى قلبنا. الله الذي هو نار يحرق "كل الشهوات، وكل مثيرات الهوى، وكل استعدادات، وكل قساوة للقلب، وكلاً من الظلمة الداخلية والخارجية، وكلاً مما هو مرئي وما هو روحاني"[١٠٥].

وبوجه عام، يتكلم التقليد الكنسي برمته عن النار التي تدخل القلب، أي نعمة الله غير المخلوقة التي تشعر المرء بأنها تحرق الأهواء في قلبه[١٠٦]. هذه النار غير مخلوقة، بمعنى أنها نعمة الله غير المخلوقة التي تحرق الأهواء، وتنقي القلب، وبالتالي تدعى النعمة المطهرة، وهذا يحدث أثناء جهاد الإنسان لكي يشفى. هذه هي المرحلة الرئيسية في الحياة الروحية. وبالمثل سوف تعمل هذه النار ذاتها، والتي هي نعمة الله المطهرة، في أولئك الذين رقدوا ودخلوا بالفعل في مرحلة التطهير ولكنهم لم يكن لديهم متسع من الوقت لكي يكملوا طهارتهم. وبالتالي، من خلال صلوات الكنيسة وإقامتها للتذكارات كما رأينا من قبل، يتطهر الشخص ويصعد في مراحل الكمال الروحي حيث لا ينتهي الكمال أبداً.

وحيث أن الغربيين فقدوا علم اللاهوت النسكي و لم يختبروا هذه الحالات عملياً، فإنهم أساءوا فهم النصوص الآبائية. لقد كانوا متأكدين أن نصوص الكتاب المقدس والآباء القديسين تتكلم عن نار تطهر الإنسان، وأن هذا يستمر بعد موت أولئك الذين دخلوا بالفعل في التوبة، أي في مرحلة التطهير. وحيث أنهم ليس لديهم خبرة روحية

---

104 - John of the Ladder, Step 28, CWS p. 280.
105 - Ibid. Step 26, CWS p. 230.
106 - Bishop of Nafpaktos Hierotheos: Orthodox Psychotherapy, op. cit. p. 188f.

عملية عن هذا التعليم، فإنهم أساءوا تفسير النصوص الآبائية، وبالتالي تكلموا عن نار عقاب مخلوقة سوف يعبر خلالها الناس. ولكن من الواضح أن هذا المصطلح له معنى مختلف في التعليم الآبائي الأرثوذكسي.

ثانياً، السبب الثاني لظهور التعليم عن نار مطهرة هو التوحيد بين جوهر الله وقواه الذي جلب العديد من الشرور في الغرب.

إننا نعلم من علم اللاهوت الأرثوذكسي أن الله له جوهر وقوى. فلو كان الجوهر غير مخلوق فمن الطبيعي أن تكون القوى أيضاً غير مخلوقة. وأما لو كان الجوهر مخلوقاً، لكانت القوى هي أيضاً مخلوقة. إن جوهر الله أزلي غير مخلوق، وبالتالي نقول أن قواه أزلية غير مخلوقة. فالمحبة والسلام والعدل وما إلى ذلك هي قوى الله التي هي بلا شك شخصية، طالما أنه من المستحيل أن توجد القوى بدون وجود الشخص لأنه توجد حقيقة تقول أن الذي يعمل هو الشخص. تحمينا هذه الحقيقة اللاهوتية من العديد من المخاطر ومن الانحرافات الهرطوقية.

هذا التمييز بين الجوهر والقوى غير موجود في الغرب. لقد قام علماء اللاهوت الأكاديميون بالتوحيد بين قوى الله وجوهره في محاولة منهم للحفاظ على بساطة الله، وفي نفس الوقت للحفاظ على التمييز بين الله والعالم. وسموا الله "actus purus" أي القوى النقية. وفي نفس الوقت اعتبروا قوى الله الحافظة والمعتنية كأنها مخلوقة. بهذه الطريقة، وبحسب علم اللاهوت الغربي، ليس لله أية علاقة فعلية مع العالم في قواه غير المخلوقة، ولكن فقط من خلال طرق وقوى مخلوقة. ولكن هذا التعليم يفسد كل أساس ومحتوى خلاص الإنسان[١٠٧].

لو فحصنا بتدقيق كل الفروق بين الكنيسة الأرثوذكسية واللاتينية، فسوف نقتنع بأنها ناتجة عن هذه المسألة اللاهوتية الجوهرية. يظهر هذا بدقة في تعليم اللاتين عن نار المطهر. ففي البداية، يتكلمون عن اختبار النار المطهرة التي هي مخلوقة طالما أن الله لا يتواصل بصورة مباشرة مع المخلوقات، وكنتيجة لذلك يتحدثون عن رؤية جوهر الله غير المخلوق من قِبَل أولئك الذين تطهروا بالفعل. هذا يعني أنه عندما عبر الناس خلال نار المطهر فإنهم وصلوا لرؤية جوهر الله. ولكن هذا التعليم، بخلاف التعاليم الأخرى،

---

107 - John Romanides: The ancestral sin, p. 52 etc.

بمقدار ما أنه يتكلم عن الخلاص، إلا أنه ينـــزع الفرق بين المخلوق وغير المخلوق، وبين الطبيعة والنعمة.

على كل حال، الخلاص في الكنيسة الأرثوذكسية يتحدد باشتراك الإنسان في نعمة وقوى الله غير المخلوقة والمؤلهة. هنا يكون الخلاص حقيقياً ويبقى الله كما هو.

ثالثاً، التعليم عن نار المطهر هو نتيجة لكل التقليد الغربي المعبَر عنه بما يسمى علم اللاهوت النظري. وفي الواقع وكما قلنا من قبل، فإن علم اللاهوت النظـــري الـــذي انفصل عن علم اللاهوت التجريـــبي النسكي السكوني (الهـــدوئي) الـــذي للكنيســـة الأرثوذكسية، تسبب في الأذى الكثير في الغرب.

بحسب علم اللاهوت الغربي المؤسس على تعليم القديس أوغســـطينوس، فـــإن الخطية الجدية توارثتها كل الأجيال من آدم، وأن عدالة الله حكمت على كل الجـــنس البشري بالجحيم وقضت بحكم الموت[١٠٨]. وبالتالي وبحسب التقليد الغربي، فإن الجحـــيم والموت هما عقوبة إلهية وليسا مرضاً كما تعلم الكنيسة الأرثوذكسية.

وكنـــتيجة لهذا التعليم، انقاد الغربيون لنظرية العقاب ونار المطهر. وحيث أنهم يؤمنون بأن الشخص المحكوم عليه بالعقاب لا يرى الله، فإنهم اعتبروا نار الجحيم كأنهـــا مخلوقة. ينبغي علينا أن نرى "جحيم دانتي" في ضوء هذا التعليم، حيث سيتعذب الخطاة بنار الجحيم المخلوقة. وهكذا يتخيل الغربيون العالم كثلاثة طبقات مكونة من الســـماء غير الفانية للمغبوطين، والأرض الفانية لأجل امتحان الناس، والعالم الســـفلي الفـــاني لأولئك المعاقَبين والخاضعين للتطهير[١٠٩].

بلا شك، وكما رأينا سابقاً، فإن الغربيين يتكلمون أيضاً عن رؤية جوهر الله من قِبَل البار والمتطهر. بمعنى أنه بسبب حكمتهم وقدرتهم سوف يرى الذين خلصـــوا الله، والنماذج الأصلية للخليقة الموجودة فيه. وبواسطة رؤية جوهر الله تلك، سوف تتحـــرر الأرواح من الشهوة، والهوى، والفناء، وبالتالي سوف تصبح سعيدة إلى الأبد[١١٠]. لسنا بحاجة لأن نقول أن الكنيسة الأرثوذكسية لا تقبل هذه الآراء طالما أن النماذج الأصلية

---

108 - John Romanides: Romiosyni, ed. Pournaras, Thessaloniki 1975, p. 93 (GK).
109 - Ibid. p. 96.
110 - Ibid. p. 95.

للخليقة لا توجد في الله. فالله يخلق العالم، ويعرف عنه كل شيء مسبقاً، ويخلصه بواسطة قواه غير المخلوقة.

بالمثل أيضاً، فإن الغربيين لم يفهموا علم اللاهوت الإيجابي بطريقة صحيحة، فقد أخذوه بالأكثر كعلم لاهوت حدسي. ففي علم اللاهوت الأرثوذكسي، يعبَر عن مجد الله بتعبيرات متضادة: نور وظلام، نار وظلمة. فالتناقض الأول يخص مجد الأبرار، والثاني يخص حالة الخطاة. وتستعمل هذه المتناقضات ليس لأنها موجودة في الله، ولكن بهدف التعبير عن حقيقة عدم وجود تشابه بين مجد الله غير المخلوق والأشياء المخلوقة[١١١].

على كل حال، قادت هذه الافتراضات علماء اللاهوت الغربيين إلى التعليم بوجود نار مطهرة سيعاقب بها الخطاة والتائبين حتى أنهم قد يصلون لرؤية جوهر الله. وهكذا نحن نصر على أن عقيدة النار المطهرة لدى اللاتين تعتمد على البنيان الرئيسي لعلم اللاهوت الغربي.

رابعاً، تعليم اللاتين عن إرضاء العدل الإلهي. فبحسب آنسيلم من كانتربيري فإن ضرورة عقاب الإنسان وضرورة خلاصه هما عنصران رئيسيان في الطبيعة الإلهية. **ينادي تعليم الآباء بأن الخطية هي مرض، والخلاص هو حب الله الذي من خلاله، بالإضافة إلى تعاون الإنسان، يتحقق شفاؤه.** وعلى عكس هذا التعليم، يتكلم آنسيلم عن انتهاك عدل الله والتكفير عنه[١١٢].

إن مثل هذه الرؤية من قِبَل اللاتين عن خلاص الإنسان لابد وأن تقود إلى التعليم عن وجود نار مطهرة، وإلى التعليم عن ضرورة عقاب الإنسان حتى يرتضي الله. ومن الطبيعي أن يشوه هذا التعليم الحياة الروحية بجملتها طالما أنه يجعل منه معاملة تجارية، ويخلق علاقات بين المعتدى عليه والساقط.

خامساً، السبب الخامس لظهور التعليم عن نار المطهر هو الارتباط السياسي الاقتصادي بالباباوية. فحيث أن الغربيين فقدوا علم اللاهوت التجريبي الذي للكنيسة الشرقية، وفصلوا أنفسهم عن التقليد النسكي السكوني (الهدوئي) للكنيسة الأرثوذكسية، كان من الطبيعي بالنسبة لهم أن يسقطوا في أمور متمركزة حول الإنسان. فقد ساهم في

---

111 - Ibid. p. 99.
112 - John Romanides: The ancestral sin, p. 90 etc.

عقيدة نار المطهر المفهوم الإقطاعي لتركيب المجتمع، والولع بنمو الاقتصـــاد والمبـــاني، والصدام مع السلطة السياسية وما إلى ذلك. وبهذه الطريقة انحط النـــاس علـــى حـــين تدعمت "الكنيسة" ببناء المباني.

أدى ارتباط نار المطهر بتقديم تقدمات مادية إلى عدم رضا الناس عن البابويـــة. ومن الشائع أن النار المطهرة المسماة المطهر اختُرِعَت لتكميل كنيسة القديس بطرس في روما ولصيانة الفقر البابوي. ولكن يجب مراعاة أن عقيدة النـــار المطهـــرة لم تُختَـــرَع ببساطة لاستغلال الناس، لأنها كما قلنا من قبل، متمشية مع علم اللاهـــوت الغـــربي النظري. ومع هذا تم استغلالها لأسباب اقتصادية أيضاً.

نستطيع بعد هذا التحليل أن نختم بالاستنتاج التالي: تماماً مثلما يشكل علم اللاهوت الأرثوذكسي وحدة، أو بالأحرى ينبغي أن أقول دائرة، هكذا عندما يقترب شخص ما مـــن نقطة ما على الدائرة فإنه يلتقي بالدائرة كلها. ينطبق هذا أيضاً على علم اللاهوت الغـــربي، فكل عقائده الجديدة مرتبطة ببعضها البعض ويتم تحديدها على نفس الأساس.

هذا يعني أن فقدان علم اللاهوت السكوني (الهدوئي) وإهمال علم اللاهوت العلاجي والتجريـــبي جلب للغرب شروراً كثيرة. فعقيدة نار المطهر مرتبطة بفقـــدان التعليم عن التمييز غير المفصول بين جوهر وقوى الله.

إن نار المطهر هي ثمرة ونتيجة لعلم اللاهوت النظري الذي للغربيين وليس لها أية علاقة بعلم اللاهوت الأرثوذكسي كما علمنا إياه السيد المسيح، وكما عاشه الرســـل، وكما سلمه لنا الآباء القديسون.

الباب السادس

المجيء الثاني للمسيح

تسمى كل الأحداث المرتبطة بالمجيء الثاني للسيد المسيح "إسخاتولوجية" (أخروية) بسبب ارتباطها باليوم الأخير وبالأشياء التي سوف تحدث بعد انتهاء العالم الحاضر. إننا عادة ما نتكلم عن نهاية التاريخ، ولكن هذا لا يعبر بصورة كاملة عن الواقع طالما أن التاريخ هو ليس فقط أحداثاً تاريخية، ولكنه أيضاً سير القديسين. لا تشكل حياة القديسين بعد الموت، ولا حياة الناس بعد المجيء الثاني للمسيح حقبة "ما بعد التاريخ"، ولكنها حقبة تاريخية إذ أنها تاريخ القديسين. وتماماً مثلما أن العالم لن يفنى ولكنه سيتجدد، ومثلما أن الإنسان لن يختفي ولكنه سيتحول، **هكذا أيضاً التاريخ لن ينتهي أبداً ولكن محتواه سيتغير.**

بالتالي عندما نتحدث عن أحداث أخروية، فإننا نعني بدقة كل هذه الأشياء التي سوف تحدث عند المجيء الثاني للمسيح ليدين الناس. نحن إذاً ننتظر هذه الأحداث الأخروية، ولكننا نستطيع الاستمرار في القول بأنه **بمقدار ما يهتم المرء بطريقة الحياة، بمقدار ما تصبح هذه الأشياء الأخيرة حاضرة بالفعل**، بدليل أن القديسين يتمتعون الآن بملكوت الله. وكما سوف نثبت فيما يلي، فالقديسون لديهم الآن عربون لكل ما سوف يعلن في "الأيام الأخيرة". وبلغة الزمان، نحن ننتظر الأشياء الأخيرة؛ وبلغة طريقة الحياة فإن الأشياء الأخيرة آتية وهي مختَبَرة من قِبَل القديسين.

سوف نهتم في هذا الفصل بثلاث مواضيع خاصة مرتبطة بالأحداث الأخروية المرتبطة بالمجيء الثاني للمسيح. أولاً، سوف نتكلم بوجه عام عن المجيء الثاني للمسيح. ثانياً، سوف نتناول الحقيقة اللاهوتية عن قيامة الجسد. ثالثاً، سوف نلقي نظرة على الدينونة التي هي مرتبطة بالمجيء الثاني للمسيح.

(١) مجيء المسيح في المجد

يقال في كل التقليد الكتابي الآبائي أن السيد المسيح سوف يأتي ثانية إلى العالم ليدين الناس. إنها حقيقة لا يستطيع المسيحيون أن يشكّوا فيها.

يتكلم السيد المسيح نفسه في النص الخاص بالدينونة الآتية عن مجيئه الثاني في مجد قائلاً: "ومتى جاء ابن الإنسان في مجده..."(مت٢٥:٣١). ليست كلمة "متى" هنا افتراضية ولكنها زمنية، مما يعني أنه سوف يكون هناك زماناً حين يأتي المسيح في العالم بمجد عظيم. والسيد المسيح قال في موضع آخر: "وحينئذ يبصرون ابن الإنسان آتياً في سحاب بقوة كثيرة ومجد"(مر١٣:٢٦).

ومكتوب في سفر أعمال الرسل، حيث يوصف صعود السيد المسيح، أن الملائكة قالت للرسل المتعجبين: "أيها الرجال الجليليون ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء. إن يسوع هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقاً إلى السماء"(أع١:١١). أي أن الطريقة التي سوف يعود بها إلى الأرض هي نفس الطريقة التي صعد بها.

يعلّم بولس الرسول بأن كل الأحياء في وقت مجيء ابن الإنسان، وبالتأكيد كل الأبرار، سوف يُختَطفون "في السحب لملاقاة الرب في الهواء"(١تس٤:١٧). ومكتوب أيضاً في سفر الرؤيا: "هوذا يأتي مع السحاب وستنظره كل عين"(رؤ١:٧).

تشير هذه النصوص المعبرة إلى أن المؤمن يؤمن إيماناً غير متزعزع أن السيد المسيح سيأتي إلى الأرض ليدين الناس، وعندئذ ستأتي نهاية هذا العالم، وستبدأ الحياة الجديدة. من أجل هذا نعترف في قانون الإيمان قائلين: "وأيضاً يأتي في مجده ليدين الأحياء والأموات، الذي ليس لملكه انقضاء".

توجد مصطلحات عديدة في الكتاب المقدس تشير إلى مجيء السيد المسيح، وسوف نتناول بعضها الأكثر تعبيراً.

أولاً، يوصف المجيء الثاني للمسيح على أنه "يوم"، وبالأخص أنه "يوم الرب" و"يوم الدينونة". فبطرس الرسول يكتب قائلاً: "ولكن سيأتي يوم الرب"(٢بط٣:١٠). وفي موضع ما يصفه بولس الرسول على أنه: "يوم ربنا يسوع المسيح"(١كو١:٨)، وفي موضع آخر على أنه اليوم الذي سوف يُعلَن فيه كل شيء(١كو٣:١٣). ولكن يوحنا الإنجيلي يسميه "يوم الدينونة"(١يو٤:١٧). إنه يُدعى يوماً لأنه بالمقارنة بالحياة الحاضرة التي هي ظلام، فإنه يعبِّر عن واقع جديد. يرتبط التشبيه باليوم بالتشبيه بالشمس، وحيث أن المسيح هو شمس البر التي سوف تظهر في ذلك الحين، فإنه بالتالي يسمى يوماً.

يربط القديس يوحنا الإنجيلي هذا اليوم بالأشياء الأخيرة، ويصفه بأنه اليوم الأخير. وفي الإنجيل بحسب يوحنا يتكلم السيد المسيح نفسه عن اليوم الأخير. فهو يقول في موضع ما أن المسيح سوف يقيم الإنسان "في اليوم الأخير"(يو٦: ٤٠). هنا كلمة "يوم"، المرتبطة بالأشياء الأخيرة، تشير بالأكثر إلى اليوم الأخير قبل بداية ملكوت الله حيث سيرتبط بالأكثر بنهاية الحياة الحاضرة.

يرتبط يوم الرب ارتباطاً وثيقاً بمجيء السيد المسيح. ولأجل هذا السبب بالتحديد تُستعمَل مصطلحات أخرى للإشارة إلى هذه الحقيقة. فهو يوصف بأنه يوم ظهور مجد الرب(تي ٢: ١٣)، ويُعَبّر عنه أيضاً بأنه يوم "ظهور ربنا يسوع المسيح"(١تي٦: ١٤). وفي مواضع أخرى، يتم ربطه بكلمة "مجيء" لأن الرب سيكون حاضراً. فالتلاميذ يسألون السيد المسيح: "وما هي علامة مجيئك وانقضاء الدهر"(مت٢٤: ٣).

في هذا اليوم سوف يُستَعلَن مجد الرب، وسوف يراه كل الناس، حتى الذين لم يعرفوه. يتكلم بطرس الرسول عن استعلان مجد الله(١بط٤: ١٣)، ويتكلم بولس الرسول عن استعلان ربنا يسوع المسيح "من السماء مع ملائكة قوته"(٢تس١: ٧).

تظهر هذه النصوص التي ذكرناها إيمان الكنيسة التي ترتكز بثبات على الكلمات التي أعلنها المسيح نفسه، كما على تأكيدات الرسل بأنه سيأتي اليوم الذي سينتهي فيه هذا العالم، ويأتي فيه المسيح ليدين الناس الذين سوف يُقامون عندما تعود أرواحهم لأجسادهم مرة ثانية، ويُظهَرون أمام كرسي الدينونة المخيف.

على الرغم من أنه أمر مؤكد أن السيد المسيح سوف يأتي ليدين الناس، إلا أنه كما يظهر في الكتاب المقدس، لا يكون هذا اليوم العظيم المشهور معلوماً. فقد قال السيد المسيح نفسه لتلاميذه: "وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الآب "(مر١٣: ٣٢). وعندما ظن التلاميذ بعد قيامته أن هذا اليوم قد أتى، خلصهم السيد المسيح من المفاهيم الخاطئة وقال: "ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التي جعلها الآب في سلطانه"(أع١: ٧).

بالتأكيد عندما يتكلم المسيح عن أنه لا أحد سوى الآب يعرف هذه الساعة، فهو لا يعني أنه هو نفسه كإله لا يعرفها. فالحق أن الناس والملائكة لا يعرفونها. ولكن ما

يعرفه الآب يعرفه الابن أيضاً. يفسر القديس سمعان اللاهوتي الحديث هذه الحقيقة قائلاً: "لا أحد يعلم سوى الثالوث القدوس، الإله الواحد غير المنقسم". فالله الثالوث، الآب والابن والروح القدس، ذو الجوهر والطبيعة المشتركة، يعرف الساعة التي سوف ينتهي فيها العالم ويأتي المسيح. فكلمات المسيح أن الابن لا يعرف هذه الساعة "قيلت وهو في طبيعته كإنسان وليس وهو في ألوهيته"[1]. وهذا يعني أن المسيح كان يشير هنا إلى طبيعته الإلهية، ومن الواضح أنه أراد أن يظهر أن الخليقة لا تستطيع أن تعرف ساعة ويوم انتهاء العالم ومجيئه.

إن يوم وساعة المجيء الثاني للمسيح هما ليسا فقط غير معروفين، ولكنهما أيضاً سيأتيان فجأة. يعلن المسيح هذه الحقيقة قائلاً أن هذا سيحدث مثل البرق: "لأنه كما أن البرق الذي يبرق من ناحية تحت السماء يضيء إلى ناحية تحت السماء كذلك يكون أيضاً ابن الإنسان في يومه"(لو١٧: ٢٤).

يستعمل بولس الرسول تشبيهاً آخر ليوضح مباغتة المجيء الثاني للمسيح. تماماً مثلما لا يعطي السارق تنبيهاً مسبقاً قبل مجيئه، ولكنه يدخل المنزل في وقت غير متوقع، كذلك سيكون الحال في هذا اليوم: "لأنكم أنتم تعلمون بالتحقيق أن يوم الرب كلص في الليل هكذا يجيء"(١تس٥: ١-٢)، وفي وقته سوف يبين "المبارك العزيز الوحيد ملك الملوك ورب الأرباب"(١تي٦: ١٥) يوم مجيئه.

تظهر أيضاً مباغتة هذا اليوم في نص آخر من الكتاب المقدس. فيقول المسيح في تعليمه عن يوم مجيئه العظيم غير المعروف أنه سيكون اثنان في الحقل يؤخذ الواحد ويترَك الآخر، واثنتان تطحنان على الرحى تؤخذ الواحدة وتترك الأخرى (مت٢٤: ٤٠-٤١). يقول بولس الرسول مشيراً لهذه الحقيقة أن كل الأحياء في ذلك اليوم، الذين لم يكونوا قد ماتوا، سوف يتغيرون في لحظة من الزمان: "لا نرقد كلنا ولكننا كلنا نتغير في لحظة في طرفة عين عند البوق الأخير"(١كو١٥: ٥١-٥٢).

بخلاف كون هذا اليوم غير معروف ومفاجئ، توجد علامات متعددة تشير إلى مجيئه. فلا أحد يستطيع أن يعلم هذه الحقيقة بطريقة كاملة، ولكن بحسب عمق استعداد

---

[1] - SC 122, p. 344-346.

الشخص ويقظته يستطيع أن يفهم الأزمنة من العلامات الخارجية، ولقد وُصِفَت هذه العلامات من قِبَل المسيح نفسه (مت٢٤).

العلامات الرئيسية كما يصفها المسيح هي العلامات الموجودة في الإنجيل، والتي ستُعلَن لكل الخليقة. فسيكون هناك ارتداد عظيم للناس في العالم، وسيظهر العديد من الأنبياء الكذبة، وسوف يحاول ضد المسيح أن يضل لو أمكن المختارين أيضاً مستخدماً العديد من العجائب والعلامات. وسوف تنتشر الحروب والمجاعات والاضطهادات والزلازل وما إلى ذلك.

يجب علينا على أية حال أن نقول أنه من الصعب أن نتخيل نهاية العالم ومجيء المسيح حتى من هذه العلامات. فالكنيسة تتعهد الكرازة بالأخرويات، ولكنها تعلن في نفس الوقت أنه ليس أمراً سهلاً تفسير حقائق كل جيل. فأولئك الذين استناروا ولديهم إعلان من الله هم فقط الذين يعرفون إلى حد ما أن الأمر يتعلق بالأحداث التي تسبق ظهور المسيح، بهدف واحد وهو قيادة الناس للتوبة والعودة إلى الله.

قناعة الكنيسة هي إذاً أن المسيح سوف يأتي ثانية ليدين الناس ولكن هذا اليوم وتلك الساعة غير معروفين. يستطيع فقط أصحاب العقول المستنيرة أن يدركوا الأحداث المتنوعة التي تشير إلى اقتراب الأيام، ولكنهم لا يعلمون هذا اليوم بحسب ما قاله المسيح. **بالتالي نتجنب في الكنيسة الأرثوذكسية تحديد الأزمنة والفصول التي نظن أن هذه الأحداث الأخروية سوف تحدث فيها.**

يرى الآباء القديسون أيضاً الأشياء بهذه الطريقة. وفيما يلي سوف نستشهد بالعديد من النصوص من التعاليم الآبائية المعبرة جداً.

أولاً، ما قيل عن دينونة الناس التي ستأتي بعد المجيء الثاني للمسيح "هو صعب التفسير". لأنه بحسب القديس سمعان اللاهوتي الحديث لا يتعلق الأمر بأحداث حاضرة ومرئية، ولكن بأحداث آتية وغير مرئية. ومن هنا يأتي الاحتياج لصلوات أكثر، وغيرة أكثر، ونقاوة روحية أكثر من قِبَل أولئك الذين يتكلمون، وأولئك الذين يسمعون. **هذا الأمر ضروري حتى يعرف المتكلم أن يتكلم حسناً والمستمع أن يسمع بفهم**[٢].

---

[2] - Ethical treatise 10, SC 129, p. 258.

إن رسالة القديس سمعان اللاهوتي الحديث هذه، والتي سوف نرجع إليها فيما بعد عندما نتحدث عن الدينونة عند مجيء المسيح، هي رسالة عظيمة الأهمية لأن هذا الموضوع هو مجال لأخطاء متعددة. يوجد أناس يتكلمون عن الأحداث الأخروية من منظور متمركز حول الإنسان، ويشوهون بطرق متعددة النصوص من الكتاب المقدس والآباء، وبالتالي يقودون الناس إلى الوقوع في الأخطاء واليأس. وبالمثل يوجد آخرون يفهمون كلمات الكتاب المقدس والآباء بحسب مفاهيمهم. ومن هنا تظهر الحاجة للحذر الروحي والتمييز الكبير حتى تُفهَم هذه الرسالة وتؤدي إلى التوبة. **لأن ما يقود إلى الخوف النفساني واليأس الإنساني ليس مستقيماً، وعلى العكس، كل ما هو أصيل ومستقيم يقود الإنسان من خلال الخوف الروحاني إلى الرجاء في الله والتوبة والصلاة.**

ثانياً، يقول القديس سمعان اللاهوتي الحديث أن يوم مجيء المسيح يسمى يوم الرب ليس لأنه اليوم الأخير في أيام الأرض، ولا لأنه من المتوقع مجيء المسيح في هذا اليوم، ولا لأن الناس سيحاكمون في هذا اليوم، "ولكن إله وسيد الكون سوف يسطع في هذا اليوم في مجد ربوبيته". ويسمى أيضاً هذا اليوم يوم الرب بسبب نور ربوبيته الساطع وليس بسبب ظهور بسيط. ومثلما يحدث عندما تختفي كل النجوم أثناء النهار بواسطة ضوء الشمس، فإن نفس الشيء سوف يحدث في هذا اليوم، إذ أن كل الأشياء المرئية سوف تتوارى وتفسح مجالاً لخالق السموات والأرض. وهذا الذي هو الآن غير مرئي لكل العيون سوف يكون كلاً من "الله واليوم". وبالتالي سيكون بالنسبة للقديسين يوماً من السعادة الأبدية، وبالنسبة للخطاة، الذين لم يروا هذا النور في حياتهم من خلال التطهير، فسوف يكون المسيح غير متاح في المستقبل[٣].

ثالثاً، عندما يتحدث الكتاب المقدس عن المجيء الثاني للمسيح، فإنه يذكر البرق والسحاب والأبواق والعروش وتشبيهات أخرى. يقول القديس غريغوريوس بالاماس أن رسالة المجيء الثاني للمسيح هي رسالة تنازلية. ففي الواقع كل هذه الأحداث هي فوق العقل البشري، والحكمة البشرية، والإدراك. يعلم المسيح بدقة كل الأشياء التي سوف تحدث، إلا أنه "ينزل لمستوى قدرة أولئك المتلقين التعليم"[٤]. تعتاد الطبيعة البشرية هذه

---

[3] - Ibid. p. 260.
[4] - Gregory Palamas, Homily 4, EPE 9, p. 110 (GK).

الحقائق البشرية الحساسة، وبالتالي تستطيع تفهم الأحداث الأخروية بهذه الطريقة. هذا هو السبب الذي يجعلنا نقول أن المسيح يستعمل متنازلاً مثل هذه التشبيهات والتصويرات.

سوف تكون هناك دينونة في الواقع، وسيكون هناك نعيماً للأبرار وألماً للأشرار. سوف يكون هناك جحيماً وفردوساً، ولكن لن يكون هناك أشياءً حسية حيث أننا نعرف جيداً من التقليد الآبائي أن المسألة لا تتعلق بأشياء مخلوقة؛ بل وحتى نار الجحيم هي ليست ناراً مخلوقة وحسية ولكنها غير مخلوقة. يجب على القارئ أن يصبر حتى يدرس الفصل المتعلق بهذا الأمر والذي عنوانه "الفردوس والجحيم" حتى يقتنع بكيفية فهم كل هذه الأشياء.

لذلك لا ينبغي علينا التوقف عند الأمثلة الحسية فنفقد جوهر ما يقال. ولا ينبغي علينا أيضاً أن ننظر لجوهر هذه الأشياء ببساطة متغاضين عن الأمثلة. وطالما أن المسيح استعملها، ينبغي علينا أن نحافظ عليها ونشرح معناها الأعمق لكي نقود الناس للتوبة وليس للخوف.

رابعاً، يقارَن المجيء الثاني للمسيح بمجيئه الأول. فعندما نتحدث عن المجيء الأول نعني صيرورة المسيح إنساناً، وعندما نتحدث عن المجيء الثاني نعني مجيء المسيح ليدين الناس. يوجد فرق واضح بين المجيئين الأول والثاني.

يوضح القديس غريغوريوس بالاماس الفرق بين هذين المجيئين. إنه يقول أنه في المجيء الأول كان مجد ألوهيته مخفياً وراء الجسد الذي أخذه منا ولأجل خلاصنا. وحتى الآن مجد لاهوته مخفي في الآب وفي جسده الذي هو الله بالفعل. ولكن حينئذ عند مجيئه الثاني "سوف يستعلن كل مجده". ثم سوف يظهر سطوع لامع عند أطراف العالم مع أشعة ألوهيته. وفي تفسير القديس لقول المسيح "عندما يأتي ابن الإنسان في مجده ومعه كل الملائكة القديسين"، يقول أنه في مجيئه الأول جلب الملائكة، وكان محاطاً بصفوف ملائكة ولكن بصورة غير مرئية، وكبح غيرتهم ضد الهراطقة. ولكنه في المجيء الثاني سوف يأتي بوضوح مع ملائكته في كل مجده وعظمته[5].

---

[5] - Ibid. p. 120.

خامساً، نستطيع أيضاً أن نجد في كتابات القديس سمعان اللاهوتي الحديث حقيقة أخرى ترتبط بالمجيء الثاني للمسيح وترتبط أيضاً بدينونة الناس. **يعطي القديس سمعان تحليلاً موسعاً قائلاً أن المجيء الثاني للمسيح والدينونة الآتية سوف تكون بصورة رئيسية من أجل الخطاة العائشين في الأهواء والخطايا، ولكن ليس للقديسين الذين يختبرون بالفعل فردوس المسيح.** حيث أن الكثيرين هم أبناء لهذا النور وأبناء لليوم الآتي "فلن يأتي عليهم أبداً يوم الرب". من المؤكد أن المسيح سوف يأتي ليدين الناس، ولكن أولئك تمت محاكمتهم في هذه الحياة، ولن يتبع ذلك الدينونة. فحضور المسيح سيكون وعداً بالسعادة والابتهاج. عندما يعيش المسيحي في المخافة ويحافظ على وصايا المسيح، ويعيش في التوبة، فإنه يصبح متحداً بهذا النور وبالتالي يمر في الواقع خلال الدينونة في هذه الحياة. إن الذي اتحد بالله اعتمد بالنار الإلهية والروح القدس "وأصبح كله نقياً، وكله طاهراً، ابناً للنور والنهار، ولا يعود بعد إنساناً مائتاً"[6].

سوف أستشهد بنص عجيب من القديس سمعان اللاهوتي الحديث لأنني لا أستطيع ترك هذا النص بدون تعليق، ولكن من المستحيل أيضاً أن أقوله بكلماتي الخاصة. "إن مثل هذا الإنسان لا يدان بالدينونة والعدل الآتي، لأنه قد دين مقدماً، ولا يلام من قِبَل هذا النور لأنه استنار مقدماً. ولا هو يُمتَحَن ولا يحترق بالدخول في هذه النار لأنه امتُحِن مقدماً. وعندئذ، في رأيه، لا يظهر يوم الرب لأنه صار يوماً منيراً وساطعاً بفضل الحديث مع الله ومعيته"[7].

ما يقوله القديس سمعان عجيب! وأريد التعليق على حقيقة أن الدينونة سوف تحدث بصورة رئيسية في هذه الحياة. إن الشخص الذي يرى النور يكون معمداً بالروح القدس ولا يأخذ في حسبانه يوم الرب، **لأنه باتحاده بالرب يصبح كله نهاراً منيراً ساطعاً**. يجب علينا أن نلاحظ كلمة "اتحاد" التي تعني شركة الإنسان مع الله. وفي الواقع، طالما أن الشخص يكون كله نهاراً منيراً ساطعاً، وحيث أنه نور بكليته، فإنه لا يستطيع تمييز مجيء اليوم. **فهذا اليوم هو حقيقته الوجودية الخاصة به.**

---

[6] - Ethical treatise 10, SC, 129, p. 266.
[7] - Ibid. p. 268.

هكذا بهذه الطريقة سيظهر المجيء الثاني بصورة رئيسية للخطاة الذين عاشوا بالأهواء أثناء حياتهم الحاضرة ولم يحافظوا على وصايا الله. فهذه حالة طبيعية بالنسبة للقديسين الذين يختبرونها الآن. من المؤكد أن القديسين ينتظرون المجيء الثاني للمسيح حتى تقوم أجسادهم ثانية تلك التي هي فساد الآن بحيث يتذوق الإنسان بجملته النعم الغنية التي لليوم العظيم لظهور ربنا يسوع المسيح في مجد.

وهكذا فإن المجيء الثاني للمسيح هو حقيقة غير قابلة للنقاش حيث أنها مشهود لها بكلمة الله الرؤيوية، وبتوكيد من الرسل وبخبرات القديسين الذين يعيشون بالفعل في ملكوت الله.

(٢) قيامة الأموات

ترتبط أيضاً قيامة الأموات ارتباطاً وثيقاً بالمجيء الثاني للمسيح، وهي عقيدة ثابتة جداً في الكنيسة، وهذا هو السبب الذي يجعلنا نعترف في قانون الإيمان: "وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتي".

وعندما نتكلم عن قيامة الأموات فإننا نعني قيامة أجسادهم، حيث تعود أرواحهم إلى أجسادهم المائتة فيصيرون أحياءً، وهكذا يتحد كيان الإنسان ثانية. هذا الأمر طبيعي جداً لأن الأرواح لا تفنى أبداً من الوجود، لأن خلود الروح هو عطية من الله منذ البداية. تموت الأجساد، وبالتالي عندما نتكلم عن قيامة الأموات فإننا نعني دائماً قيامة الجسد.

نستطيع هنا أيضاً أن نرى الفرق بين المدخل الفلسفي والمدخل الأرثوذكسي لقيامة الجسد. لا تستطيع الفلسفة التقليدية أن تقبل أبداً وجهة النظر بأن الأجساد سوف تقوم لأنها تؤمن ببساطة بالروح الخالدة بطبيعتها وبالجسد المائت بطبيعته. وبحسب المنظور الفلسفي القديم، فإن الروح الخالدة بطبيعتها والتي كانت من قبل في عالم الأفكار، تكون حبيسة في الجسد كما في سجن، وبالتالي يعني خلاص وفداء الروح تحررها من الجسد. وبهذا المعنى، يصبح الجسد سيئاً، ويعبِّر أسر الروح في الجسد عن سقوطها.

هذا يفسر رد فعل أهل أثينا عندما كلمهم بولس الرسول عن قيامة الأموات في آريوس باغوس. كان بولس الرسول يتكلم عن المسيح المزمع أن يأتي ليدين العالم. وقال

من بين أشياء أخرى كثيرة: "لأنه أقام يوماً هو فيه مزمع أن يدين المسكونة بالعدل برجل قد عينه مقدماً للجميع إيماناً إذ أقامه من الأموات". عند هذه النقطة قاطعه الأثينيون كما يشير سفر أعمال الرسل قائلاً: "ولما سمعوا بالقيامة من الأموات كان البعض يستهزئون والبعض يقولون سنسمع منك عن هذا أيضاً"(أع١٧: ٣١-٣٢). لقد كان رد الفعل هذا مرتبطاً بمفهوم قيامة الأجساد الميتة الذي لم يكونوا يستطيعون تفهمه.

على أية حال، يبدو واضحاً في كل التقليد الكتابي الآبائي أنه ستكون هناك قيامة للأجساد حتى يتجمع كل كيان الإنسان ثانية، **لأنه ولا حتى انفصال الروح عن جسد الإنسان تجعله يفقد أقنومه وكينونته.**

سوف نحاول فيما يلي أن نلقي نظرة مختصرة على ما يقوله الكتاب المقدس والتقليد الآبائي بخصوص قيامة أجسادنا، وأيضاً ما ستكون عليه الأجساد في الحياة بعد المجيء الثاني للمسيح. سوف نرى أن هذا يمثل إيماناً راسخاً وعلامة رئيسية في التقليد الأرثوذكسي. بالإضافة إلى ذلك، تظهر أمور عديدة قيمة الجسد مثل اتخاذ المسيح للطبيعة البشرية وتقديسها، وحقيقة أن المسيح الذي اتخذ جسداً من أمه الكلية القداسة هو نفسه الله، بالإضافة أيضاً إلى حقيقة أنه في المسيح يتحد دائماً الإلهي بالإنساني. لم يكن الجسد شراً منذ البداية، ولا هو سجن للروح، ولكنه خليقة الله الحسنة.

ينبغي علينا أولاً أن نعود لبعض النصوص من الكتاب المقدس التي تتحدث عن الجسد. يقول أشعياء النبي: "تحيا أمواتك تقوم الجثث. استيقظوا ترنموا يا سكان التراب"(أش٢٦: ١٩). يقدم سفر حزقيال النبي حدثاً عجيباً لقيامة الأجساد حيث يوضح أن العظام اليابسة بسماعها كلمة الله اكتست بالأعصاب واللحم والجلد ثم أعطى لها الروح أي النفس(حز٣٧: ١-١٤).هذا الحادث المعجزي الخارق يظهر كيف ستكون قيامة الأجساد عند المجيء الثاني للمسيح، وبالتالي تقرأ الكنيسة هذا النص في خدمة الجناز، بل وحتى بعد أن نعود للكنيسة بعد الموكب. إن قيامة المسيح هي باكورة قيامتنا، لأن المسيح في موته وقيامته غلب قوة الموت وأعطى كل الناس عطية القيامة الآتية.

لقد كان لدى اليهود إيماناً راسخاً بقيامة الأموات. ومن الواضح أنه في لقاء المسيح مع مرثا أخت لعازر بعد موت أخيها، أكد لها المسيح أن أخاها سيقوم. وعندئذ أجابت مرثا قائلة: "أنا أعلم أنه سيقوم في القيامة في اليوم الأخير"(يو١١: ٢٢-٢٣).

لقد أقام المسيح ثلاثة أشخاص من الأموات وهم ابنة يايرس، وابن أرملة نايين، ولعازر، بالإضافة أيضاً إلى قيامته الخاصة التي حدثت من خلال ألوهيته. وكل هذه كانت تأكيداً وتمهيداً لقيامة كل الناس عند المجيء الثاني للمسيح.

إننا نجد العديد من النصوص في تعليم المسيح تشير لقيامة الأموات. فقد قال في أحد أحاديثه: "تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته"(يو٥:٢٨). وقال في مناسبة أخرى: "أنا هو القيامة والحياة"(يو١١:٢٥).

لقد قبل الرسل القديسون هذا التعليم ونشروه في رسائلهم. وعلى الأخص بولس الرسول الذي يتكلم مرات كثيرة عن قيامة الجسد في رسائله التي أرسلها للكنائس التي أسسها. لقد كانت هذه الكنائس محاطة بعبادة الأوثان حيث ساد مفهوم أن الجسد هو شر، ولذا شعرت الكنيسة بهذا التأثير. إننا سوف نستشهد ببعض النصوص البارزة.

يتكلم بولس الرسول مع أهل رومية عن فداء الجسد، متلامساً بوضوح مع موضوع قيامة الجسد فيقول: "بل نحن الذين لنا باكورة الروح نحن أنفسنا أيضاً نئن في أنفسنا متوقعين التبني فداء أجسادنا"(رو٨:٢٣). ويقول لأهل تسالونيكي أن القيامة ستحدث بقوة المسيح عند مجيئه الثاني: "لأن الرب نفسه بهتاف بصوت رئيس ملائكة وبوق الله سوف ينزل من السماء والأموات في المسيح سيقومون أولاً"(١تس٤:١٦).

إننا نرى في نصوص الكتاب المقدس ليس فقط إيمان الكنيسة بقيامة الأموات عند المجيء الثاني للمسيح، ولكن أيضاً كيف ستكون هذه الأجساد. فنحن نعلم من كل التقليد الأرثوذكسي أن الأجساد ستكون روحانية.

يعلن السيد المسيح أنه في الحياة الآتية لن يكون الناس شهوانيين. فمن المعروف أن الإنسان بعد السقوط ارتدى فساداً وموتاً، وبالتالي فإن طريقة الحبل به وولادته ورضاعته تنتمي للحياة الساقطة التي بلا شك باركها الله من أجل تكاثر الجنس البشري. لكن بعد القيامة سوف تُلغى كل هذه الحالات، وسوف يعيش الإنسان مثل الملاك. فالسيد المسيح يقول: "ولكن الذين حُسبوا أهلاً للحصول على ذلك الدهر والقيامة من الأموات لا يزوِّجون ولا يزوَّجون. إذ لا يستطيعون أن يموتوا أيضاً لأنهم مثل الملائكة وهم أبناء الله إذ هم أبناء القيامة"(لو٢٠: ٣٥-٣٦).

على حين تتذوق أجساد القديسين الآن عربون مجد الله طالما أن لهم نعمة المسيح غير المخلوقة، إلا أنها سوف تتغير في ذلك الوقت وتصبح أجساد مجد. يقول بولس الرسول عن السيد المسيح أنه "سيغير شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده.."(في ٣:٢١). ومثلما يسطع جسد المسيح بالألوهية، سوف تسطع أيضاً أجساد الأبرار في السماء. بلا شك، سيكون هناك فرقاً كبيراً بين جسد المسيح وأجساد القديسين. لأن الجسد الإلهي الإنساني كان مصدراً لنعمة الله غير المخلوقة، على حين أن أجساد القديسين تقدست بواسطة نعمة الله. بالإضافة إلى ذلك، نحن نعلم جيداً من تقليدنا أن **الإنسان يتقبل الاتحاد بالله، على حين أن المسيح يصنع هذا الاتحاد.**

بيَّن بولس الرسول تعليمه عن قيامة الأموات في رسالته الأولى لأهل كورنثوس. فيبدو أن بعض الكورنثيين كانوا متأثرين بالأفكار الفلسفية عن الجسد البشري. فبولس الرسول يكتب أنه لو لم تكن قيامة للأجساد فالمسيح إذاً لم يقم (١كو١٥: ١٢-١٦).

ثم بعد ذلك يجيب على تساؤل ربما سأله الكورنثيون عن كيف يقام الأموات وبأي جسم يأتون (١كو١٥: ٣٥-٤١). وفي إجابته على هذا السؤال يضرب مثلاً من عالم المحسوسات، فالإنسان يزرع بذرة صغيرة والله يعطي لهذه البذرة جسماً مختلفاً. والبرهان هو أن الإنسان لا يزرع قمحاً ولكن بذرة، ومن خلال هذه البذرة عينها يخرج جسماً مختلفاً بحسب الأصل. وهذا بعينه ما يحدث عند قيامة الأموات، فسوف يقام الجسد بقوة السيد المسيح وبطبيعة الحال، على حين أن الأجساد ستكون هي ذاتها إلا أنها ستعمل بطريقة مختلفة. سوف يقام الميت في عدم فساد، لأنه كما يقول بولس الرسول بوضوح: "لأن هذا الفاسد لابد أن يلبس عدم فساد وهذا المائت يلبس عدم موت"(١كو١٥:٥٣).

إنه أمر هام جداً أن بولس الرسول يقدم بتفاصيل كثيرة حالة الجسد عند قيامة الأموات، فيكتب لأهل كورنثوس قائلاً: " يُزرَع في هوان ويُقام في مجد. يُزرَع في ضعف ويُقام في قوة. يُزرَع جسماً حيوانياً ويُقام جسماً روحانياً"(١كو١٥: ٤٣-٤٤). هنا نرى الفرق بين جسد الإنسان قبل الموت وبعده، وبين جسده بعد القيامة عند المجيء الثاني للمسيح.

إننا نرى في هذا النص الرسولي الخصائص المميزة التي سوف يأخذها الجسد بعد القيامة. الخاصية الأولى هي عدم الفساد بالمقارنة بجسد الفساد الذي للحياة الأرضية.

الخاصية الثانية هي المجد بالمقارنة بالهوان، والثالثة هي القوة بالمقارنة بالضعف، والرابعة هي الروحانية بالمقارنة بالحالة الحيوانية السابقة. وهذا يعني أنه على حين أن جسد الحياة الأرضية هو جسد فاسد، وفي هوان، وفي ضعف، وحيوانية، أي أنه محكوم بالوظائف الطبيعية، إلا أن جسد القيامة سيكون غير فاسد، وممجداً، وقوياً، وروحانياً.

لو قمنا بتفسير تعليم بولس الرسول على أساس تعليم الآباء، فإننا نستطيع أن نقول أن أجساد الناس بعد قيامتها ستكون غير فاسدة، ولن تحتاج لطعام، ولا نوم، ولن تكون موضعاً للتغيير. يقول الآباء أن هذه الأجساد ستكون مثل جسد المسيح الذي خرج من القبر دون أن يراه أحد، ودخل العلية وخرج منها والأبواب مغلقة، ولم يكن لديه احتياج للطعام، وقطع مسافات طويلة، وما إلى ذلك. حقاً أكل المسيح بعد قيامته، ولكن ليس بسبب احتياج، وإنما ليجعل التلاميذ يفهمون أنه لم يكن خيالاً. لقد احترق هذا الطعام بألوهيته، طالما أنه لم يكن له جهاز هضمي، ولا أجهزة أخرى التي هي مظاهر الفساد والموت.

أجساد الخطاة أيضاً سوف تتخلص من الفساد والموت، ولكنها لن تكون روحانية وممجدة كما ستكون أجساد القديسين. ومن الطبيعي أن أجساد القديسين ستتمجد حسب حالة أرواحها، فبولس الرسول يقول: "نجم يمتاز عن نجم في المجد"(١كو١٥:٤١). فكما يختلف نور الشمس عن نور القمر وعن نور النجوم، هكذا يكون مجد القديسين. فبحسب الطهارة، والاستنارة، والاتحاد بالله التي اقتناها الشخص في هذه الحياة، سيكون نوره في الحياة الأبدية. فليست المسألة مسألة محاباة من جهة الله، ولكن الشخص سوف يتلقى النعمة بحسب قدرته. **سوف يرسل الله نعمته للجميع، وسوف ينير كل واحد ويسطع بحسب حالته الروحية.**

ينبغي علينا أن نرى في هذا الإطار أن كل الناس سيكونون في عمر إنسان بالغ، حتى الطفل الذي مات في سن مبكر، بل وحتى الشخص الذي مات في سن كبير سيكون لهما نفس العمر الذي قيل أنه عمر السيد المسيح. على كل حال، من الطبيعي أنهم سيكتسبون عمر شخص بالغ الذي هو حوالي ثلاثين عاماً.

يكتب القديس سمعان اللاهوتي الحديث في أحد قصائده أن أرواح الناس التي سوف تعود لأجسادها "سوف تجد مسكنها ممتلئاً بالنور أو الظلمة، كلٌ بحسب

استحقاقه". فأولئك الذين أضاءوا مصابيحهم في هذه الحياة سيكونون في نور لن ينطفئ أبداً، وكل أولئك الذين كانوا غير أنقياء وكانت عيون قلوبهم عمياء لن يرون النور الإلهي. ستكون أجساد القديسين ظلالاً مقدسة للروح القدس؛ وتماماً مثلما كانت طاهرة هنا، فإنها سوف تقام في مجد "ساطعة ومنيرة مثل النور الإلهي"[٨].

كنت أود تقديم تعليم العديد من القديسين من جهة تأكدهم من قيامة الجسد ومن الحياة الأبدية، بالإضافة إلى كيفية حدوث القيامة. ولكنني على أية حال سوف أكتفي بتعليم القديس غريغوريوس النيصي عن قيامة أجسادنا. فسوف نفحص بعض جوانب تعليمه، وأعتقد أنه سيكون مميزاً وكافياً للاستنارة.

في البداية يعلِّم القديس غريغوريوس النيصي أنه عندما نتكلم عن القيامة، أو العودة إلى الحياة ثانية، أو تجديد العالم، أو عندما نستعمل العديد من الأسماء الأخرى، فإننا نتكلم عن الجسد الذي هو موضع انحلال، وليس عن الروح التي لكونها عديمة الفساد، وعديمة الفناء، وعديمة الموت، لن تقام لأنها لا تموت[٩].

تشتمل قيامة الجسد أيضاً علي قيامة كل الأطراف التي كانت قد دُمِرَت لأسباب مختلفة. ففي يوم القيامة، حتى الجزء من الجسد البشري الذي التُهِم بالطيور الكاسرة منذ آلاف السنين سوف يقوم "بدون أي فقدان". بل وحتى الأطراف التي أكلتها القروش، والحيتان، والمخلوقات البحرية سوف تقام مع الشخص. والأجساد التي احترقت بالنار، والتي أكلها الدود في القبر، وبوجه عام كل الأجساد التي انحلت سوف " تُسَلَم من قِبَل الأرض كاملة متكاملة"[١٠]. سوف تعود إذاً كل الأطراف المفقودة للجسد، وسيصبح الشخص كاملاً. وهذا يعني أننا سوف نقتني أجسادنا الخاصة التي لن تكون على أية حال موضوعة للانحلال والموت.

سوف يحدث هذا على أية حال لأنه مرتبط بخلق الله للإنسان. **فالله لم يخلق الإنسان لكي يموت، ولكن الموت هو ثمرة ونتيجة الخطية.** فكما أن الراعي يريد أن يكون قطيعه صحيحاً وألا يموت منه أحد، وكما يريد راعي البقر أن يستعمل العديد من الوصفات لكي

[8] - SC 196, p. 178.
[9] - Gregory of Nyssa, Homily on Easter, EPE 10, p. 436 (GK).
[10] - Ibid. p. 410-412.

ينمي ثيرانه، وكما يصلي راعي الغنم لكي تنجب الغنم توأماً، هكذا يشتهي الله أيضاً ذلك. فمن الواضح في هذه الأمثلة أن الله يشتهي أن يجدد "خليقته الخربة"[11].

يؤكد القديس غريغوريوس النيصي في عظته التي أعدها في عيد القيامة متكلماً عن قيامة المسيح وقيامة الأجساد في المجيء الثاني، أنه على أية حال سوف يكون هناك قيامة أموات، وأن هذه القيامة ليست مستحيلة على الله، كما أنه بالإضافة إلى ذلك يحلل الطريقة التي سوف تحدث بها. إن الأشياء التي يقولها القديس غريغوريوس مهمة جداً، وسوف نستعرضها باختصار.

ليست قيامة الجسد شيئاً مستحيلاً لعدة أسباب:

أولاً، الله الذي سوف يقيم الأجساد هو نفسه الذي خلق الإنسان من تراب الأرض. يقول القديس غريغوريوس أننا ننظر للخلق على أنه عطية، ولكننا لو فكرنا بطريقة أفضل سوف نرى أنه أمر رائع. ففي الواقع، كيف للتراب الدقيق أن يتكثف ويصبح لحماً، ومن نفس المادة توجد عظام وجلد ودهن وشعر؟ بمعنى أنه كيف إذ أنه جسد واحد تظهر منه أعضاء مختلفة؟ إنه يصف البنيان المختلف لكل عضو في الجسد حيث تكون الرئة رخوة، والكبد أحمر وسميك، والقلب عضو مكتنز، وما إلى ذلك.

لكنه أمر غريب أن حواء أتت من جزء صغير من ضلع آدم. فكيف أصبح الضلع رأساً، وقدماً، ويداً، وما إلى ذلك؟ الله الذي خلق الإنسان بهذه الطريقة له القدرة على إعادة خلق وإصلاح العضو الخاص بجسد فاسد. بالإضافة إلى ذلك فإن الله نفسه هو خالق كل من الخليقة الأولى والخليقة المعادة ثانية. **إذاً هي علامة للشخص الشاكر والحكيم أن يثق في الأشياء التي يقولها الله، وألا يفحص الطرق والأسباب التي تفوق قدرته**[12].

ثانياً، تُظهر الأمثلة المختلفة الموجودة في الطبيعة أن الله كلي القدرة، وأن لا شيء مستحيل وصعب عليه. فقوة الله الكلية تظهر في تنوع الطبيعة وتركيبها. فكل الطبيعة تعلن بقوة عن عظمة الله وقدرته. تُظهر معجزات إقامة الأموات التي صنعها المسيح مثل إقامة لعازر بعد أربعة أيام، وابن أرملة نايين، وابنة يايرس، أنه من الممكن

---

[11] - Ibid. p. 416.
[12] - Ibid. p. 416-418.

أيضاً لكل الناس أن يُقاموا بنفس الطريقة عندما يريد المسيح ذلك. فالنحات الذي يستطيع نحت تمثال يستطيع أن ينحت تماثيل أخرى مماثلة. وبالتالي يستطيع المسيح أيضاً الذي أقام ثلاثة أشخاص أن يقيم الآخرين أيضاً.وهكذا تكون الإجابة على سؤال كيف يقوم الأموات إلى الحياة هي السؤال: "وكيف أقيم لعازر بعد أربعة أيام؟".[١٣]

ليست فقط الخليقة الأولى هي التي تظهر قوة وقدرة الله الكلية، ولكن أيضاً ما يتبع، وما يحدث في الطبيعة. نحن نعلم أن ميلاد الإنسان هو ثمرة عمل الله، فالشخص يُحبَل به بواسطة نعمة الله، ويبقى في الرحم ويولد وينمو. يقول القديس غريغوريوس النيصي أن قيامة الأموات قد تكون بنفس الطريقة التي يولد بها الشخص. إنه أمر غريب جداً على المنطق البشري كيف أن الحيوان المنوي الذي يكون في البداية بلا شكل يكتسب شكلاً، ومن ثم تتكون أعضاء الجسم البشري بالتدريج. **لو أن الشخص يأتي للوجود من حيوان منوي عديم الشكل، فليس إذاً من الصعب على المادة الموجودة في القبور والتي كان لها شكل من قبل أن تتجدد ثانية على شكلها القديم**، وليس من الصعب على التراب أن يتحول إلى إنسان ثانية كما حدث في الخليقة الأولى[١٤].

يعتبر بعض الناس أنه من غير الوارد أن تقوم الأجساد ثانية، وأن يعاد بناء الشخص ثانية بعد الموت، بينما أنهم يعتبرونه أمراً طبيعياً جداً أن يتكون الجنين وينمو الشخص من خلال الولادة الطبيعية. ولكن لو كان الأمر الثاني وارد الحدوث، هكذا يكون الأول طالما أنه نفس الإله الذي يخلق كل منهما.

إنه يستشهد أيضاً بحالة الفخاري الذي بعدما يصنع أشياءً جميلة من الطين، يدخل أحدهم ورشته بعد الاحتفال ويدمرها. ولكن لو أراد الفخاري الماهر، فإنه يستطيع أن يصلح ما حدث صانعاً نفس الأشياء ثانية بصورة ليست أقل مما كانت عليه من قبل. فمن الحماقة أن نظن أن الفخاري، الذي هو خليقة صغيرة من قدرة الله، يستطيع أن يفعل مثل هذا، وألا نؤمن أن الله يستطيع أن يستعيد الأموات.

يستخدم بولس الرسول تشبيه حبة الخردل التي تقع في الأرض، وتموت، وتخرج منها نبتة قمح عظيمة. ويكيف القديس غريغوريوس هذا التشبيه ببراعة. فبعد أن تناول

---

[13] - Ibid. p. 420-422.
[14] - Ibid. p. 422-424.

بالتحليل الدقيق ما حدث لحبة الخردل الصغيرة هذه، وكم عدد الأسرار المخفية فيها، يقول أنه من العجيب أن حبة قمح جافة، عندما تتعفن، تصنع معجزة لأنها تسقط في الأرض وحدها وتخرج منها براعم كثيرة. إن تجديد الإنسان أسهل من تجديد القمح. فلا يتلقى الإنسان خلال قيامته شيئاً أكثر مما كان لديه من قبل[15].

يستخدم الآباء العديد من التشبيهات المأخوذة من الطبيعة ويقدموها لرعيتهم. إننا نرى ذلك في العديد من عظاتهم، وكذلك في عظة القديس غريغوريوس التي نفحصها الآن من جهة هذه النقطة. فهو لكي يوضح إمكانية القيامة من الأموات يقوم، بطريقة رائعة وموضوعية ومعبرة، مستخدماً ألواناً حية بموهبة أدبية، بتحليل كيف أنه خلال فصل الشتاء تجف الأشجار، وعند بداية فصل الربيع تحمل الزهور وتصبح مكاناً تجتمع فيه العصافير ويستمتع بها الناس. وبالمثل أيضاً، تختبئ الزواحف والثعابين في الأرض أثناء فصل الشتاء في بيات شتوي، وبسرعة عندما يأتي الفصل المناسب حيث تدب الحياة بعلاماتها، فإنها تقفز خارجاً وتبدأ نشاطها. فمثلما تستيقظ الثعابين من بياتها الشتوي عند سماعها حركة الحياة، هكذا أيضاً أجساد الناس الميتة سوف تستقبل أرواحها، وتقوم عند سماعها صوت بوق الرب.

إنه يعطي وصفاً رائعاً للإنسان منذ الولادة حتى الموت. فهو يلاحظ أن حياة الإنسان تشبه حياة الحيوانات حيث أنها تخضع للتغير والتنوع. فالإنسان بعد ولادته ينمو بإطراد، ويكتسب الوظائف المتنوعة وهو إذ يكبر ويصل لنهاية حياته يصبح طفلاً من جديد إذ يتلعثم ويحبو على يديه ورجليه كما كان في بداية حياته. تُظهر كل هذه الأمور أنه أيضاً قبل الموت يخضع الإنسان لتغيرات فوق تغيرات، ذبول وتجديد[16]. سوف يحدث هذا أيضاً بصورة طبيعية أثناء القيامة. **وبمقدار ما يفنى الفاني بقانون الانحلال، بمقدار ما يتجدد بقوة وعمل الله.**

ولكن أيضاً النوم، الذي هو ضروري لانتعاشنا اليومي، وبالمثل استيقاظنا من النوم، يشيران إلى لغز قيامة الأموات. بالإضافة إلى ذلك فإن النوم هو صورة الموت، والاستيقاظ هو صورة القيامة. لقد وصف الكثيرون النوم على أنه شقيق الموت، لأن

---

[15] - Ibid. p. 424-426.
[16] - Ibid. p. 428-430.

الإنسان يكون في النوم مثل الميت بدون وعي؛ فهو لا يميز الأصدقاء والأعداء، ولا يلاحظ المحيطين به، وهذا هو السبب الذي يجعل إيذاء شخص يغط في النوم أمراً سهلاً. وعندما يستيقظ المرء من النوم، فإنه يستعيد قواه بالتدريج، ويبدو كما لو كان قد عاد للحياة. فلو كانت هناك تغيرات في الإنسان أثناء النهار والليل، فمن الحماقة ألا نؤمن بالله الذي وعد "بالتجديد الأخير"[17].

يبدو من كل تلك الأمثلة أن قيامة الجسد هي حدث طبيعي جداً. فكما نرى أن ولادة الإنسان هي حقيقة طبيعية، وكذلك تغيرات الطبيعة، ونمو النباتات، وبوجه عام كل ما نراه يحدث في الطبيعة بصورة طبيعية، يجب علينا أيضاً أن ننظر لتجديد الإنسان، وإعادة خلق وقيامة الأجساد على أنها أشياء طبيعية هي الأخرى، لأن الله الذي صنع الأولى يستطيع أيضاً أن يصنع الأخيرة.

ثالثاً، لا يتم فناء الجسد تماماً بعد أن تغادره الروح. فهو يتحلل إلى "العناصر التي كان مركباً منها" إذ أنه يتكون من أربعة عناصر: الماء، والهواء، والنار، والتراب ولكنه لا يفنى. لقد رأينا في فصل آخر آراء القديس غريغوريوس النيصي عن أنه على الرغم من أن الروح تنفصل عن الجسد، إلا أنها تتذكر عناصر وأعضاء جسدها، وتكون في تلامس معها، وفي الوقت المناسب، وبقوة الله سوف تجمعها معاً، وسوف يتكون الجسد الروحاني. يظهر هذا أنه على الرغم من انفصال الروح عن الجسد، إلا أن الشخص لا يفنى.

يقول القديس غريغوريوس النيصي في هذه العظة التي ندرسها أن الجسد لا يختفي تماماً، ولكنه يتحلل للعناصر التي كان مركباً منها، وهي "الماء، والهواء، والتراب، والنار". تُظهر حقيقة أن العناصر الرئيسية تبقى وتتحد مع هذه الأشياء التي تأتي منها بعد تحلل الجسد، أن الأشياء الجزئية تبقى أيضاً في إطار ما هو عام. وعندما تقترب هذه العناصر الرئيسية التي يتكون منها الإنسان من نماذجها الأصلية، وعلى حين تبقى النماذج الأصلية، تبقى أيضاً الأجزاء والبنود.

نحن نعلم جيداً أن العالم كله قد خُلِق من عدم، ومن مادة غير موجودة. **فلو كان من السهل على الله أن يخلق شيئاً من لا شيء، أفلن يكون من الأسهل أن يخلق**

[17] - Ibid. p. 430-432.

من عناصر موجودة؟ إذاً، طالما أن هذه الأصول موجودة فمن الممكن أن يشكل الله الإنسان ثانية[18].

رابعاً، يستوحي القديس غريغوريوس النيصي أمثلة عن قيامة الأجساد من آراء رجال عصره. فالكثيرون يعتبرون أنه أمر طبيعي جداً أن خصائص الأجساد التي انحلت تذهب لسلالتها، وأن خصائص أجساد من غير الأقارب تنتقل لأجساد أخرى، لكنهم لا يؤمنون بأنه من الممكن أن تتجدد نفس الخصائص في أصحابها الذين كانوا يقتنونها من قبل. سوف أستشهد بما قاله القديس غريغوريوس النيصي لأنه جدير بالذكر. إنه يقول أنه أمر غير قابل للتصور "... ألا نعترف أن نفس الأشياء التي امتلكها الشخص من قبل يمكن أن تتجدد وتعود للحياة ثانية"[19].

بملاحظة هذا النص نستطيع أن نتحقق من أنه عند قيامة الجسد سوف يتلقّى الناس أجسادهم الخاصة بهم بكل خصائصها المميزة، ولكنها مع ذلك سوف تكون متحولة. فطالما أن الجسد سوف يقام "في قوة وعدم فساد" فهذا يعني أنه لن تكون عليه علامات الانحلال، والفناء، والمرض. من الطبيعي ألا نعرف تفاصيل كثيرة عن هذا الموضوع، ولكنني أعتقد أن ما ذكرناه هو معبِّر جداً.

خامساً، على أية حال، يصر القديس غريغوريوس النيصي بشدة على أن قيامة الأجساد هي أيضاً أمر ضروري للناس لكي يعيشوا حياة صالحة. لأنه لو كان الموت هو نهاية الحياة، لازداد القاتل والزاني وشاهد الزور في شرورهم. **ولو لم تكن هناك قيامة فلن تكون هناك دينونة، ولو لم تكن هناك دينونة فستضيع مخافة الله، ومن الطبيعي أنه حيث ليس مخافة "فهناك يرقص الشيطان مع الخاطئ"**[20].

بالتالي عندما تتكلم الكنيسة عن الحياة الآتية والدينونة، فإنها تزيد من مخافة الله في الناس. تعطي هذه المخافة تأثيراً إنسانياً للحياة. فالتعليم عن الموت وقيامة الأجساد يعطي إذاً الإنسان عاملاً يزيد من اجتماعيته. **فالذي يطرد المخافة يصبح موضعاً للشياطين وفريسة لكل الأهواء.**

---

18 - Ibid. p. 432.
19 - Ibid. p. 442.
20 - Ibid. p. 434.

الاستنتاج المستخلص إذاً هو أنه سوف تكون هناك قيامة للأموات. تشهد كلمات الله على ذلك، وهو قد أعلن لنا ذلك، ويؤكده القديسون أيضاً بسيرهم وتعاليمهم، بل والخبرة الإنسانية أيضاً تشهد على ذلك. هذا هو السبب الذي يجعلنا نقف بتوقير أمام الجسد البشري. إننا نكرمه، ونحبه، ونجاهد لكي نطهر أنفسنا من الخطايا حتى يستطيع أن يتمجد هو أيضاً. إنه أمر مميز جداً أن حركة السكون (الهدوئية) الخاصة بما يسمى الآباء النسكيين تحولت أيضاً إلى الجسد الذي نكرمه جداً. ونحن نلحظ ذلك في كتابات القديس غريغوريوس بالاماس.

يظهر أيضاً تبجيل الجسد البشري في دفنه. فمن غير المقبول في الكنيسة الأرثوذكسية القيام بحرق الأجساد، ولكنها تُدفَن. ومن المؤكد، كما قلنا من قبل عن تعليم القديس غريغوريوس النيصي، أن الأجساد التي حُرِقَت سوف تُقام أيضاً، ولكن إن وجد شخص يطلب بإرادته أن يُحرَق جسده، فإنه يُظهِر أنه لا يؤمن بقيامته. إنه ليس غريباً أن حرق الأجساد انتشر في الأماكن التي سادت فيها المفاهيم المنادية بأن الجسد هو سجن للروح ينبغي التخلص منه لكي تتحرر. أما نحن فنحترم الجسد، وندفنه، وننتظر قيامته. فالقديسون يرقدون على رجاء القيامة، ويعترفون: "وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتي".

(٣) الدينونة الآتية

يرتبط المجيء الثاني للمسيح وقيامة الأموات ارتباطاً وثيقاً بالدينونة الآتية التي تسمى المحاكمة المستقبلية. فسوف يقف جميع الناس أمام كرسي الدينونة المخوف الذي للسيد المسيح.

إننا نعترف في قانون الإيمان قائلين أن المسيح سيأتي في مجده "ليدين الأحياء والأموات". يمثل هذا الإيمان تعليماً جوهرياً للكنيسة كما سنثبت ذلك فيما يلي. توجد في كل اجتماعات العبادة وفي الليتورجية الإلهية كلمات عن الحضور أمام عرش الله. فالكاهن يصلي: "أن تكون أواخر حياتنا مسيحية سلامية بلا حزن ولا خزي وجواباً حسناً لدى منبر المسيح المرهوب نسأل".

سوف نجد فرصة فيما يلي لكي نؤكد عل حقيقة أنه على الرغم من أننا نستعمل تشبيهات عن محكمة، إلا أن الدينونة ستكون بالأكثر ذات طابع إعلان، وظهور لحالة الشخص الروحية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن كل التشبيهات المستعملة لها طابع رمزي. وكما سنرى، فإن المسيح والقديسين يستعملون مثل هذه التشبيهات لكي يجعلوا الناس يفهمون بطريقة تصويرية هذا اليوم المخوف الذي سوف يرون فيه الواقع. **كنتيجة لذلك، إن لم نتغاضَ عن الصور فلن ندخل إلى جوهرها ومحتواها الداخلي.**

بحسب القديس سمعان اللاهوتي الحديث "فإن ما يجب علينا قوله عن الدينونة هو صعب الشرح لأنه لا يتعلق بأمور حاضرة مرئية ولكن بأمور مستقبلية غير مرئية". فالأمور الحاضرة تُرى، وأما الآتية فلا تُرى، وهذا هو السبب الذي يجعلنا في احتياج لنقاوة العقل والصلاة والغيرة الشديدة[٢١].

لقد قيل الكثير في الكتاب المقدس عن الدينونة الآتية التي هي نقطة بداية للحياة الأبدية والجحيم الأبدي. فأمثال السيد المسيح عن العشر عذارى، والوزنات، والعرس، معروفة جداً لدينا. ليس من السهل أو الممكن لنا أن نحلل كل تلك العناصر. ولكننا على أية حال سوف نتناول منها ما هو أكثر أهمية.

لقد أكد المسيح للناس أنه هو نفسه سيدين الناس في الدهر الآتي قائلاً: "لأن الآب لا يدين أحداً بل قد أعطى كل الدينونة للابن" (يو٥:٢٢). **وهذا مرتبط بحقيقة أن السيد المسيح هو النموذج الأصلي للإنسان، طالما أن الإنسان هو صورة المسيح.** ولكن الولادة الثانية أيضاً تأتي من خلال المسيح. لقد صار إنساناً، وقام ثانية، وصعد إلى السموات، ثم بعد ذلك سوف يدين الناس.

"وأوصانا أن نكرز للشعب ونشهد بأن هذا هو المعين من الله دياناً للأحياء والأموات"(أع١٠:٤٢). كرز بولس الرسول أيضاً بنفس هذا التعليم في آريوس باغوس عندما قال: "لأنه أقام يوماً هو فيه مزمع أن يدين المسكونة بالعدل برجل قد عينه مقدماً للجميع إيماناً إذ أقامه من الأموات"(أع ١٧:٣١).

يظهر في هذه النصوص الرسولية أن المسيح سوف يدين الناس. ويوجد نص مشابه، للقديس بولس في عظته لتلميذه تيموثاوس يقول: "أنا أناشدك إذاً أمام الله والرب

[21] - Ethical treatise 10, SC 129, 258.

يسوع المسيح العتيد أن يدين الأحياء والأموات عند ظهوره وملكوته"(٢تي٤: ١).يسمى إذاً المجيء الثاني للمسيح "الظهور" و"الملكوت" وهو مرتبط بدينونة الأموات والأحياء، أي أولئك الذين ماتوا سابقاً، والذين سيكونون أحياء في ذلك الوقت.

يرتبط المجيء الثاني للمسيح بالعرش، وهذا يُظهر عظمة الله وسلطان المسيح أن يدين الناس، ولكنه يُظهر أيضاً خوف الناس في مواجهة الدينونة والديّان. لقد استعمل المسيح هذه الصورة عندما قال أنه عندما يأتي مع ملائكته "فحينئذ يجلس على كرسي مجده"(مت٢٥: ٣١).

الكرسي الذي هو رمز لمجده، هو أيضاً رمز للسلطان الذي له على الناس. وأصل هذا العرش هو في عبادة الآلهة القديمة، وفي عبادة الإمبراطور الإله لدى الإغريق، ولكنه موجود أيضاً في العهد القديم وفي سفر رؤيا يوحنا. يكتب داود النبي والملك في أحد مزاميره: "ثبت للقضاء كرسيه. وهو يقضي للمسكونة بالعدل. يدين الشعوب بالاستقامة"(مز٩: ٧-٨).

هذا القول المعبر "ثبت كرسيه" ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالجلجثة. ومنذ القرن الحادي عشر، ارتبط تصوير "تثبيت الكرسي" بالمجيء الثاني للمسيح والدينونة الآتية[٢٢].

لقد ارتبط معنى الكرسي الذي يوحي بكرسي الإمبراطور وكرسي المحكمة ارتباطاً وثيقاً بدينونة المسيح للأحياء والأموات. ونحن نجده في العديد من النصوص في رسائل بولس الرسول، فهو إذ يتكلم عن حقيقة كوننا جميعاً خاضعين للمسيح وعبيداً له، وأنه لا ينبغي علينا أن ندين أحداً يؤكد قائلاً: "لأننا جميعاً سوف نقف أمام كرسي المسيح"(رو١٤: ١٠). لقد كان لدى مسيحيي روما الذين كُتبت لهم هذه الأقوال معرفة وخبرة بما يعنيه كرسي الإمبراطور وكرسي القاضي. وهو يقول نفس الشيء أيضاً لمسيحيي كورنثوس: "لأنه لابد أننا جميعاً نظهر أمام كرسي المسيح لننال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيراً كان أم شراً"(٢كو٥: ١٠). حيث أنه سيكون هناك دينونة أخيرة للناس، وحيث أن الديان الحقيقي هو السيد المسيح، لذا ينبغي على المسيحيين أن يتجنبوا إدانة الآخرين الذين هم إخوتهم. "يكتب بولس الرسول قائلاً: "ولكن الذي يحكم فيّ هو الرب... الذي سينير خفايا الظلام ويظهر آراء

[22] - See Encyclopedia of religion and ethics, vol. 5, p. 953ff (GK).

القلوب"(١كو٤: ٤-٥). يظهر في هذا النص أيضاً، بالإضافة إلى الحقيقة القائلة أن المسيح هو الديان الحقيقي للناس، الطريقة التي سوف يدين بها. **فالمسيح الذي هو النور الحقيقي، سوف يعلن بظهوره خفايا الأشياء المظلمة، وسوف يظهر كل الرغبات والشهوات الموجودة في القلب.** يتكلم بولس الرسول في موضع آخر عن الدينونة التي من القديسين فيكتب قائلاً: "ألستم تعلمون أن القديسين سيدينون العالم"(١كو٦:٢). يظهر هذا النص أيضاً الطريقة التي ستحدث بها الدينونة. فالأمر لا يتعلق بمحكمة دنيوية حيث يصدر حكم الإدانة ويوجد شهود إتهام وشهود دفاع ثم بعد ذلك يتخذ القرار. تؤخذ صورة الدينونة الآتية من المحاكمة، ولكن محتواها يكون مختلفاً. **فظهور شمس البر سوف يعلن كل شيء، وسوف يتعرى كل شيء عن مظاهره الخارجية، وسوف تكون هناك مقارنة بين القديسين والخطاة.** هذا هو المعنى المقصود بالقول أن القديسين سوف يدينون العالم. سوف نتناول كل هذه الأشياء فيما يلي عندما نتحدث عن كيفية تفسير الآباء للنصوص الكتابية التي تتكلم عن الدينونة الآتية.

إن مثل السيد المسيح عن العرس معروف جيداً. فعندما جاء الملك للمكان الذي كان مجتمعاً فيه المدعوون لعرس ابنه وجد شخصاً غير لابس لباس العرس. وعندئذ وبخه قائلاً: "يا صاحب كيف دخلت إلى هنا وليس عليك لباس العرس؟ حينئذ قال الملك للخدام اربطوا رجليه ويديه وخذوه واطرحوه في الظلمة الخارجية. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان"(مت٢٢: ١-١٤).

وبحسب تفسير القديس غريغوريوس بالاماس لهذا المثل، فإن العرس يشير إلى المجيء الثاني للمسيح ولملكوت السموات، ودخول الملك الذي هو الله هو "ظهوره وقت الدينونة الآتية". ولباس العرس الروحاني والذي كان ضرورياً للمدعوين هو الفضيلة. ومن الطبيعي أنه عندما يتحدث الآباء القديسون عن الفضيلة فإنهم يقصدون ثمار الروح القدس وليس الفضيلة البشرية السطحية. والذي ينقصه لباس العرس لن يكون فقط غير مستحق لملكوت الله، ولكنه سيعاقَب أيضاً. وليس فقط الروح بل الجسد أيضاً سوف يثبت عدم استحقاقه لحجرة العريس تلك طالما أنه لم يعِش في ضبط النفس والطهارة والعفة. وعقوبة عدم اقتناء ثياب العرس ترتبط بطرده من مكان إقامة المتنعمين ومن الارتباط الوثيق بهم. **فالأمر يتعلق بصورة رئيسية بالانفصال عن الله وعدم الاشتراك في نعمته.**

تشير حقيقة أن يديه ورجليه قد رُبِطَت بأمر الملك إلى رباطات الشخص بخطاياه المتلاحقة في هذه الحياة. **فالألم غير المحتمل والعذاب العظيم الذي يشعر به الشخص عندما يرتكب هذه الخطايا في هذه الحياة سوف يستمران أيضاً في الحياة الأبدية.** وحقيقة كونه ملقى في النار الخارجية تشير إلى "صيرورته بعيداً عن الله لأنه لم يعمل أعمال النور هنا". **وبمقدار ما أنه لم يمارس أعمال النور في هذه الحياة، بمقدار ما لن يستطيع المشاركة في النور في هذا اليوم.** وهذا هو معنى انفصاله عن الله؛ والظلمة التي سيؤخذ إليها هي مرادفة للنار التي لا تُطفَأ، والدود الذي لا يموت، والبكاء وصرير الأسنان. تشير كل هذه الأشياء "للآلامات المزمعة غير المحتملة والتي تنال كلاً من الروح والجسد" ولصرخات الأسى التي للندم العديم الفائدة الأبدي. **هذا يعني أنهم سوف يتوبون عن أعمالهم التي صنعوها، ولكنهم لن يتعزوا أبداً لأنه لم يعد هناك موضعاً للتوبة بعد**[٢٣].

إن النص الخاص بالدينونة الآتية منقطع النظير، وهو الأكثر تعبيراً، وطالما أنه تعليم السيد المسيح فهو أصيل تماماً. فلا أحد يسمى مسيحياً ويشك فيه، لأن ما قيل عن الدينونة آتٍ من فم السيد المسيح الذي لا يمكن مناقشته (مت٢٥: ٣١-٤٦).

إننا لن نستشهد هنا بنص الإنجيل الذي يصف الدينونة الآتية ولكننا سوف نعود لتفسير القديس غريغوريوس بالاماس، ومن خلال هذا التفسير سوف نلقي نظرة أيضاً على الأحداث المتعلقة بها.

عندما يأتي المسيح في مجده ومع ملائكته فإنه سوف يفصل الناس كما يفعل الراعي، فيجعل الأبرار عن يمينه والخطاة غير التائبين عن يساره. **سوف تستند الدينونة على الحب أو الكراهية التي أظهروها نحو إخوتهم الذين وجدوا أنفسهم في ظروف صعبة.** والسؤال المطروح هو: لماذا تكون أعمال المحبة هي الفيصل الوحيد؟ وهل هذا أمر سليم أن يُنقَذ الناس بواسطة أعمال المحبة، على حين يُحكَم على الآخرين بالموت الأبدي لأنهم لم يظهروا الشفقة على إخوتهم من الناس؟

يحلل القديس غريغوريوس النص تحليلاً رائعاً نابعاً من خبرة الكنيسة بجملتها. إنه يقول أن الأبرار سوف يتمتعون بملكوت الله ليس فقط بسبب أعمال المحبة التي عملوها ولكن بسبب كل كيانهم المولود ثانية. وهذا يظهر في ثلاثة أشياء.

---

[23] - Gregory Palamas, Homily 41, EPE 10, p. 574-576.

أولاً، من خلال حقيقة دعوقم "قطيعاً". فهذا التعبير يظهر كوهم أبراراً، لطفاء، صبورين، سائرين في طريق الفضيلة، وهذا يعني أنهم اتبعوا السيد المسيح الذي هو الراعي الصالح للناس؛ وليس فقط أنهم اتبعوه ولكنهم أصبحوا مشابهين له، هذا الذي هو حمل الله. أي أنهم طوال حياتهم حفظوا وصايا الله، ولكنهم كانوا أيضاً مستعدين دائماً "للموت من أجل الصلاح". البعض منهم هم أبناء الله لأنهم حراس "للميلاد الثاني السري من الله"، والآخرون هم فعلة مأجورون لأنهم حصلوا على النعمة مرة ثانية بعرق التوبة والاتضاع.

ثانياً، لقد عاش الأبرار في حياتهم المحبة التي هي تكميل الناموس، وهي الفضيلة التي تسمو فوق كل الفضائل الأخرى وتتقدمها. إن محبة الناس هي تعبير عن الإنسان الجديد المولود ثانية وخصوصاً عندما تكون هذه المحبة في إطار محبة الله.

ثالثاً، يتسم أيضاً الأبرار بالاتضاع، لأنه على الرغم من أن المسيح يذكرهم بالأعمال الصالحة التي فعلوها إلا أنهم لا يشعرون بها. فالاتضاع مرتبط بالحب. يشعر الأبرار بأنهم غير مستحقين للمديح. وبالتالي، يظهر الأبرار بكل هذه الصفات أنهم متحدون بالله ومولودون ثانية من الروح.

يحدث العكس مع الخطاة الذين سوف يقفون على يسار المسيح. إنهم لا يدانون لأنهم ببساطة أغفلوا بعض أعمال المحبة والبر الصغيرة ولكن لعكس الأسباب التي كوفئ عليها الأبرار.

أولاً، هو يدعو الخطاة أطفالاً "لكونهم وقحين وغير منضبطين وينحرفون نحو الخطية". تماماً كما تذهب الجداء للأماكن العالية هكذا يفعل الخطاة. فالخطاة غير التائبين لم يكتسبوا تعقل المسيح، و لم يصبحوا قطيعاً منقاداً بواسطة الراعي الحقيقي، ولكنهم فضلوا حياة خليعة مضطربة و لم يجعلوا أنفسهم مشابهين لحمل الله. بمعنى أنهم لم يقتنوا خاصية أن يبذلوا أنفسهم عن إخوتهم.

ثانياً، يتميز الخطاة بكبريائهم المرتبط بالسلوك بقساوة. وبعد ذلك عندما يُلامون على عدم تعاطفهم فبدلاً من أن يقتربوا باتضاع، فإنهم يعارضون ويبررون أنفسهم. وهذا يظهر أن بغضة البشر صارت طبيعتهم.

هذا هو السبب الذي يجعل الأبرار يرثون ملكوت السموات، والخطاة يُرسَلون إلى جهنم. يقول القديس غريغوريوس بالاماس محللاً هذه النقطة أن الأبرار يستمتعون بالحياة الأبدية: "لديهم حياة، وهي لديهم بوفرة". تشير كلمة "حياة" إلى الوجود مع الله، وكلمة "بوفرة" تعني أنهم أبناء وورثة لملكوت الله، أي أنهم يشاركون نفس المجد والملكوت. ليس للخطاة نصيب في الله. وفي نفس الوقت سوف يوجدون مع الشياطين وسوف يُلقون في نار جهنم[٢٤].

يفسر القديس سمعان اللاهوتي الحديث هذا النص قائلاً أن المسيح يشير إلى شيء أكثر عمقاً وأكثر جوهرية. تعني حقيقة أنه يعاتب الخطاة طالما أنه كان جائعاً و لم يطعموه، أو كان عطشاناً و لم يسقوه، أنه كان جائعاً لخلاصهم ولكنهم لم يكونوا مستحقين لهذا الخلاص.

خلق الله الإنسان على صورته ومثاله ومن خلال مجيئه للكنيسة، التي هي جسد المسيح، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالله، وبالمثل فإنه بواسطة الأسرار يصبح عضواً في جسد المسيح. **بالتالي عندما لا يعيش الإنسان بحسب وصايا الله فإنه يكون كمن ترك المسيح جائعاً وعطشاناً.**

يقول القديس سمعان محللاً هذه الفكرة أن المسيح كان جوعاناً لتحول وتوبة الإنسان، ولكن الإنسان لم يشبع هذا الجوع. لقد عطش لخلاص الإنسان الذي لم يعطه الفرصة ليتذوق ذلك. لقد كان عرياناً لأعمال الفضيلة ولكن الإنسان لم يكسُه بها، لأنه عندما تنقص المسيحي، الذي هو عضو في جسد المسيح، هذه الفضائل فإن المسيح يكون كمن تُرِك عرياناً مكشوف الأعضاء. **لقد أُلقى المسيح في سجن قلب الإنسان الضيق القذر المظلم، ولكن الإنسان لم يرغب في زيارته ولا في إخراجه للنور.** لقد كان المسيحي يعلم أنه بسبب كسله وتراخيه تألم المسيح، ولكنه لم يساعده بأعمال وأفعال صالحة[٢٥].

يبتغي المسيح بحق خلاص الإنسان الذي خلقه، ومن خلال الحب احتمل العديد من الآلامات لأجل خلاصه. وفي نفس الوقت يكون المسيحي عضواً في جسد

---

[24] - Gregory Palamas, Homily 4, EPE 9, p. 122.
[25] - SC 129, p. 306.

المسيح خلال المعمودية. ولكنه عندما لا يكون على مستوى رغبة المسيح تلك ويبقى في ظلام الخطية فإنه يحكم على نفسه.

إنه أمر مؤثر عندما يقول أنه كان في سجن القلب الضيق، المظلم، القذر. **تبقى نعمة الله في الواقع في عمق قلب الإنسان بواسطة المعمودية المقدسة.** ولكن النعمة الإلهية تتوارى بالخطايا التي نصنعها بعد انضمامنا إلى الكنيسة. **بالتالي يكون المسيح كما لو كان مسجوناً في القلب، وهذا بعينه سيكون جحيم الإنسان.**

يرتبط بهذا الموضوع تفسير القديس غريغوريوس بالاماس لمثل العشر عذارى. فبحسب المثل ذهبت الخمس عذارى الحكيمات اللواتي كان لديهن زيت في مصابيحهن إلى العرس، على حين أن الخمس عذارى الجاهلات اللواتي لم يكن لديهن زيت لم يكنَّ مستحقات لهذا الفرح العظيم (مت٢٥: ١-١٣).

بحسب القديس غريغوريوس بالاماس، يكون دخول الملكوت مرتبطاً بالبتولية ، وليس مجرد بتولية الجسد ولكن بتولية الروح. يستطيع كل واحد أن يختبر هذه البتولية التي تمارَس بالنسك، وضبط النفس، وجهادات الفضائل المتنوعة. ولكن المرء يحتاج أيضاً ليدين لكي يمسك بهما المصباح المضيء بالإضافة أيضاً إلى الزيت. اليدان هما حياة الروح النشطة، أي التوبة والجهاد لكي تتطهر الروح. أما المصابيح المضاءة فهي العقل المستقيم الذي ستوجد فيه تلك المعرفة الروحية الجادة المستندة على حياة الروح النشطة، والتي هي مكرسة خلال الحياة في الله، وتضاء بالاستنارة الآتية من قِبَله. **يبدو أن المسألة تتعلق بنقاوة القلب واستنارة العقل.** ترتبط الصلاة العقلية، والشركة الدائمة مع الله بالاستنارة التي تأتي منه. ولكن توجد حاجة لكثير من الزيت الذي هو المحبة أم كل الفضائل[٢٦].

يبدو من تحليلنا للنصوص الآبائية المتعلقة بالمحاكمة الآتية أن الدينونة الآتية هي ليست عملية قانونية بحتة ولكنها تعبير المسيح، واستعلان حالة الإنسان الروحية الداخلية. فسوف يظهر بوضوح لكل الناس الشخص المولود ثانية من الروح القدس، وسوف يُعلَن أيضاً انتسابه للمسيح الذي سوف يشع ساطعاً. وأما الذي لم يولد ثانية، وخصوصاً الذي له عقل مظلم غير مضاء سوف يُظهَر أيضاً لكل الناس لأنه لن يكون له

[26] - Gregory Palamas, Homily 4, EPE 9, p. 126.

نصيب في الله. **وتماماً مثلما تشع الشمس المشرقة بنورها على كل الأشياء، بالمثل سيكون مجيء شمس البر الحقيقية إعلاناً حقيقياً لاستعدادات الناس الداخلية ورغباتهم.** سوف نرى ذلك بوضوح خصوصاً في تعليم القديس سمعان اللاهوتي الحديث.

ينبغي أن نؤكد أولاً مرة أخرى على أن "السيد المسيح هو ملكوت السموات". فهو النور الحقيقي الذي سوف يسطع عند مجيئه ليدين الناس. يقول القديس سمعان اللاهوتي الحديث مشيراً للسيد المسيح: "أنت هو ملكوت السموات، أنت هو المسيح، أنت هو أرض الودعاء، أنت هو فردوس الخضرة، أنت هو حجرة العرس الإلهية، أنت هو قاعة المأدبة الفائقة الوصف، أنت هو المائدة المفتوحة للجميع، أنت هو خبز الحياة، أنت هو الخمر غير المسبوقة....". ثم يضيف أن السيد المسيح الذي هو الشمس غير المقترب منها سوف تسطع في وسط القديسين وبالتالي سوف يُنار الجميع بحسب إيمانهم، وأعمالهم، ورجائهم، ومحبتهم، ونقاوتهم، واستنارتهم التي تأتي من روحه القدوس. إن المنازل الكثيرة التي سوف تكون في الفردوس ستُعَد "مقياساً لمحبتهم ولرؤيتهم لله"[٢٧].

هكذا سوف يشع الشخص نور الله بحسب نقاوته الروحية. فمجيء شمس البر بين الناس سوف يعلن كل شيء. هذه هي أيضاً الطريقة التي نفهم بها قول بولس الرسول: "... حياتكم مستترة مع المسيح في الله. متى أُظهر المسيح حياتنا، فحينئذ تُظهَرون أنتم أيضاً معه في المجد" (كو٣: ٣-٤). يوجد قول آخر لبولس الرسول موازٍ لهذا القول وهو: "ولكن الكل إذا توبخ يُظهَر بالنور. لأن كل ما أُظهِر فهو نور" (أف٥: ١٣). فكل الذين أتموا الأمور الروحية في حياتهم سوف يكونون في النور، وأما أولئك الذين عملوا أموراً فاسدة فكما يعلم القديس سمعان اللاهوتي الحديث "سيكونون في ظلمة العقوبات"، وسوف تكون هوة عظيمة بينهم[٢٨].

هكذا سوف تُستعلَن طرق حياة الناس عند ظهور المسيح، وكذلك كل كيانهم، وما هو عمق قلوبهم؛ **هذا الاستعلان هو الحياة الأبدية والجحيم الأبدي**، لأن الأولى هي الشركة في الله وأما الثاني فمرتبط بعدم الاشتراك في الله وعدم الشركة معه.

إن ما سيحدث في الحياة الآتية عند الدينونة الآتية هو أيضاً ما هو حادث بالفعل الآن. يقول القديس غريغوريوس بالاماس أن المسيح هو شمس البر التي لا تغرب أبداً،

---

27 - Hymn 1, SC 156, p. 168.
28 - Ibid. p. 166.

والتي هي النور الحقيقي الأبدي، والتي توجد أرواح القديسين فيها الآن، وأيضاً ستوجد فيها أجسادهم في المستقبل. إن أولئك الذين لم يتوبوا الآن هم عائشون خارج النور على الرغم من تمتعهم بالشمس المادية المحدودة وتعزيهم بخليقة الله الأخرى. ثم في الحياة الآتية سوف يجدون أنفسهم بعيدين جداً عن الله، وسوف يُقادون إلى الجحيم الأبدي[٢٩].

إذاً ما سيكون في الحياة الأبدية يُختَبر بالفعل الآن. وهكذا يسأل القديس سمعان اللاهوتي الحديث الله أن يعطيه نعمته بالفعل الآن كعربون، بحيث أنه قد يستطيع أن يتمتع بها في الحياة الآتية: "امنحني من الآن فصاعداً أن أخدمك يا مخلصي، وأن أتلقى الروح الإلهي كعربون للملكوت، ومن ثم أستمتع بمأدبتك وبمجدك الذي قد أستطيع أن أراه يا إلهي إلى أبد الآبدين"[٣٠].

إن هذا هو اهتمام كل القديسين. فهم لا يخافون الموت، ولكنهم يخافون مما سيحدث بعد ذلك وخصوصاً عند المجيء الثاني للمسيح. إنهم لا يهتمون كثيراً بوقت موتهم مثلما يهتمون بالطريقة التي سوف يرحلون بها، أي الحالة التي سيكونون عليها عند مجيء ساعتهم لأن هذه سيكون لها نتائج أبدية.

يقول القديس سمعان أن لديه خوف ورعدة من أن يموت بعقل أعمى. فحتى لو كان المرء يتلقى النور المادي، أي نور العينين، فإنه بعد قيامته لن يكون نافعاً لو لم تكن له عينان روحيتان ليرى الله. وفي مثل هذه الحالة **يبقى الرجل الذي أتى من الظلمة مقيماً في الظلمة ثانيةً**، وسيكون منفصلاً عن الله إلى الأبد[٣١].

بالتالي سوف يُعلَن ظهور الله كشمس العري الروحي الذي للإنسان. فلدينا الآن إمكانية التخلص من عرينا الروحي بطرق عديدة، ولكن هناك سيكون كل شيء مفضوحاً. يقدم القديس سمعان اللاهوتي الحديث في إحدى عظاته الرعوية حقيقة أن الأمر لا يتعلق باستفادة المرء من كل المواهب المادية والحسية والعقلية التي يمتلكها في هذه الحياة.

إنه يتساءل عدة أسئلة، مثل أين ستكون الموائد الفاخرة والملابس الثمينة وكبرياء المتسلطين وما إلى ذلك؟ أود أن ألفت الانتباه إلى قوله أنه عندئذ سيفتضح عري روح الإنسان. فهو يتساءل: "أين هي الأسماء الرنانة؟ أين هي القداسة التي ينسبها لنا الآخرون

---

29 - Gregory Palamas, Homily 27, EPE 10, p. 186-188.
30 - Hymn 17, SC 174, p. 70-72.
31 - Hymn 1, SC 156, p. 164.

أو التي ننسبها نحن لأنفسنا؟ أين سيكون أولئك الذين يتملقوننا ويخدعوننا، الذين يدعوننا قديسين ويمسحون تراب أرجلنا؟"[٣٢].

الكثيرون منا متوهمون أنهم قديسون، وأنهم مملوئون فضائل طالما أنه يوجد أيضاً العديد من المنافقين الذين يزرعون هذا الكبرياء. ولكن في ذلك الحين، سوف يُستعلن كل شيء، وسوف يرى الجميع عريّنا.

توجد العديد من الأشياء في هذه الحياة التي تخفي عمى قلوبنا وعري أرواحنا. يحدث ذلك مراراً من خلال حكمة ومعرفة العالم. فنحن نظن في أنفسنا أننا شيء، على حين أننا في الحقيقة أموات عن الله وليس فينا أي شيء صالح. وعندئذ سوف يُستعلن كلّ شيء. يتساءل القديس سمعان اللاهوتي الحديث: "أين سيكون التعقل الذي يدعيه أولئك المكرمون من أجل معرفتهم وحكمتهم الدنيوية؟ أين افتراضنا وتوهمنا بأننا شيء على حين أننا لا شيء[٣٣]؟ هذا هو بالضبط السبب الذي سيجعل الخوف والرعدة تتملك أولئك المتوانين، والمهملين، والكسالى.

مبارك هو إذاً الرجل الذي يحيا في توبة ويرى نفسه "أقل من كل الخليقة" لأنه "سوف يقف عندئذ عن يمين الله في هيئة مجيدة"[٣٤]. ففقط أولئك الذين تزينوا بنعمة الله سوف يقفون عن يمين عرش الله.

عندما يتكلم القديس سمعان عن الملابس والعري، فإنه لا يعني فقط وجود أو غياب الفضائل ولكنه يقصد الروح القدس، أي ملء نور الله. عندئذ سيكون الليل مضيئاً مثل النهار، وسوف يزول كل منزل وكهف، بل وحتى السموات والأرض ستزولان؛ وبالتالي فإن كل الذين لم يلبسوا المسيح، أي "كل أولئك الذين لم يتلقوا النور ولم يكونوا فيه من قبل ولم يصبحوا نوراً" سوف يظهرون عراة، وسيمتلئون خزياً كبيراً. فسوف يظهر كل فعل جيد أو رديء، وكل فكر، وكل ذكرى دارت في داخلنا منذ ولادتنا وحتى آخر نفس لنا. سوف يُعلَن كل شيء أمام الناس[٣٥].

---

[32] - Catechetical discourse 29, CWS p. 316. SC 113, p. 188
[33] - Ibid.
[34] - Ibid, p. 317.
[35] - Catechetical discourse 28. CWS p. 299.

من المثير هنا أن أولئك الذين سيظهرون عراة هم أولئك الذين لم يروا النور في هذه الحياة و لم يصيروا نوراً. **في هذه الحالة لا تكون المشكلة أخلاقية ولكنها روحية وجودية.** فالعري مرتبط بعدم الاشتراك في النور في هذه الحياة. وبالتالي يوصي القديس سمعان بالدخول من الباب الضيق بواسطة التوبة "وبرؤية النور الموجود داخله" بالفعل في هذه الحياة[٣٦]. **ليست رؤية النور غير المخلوق ترفاً في الحياة الروحية ولكنها جوهرها والهدف منها.**

يظهر أيضاً في تعليم القديس سمعان الحديث شيء آخر مرتبط بما قيل. نحن نجيء للنور عندما نحفظ وصايا الله. وبالتالي يأخذنا عدم حفظ الوصايا بعيداً عن النور ويسلمنا إلى الظلمة. **تحكم إذاً وصايا الله على الإنسان.** فكلمة الله حية وتبقى إلى الأبد، وكلمة الله المهمَلة "سوف تقف في محضر كل واحد منا عندئذ وتحكم على من لم يلاحظها". سوف تكون الدينونة بواسطة وصايا الله التي ستمتحن المؤمن وغير المؤمن. وفي الحقيقة سوف يدين غير المؤمن نفسه على الأعمال التي عملها. لن يحصل إذاً المرء على معونة من الحكمة والمعرفة البشرية ولا من فصاحة الكلمات ولا من الأموال والمقتنيات الأرضية[٣٧].

نرى أيضاً في التقليد الكتابي الآبائي طريقة أخرى سوف يدان بها الناس في الدينونة الآتية. لقد قيل أن الناس سيحاكمون من القديسين. إننا نجد ذلك بالفعل في كلمات المسيح لتلاميذه: "الحق أقول لكم إنكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضاً على اثني عشر كرسياً تدينون أسباط إسرائيل الإثنى عشر"(مت١٩: ٢٨).

يتمسك بولس الرسول بنفس الشيء. فهو إذ يلوم المسيحيين على اللجوء للمحاكم الدنيوية لحل شئونهم المختلفة يقول: "ألستم تعلمون أن القديسين سيدينون العالم؟" (١كو٦: ٢). ولكن كيف عرف القديسون هذه الدينونة؟

يجيب القديس سمعان على هذه النقطة أيضاً. إنه يقول أن كل شخص يجد نفسه مواجهاً للحياة الأبدية ولهذا النور غير المعبر عنه، سوف يرى "شخصاً مشابهاً له وسيدان بواسطته". **فكل الذين عاشوا على الأرض بطرق الحياة المختلفة سيدانون بواسطة**

---

36 - Ibid, p. 300.
37 - Hymn 31, SC 174, p. 396-398.

آخرين عاشوا معهم في نفس ظروف الحياة. فالبعض عاش بحسب إرادة الله والبعض الآخر رفض وصاياه. هذا يعني أنه لن يكون هناك عذراً بأن ظروف الحياة كانت صعبة وبالتالي لم يستطيعوا أن يعيشوا بحسب وصايا الله.

هكذا سيدان الآباء من قِبَل آباء، والأقارب والأصدقاء من قِبَل أقارب وأصدقاء، والإخوة من قِبَل إخوة، والأغنياء من قِبَل من كانوا أغنياء، والفقراء من قِبَل من كانوا فقراء، والمتزوجون من قِبَل الذين تميزوا في الحياة الزوجية، وهكذا... فعندما ينظر الخطاة للخطاة الذين تابوا، وعندما يرى الزناة الزناة الذين تابوا، وعندما يرى الملوك الملوك القديسين، وبوجه عام عندما يرى كل شخص أن شخصاً آخر مثله وله نفس طبيعته، ونفس اليدين والعينين، ونفس ظروف الحياة قد خلص فعندئذ سيصبح ذلك دينونة ذاتية لأنه لن يكون لديه حجج ولا أعذار[٣٨].

سوف أستشهد بكلمات مميزة جداً للقديس سمعان: "وهكذا سوف يدان كل واحد منا نحن الخطاة بواسطة القديسين، وبالمثل غير المؤمنين بواسطة أولئك الذين يؤمنون، والخطاة الذين فشلت توبتهم بواسطة أولئك الذين ربما يكونون قد أخطئوا أكثر ولكنهم تابوا بحرارة"[٣٩].

إنه أمر رديء بالنسبة للمرء أن يرى في مجد الله "هذا الذي ترهبن معه قائماً عن اليمين، والذي أكل وشرب معه، زميله الذي كان معاصراً له" محاطاً كلية بمجد عظيم بينما يبقى هو على العكس من ذلك. فعندئذ سيكون غير قادر على الكلام بالمرة[٤٠].

هذا هو بالضبط المعنى المقصود من أننا سوف ندان من قِبَل القديسين. فسوف نلام بتوبتهم وبحقيقة كونهم عاشوا في نفس الظروف، ومع ذلك أظهروا اقتناءهم للروح القدس وتشبههم بالسيد المسيح في كل ناحية، ولن نكون عندئذ قادرين على تبرير أنفسنا بالمرة.

توجد نقطة أخرى نراها في تعليم القديس سمعان اللاهوتي الحديث ، وهي أنه في الدينونة الآتية سوف يُحرَم من الحياة الأبدية الذين لم يقبلوا الروح القدس؛ فليس فقط

---

[38] - Discourse 5, CWS p. 107, SC 96 p. 434-436.
[39] - Discourse 5, CWS p. 115, SC 96 p. 458.
[40] - Ibid.

الذين أخطئوا هم الذين سيُحرَمون من الفردوس. فقد يوجد شخص لم يخطئ، ولكن لو لم يكن له فضائل التي هي ثمرة الروح القدس فإنه سوف يُحرَم من الحياة الأبدية، وسوف يُلفَظ من الفردوس ويذهب إلى الجحيم. وقول القديس سمعان هو قول بارز: **"حتى لو لم تكن له خطية ولكنه بلا فضائل فسيقف عرياناً"**[41]. إذاً، حتى لو لم نكن قد ارتكبنا خطايا فسوف نثبت عدم استحقاقنا لمجد الله لو كنا بدون فضائل.

وهو يذهب أبعد من ذلك أيضاً ليؤكد أن الفضائل ليست كافية، ولكننا نحتاج أيضاً لمجد الله ولنعمته. أي أن الفضائل هي ليست مجرد إنجازات بمجهود الشخص الفردي، ولكنها ثمار للروح القدس. وتماماً مثلما لم يحفظ آدم وصايا الله فحُرِم من مجد الله وحُرِم من الفردوس، هكذا أيضاً كل من سيوجد "محروماً حقاً من مجد الله" سوف يُحرَم من فردوس ملكوت الله ومن حجرة العرس السماوية[42].

إن ما يحتاجه المرء لكي يدخل ملكوت الله في المجيء الثاني للمسيح هو شركة الروح القدس. فيوم الدينونة رهيب، لأنه بخلاف أشياء أخرى سوف يتعلم المرء "أن الذين ليس لديهم الروح القدس ساطعاً مثل المصباح في أرواحهم ومقيماً في قلوبهم بطريقة غير مُعَبَر عنها سيسَلَمون للظلام الأبدي"[43].

هكذا يحثنا القديس سمعان اللاهوتي الحديث ، هذا اللاهوتي الذي يوصف بحق أنه "لاهوتي النور"، أن نبتعد عن الشرور والأهواء، وأن نحرر القلب من كل نجاسة، وأن نكتسب عقلاً طاهراً، وأن نشترك في النعمة الإلهية، وأن نتمتع بالنور الإلهي. فلو عاش المرء بهذه الطريقة، فإنه عند مجيء المسيح سوف يستعلن ويختبر فرحاً يفوق الوصف. إنه سوف يشترك في الله، على حين أن الخاطئ سوف يرى الله ولكن هذه الرؤية ستكون دينونة ذاتية وعقاباً ذاتياً، وسوف يختبر طاقة النور الحارقة.

في النهاية دعوني أقول أن المسيح سيأتي إلى العالم ثانية، وسيكون هذا مجيئه الثاني. سوف تتجدد كل الخليقة، وسوف يقوم الأموات ثانية، وأولئك الأحياء في ذلك الحين سيتغيرون، وسوف يعقب ذلك دينونة الناس. إن كل هذه الأمور هي حقائق سوف تحدث على أية حال، ولكننا لا نعلم اليوم ولا الساعة التي ستحدث فيها.

---

41 - SC 174, p. 46.
42 - Ibid. p. 44-46.
43 - Ibid. p. 146.

لذلك يحثنا السيد المسيح على أن نكون مستعدين باستمرار. وكما حدث في أيام طوفان نوح، حيث كان الناس "يأكلون ويشربون ويزوجون ويتزوجون" حتى دخل نوح الفلك وعندئذ فهم الجميع أن الطوفان قد جاء، فسوف يحدث نفس الشيء عند ظهور ابن الإنسان. لأجل هذا يقول السيد المسيح: "اسهروا إذاً لأنكم لا تعرفون في أية ساعة يأتي ربكم"(مت ٢٤: ٣٧-٤٢)، وفي نهاية مثل العشر عذارى قال: "اسهروا لأنكم لا تعرفون اليوم ولا الساعة التي يأتي فيها ابن الإنسان".

الباب السابع

الفردوس والجحيم

يؤول المجيء الثاني للمسيح، وقيامة الأجساد، وظهور كل الناس أمام كرسي دينونة المسيح المخوف، والدينونة الأخيرة إلى الفردوس والجحيم. فسوف يصل الأبرار للفردوس، أي الحياة الأبدية، والخطاة إلى الجحيم.

كان الفردوس موجوداً في بداية تاريخ الإنسان على حين أنه في النهاية سيوجد الفردوس والجحيم. وبالتالي يتكلم الكتاب المقدس كله عن الفردوس والجحيم.

يوجد تعليم جوهري في الكتاب المقدس يتعلق بأن الإنسان بعد خلقه وُضِع في الفردوس، ثم بعد ذلك فقد شركته مع الله. ومنذ ذلك الحين أصبح داخل الإنسان الاشتياق إلى حياة الفردوس هذه. وأعطى السيد المسيح بتجسده كل إنسان إمكانية العودة إلى الفردوس والوصول للشركة مع الله الثالوث. وهكذا يجاهد المرء على مدار حياته لكي يخلص ويدخل الفردوس، وخصوصاً لو كان يعيش داخل الكنيسة ويجاهد لكي يحفظ وصايا الله ويشترك في النعمة.

هكذا يكون موضوع "الفردوس والجحيم" أحد المواضيع المحورية في الكتاب المقدس والكنيسة. ولكننا على أية حال نحتاج أن ندرس ونحلل بدقة ما هو الفردوس والجحيم، وكيف يتم تفسيرهما في التقليد الأرثوذكسي. هذا العمل ضروري ولا غنى عنه لأننا بهذه الطريقة سنصبح قادرين، ليس فقط على تفسير الكتاب المقدس، ولكن أيضاً على رؤية عمل الكنيسة. وكما سوف نرى فيما يلي، فإن هذا الموضوع هو الأكثر أهمية لأنه يظهر جوهر وعمل الكنيسة. فنحن لا نستطيع أن نرى رسالة الكنيسة دون أن نفحص المفهوم الأرثوذكسي عن الفردوس والجحيم. وهذا ما يجعل نتائج هذا التفسير هائلة.

(١) الفردوس والجحيم في الكتاب المقدس

سوف نهتم في هذا الفصل لا بموضوع الفردوس المدرك المعقول كما يصفه لنا العهد القديم، ولكن بصورة رئيسية بالفردوس والجحيم في تعليم السيد المسيح والآباء الرسل.

توجد ثلاثة نصوص في العهد الجديد تتكلم عن الفردوس. الأول هو تأكيد السيد المسيح للص على الصليب: "الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في

الفردوس"(لو٢٣: ٤٣). فالفردوس الذي يتكلم عنه المسيح هو نفسه ملكوت الله. فمن الجدير بالذكر أن ملكوت الله والفردوس يُنظر إليهما على أنهما نفس الشيء لأن اللص سأله: "أذكرني يا رب متى جئت في ملكوتك"(لو٢٣: ٤٢)، والسيد المسيح أكد دخوله الفردوس. من الجدير بالذكر أن نورد تفسير القديس ثيئوفيلاكتس لهذا الأمر: "اللص في الفردوس، الذي هو ملكوت الله، وليس هو فقط ولكن كل من يذكرهم بولس، ولكنه لم يتمتع بالميراث الكامل للبركات"[٤٤].

النص الثاني الذي يتكلم عن الفردوس مذكور من قِبَل بولس الرسول ويرتبط بخبرة عاشها فيقول: "وأعرف هذا الإنسان أفي الجسد أم خارج الجسد لست أعلم. الله يعلم. أنه اختطف إلى الفردوس وسمع كلمات لا ينطق بها ولا يسوغ لإنسان أن يتكلم بها"(٢كو١٢: ٣-٤).

يفسر نيقوديموس الكاتب هذا النص قائلاً: "كلمة فردوس هي كلمة فارسية وتعني حديقة مزروعة بأشجار مختلفة...". ويقول في نفس الوقت أن اختطاف بولس الرسول إلى الفردوس يعني بحسب تفاسير عديدة "كان هو الوقت الذي تعلم فيه الكلمات السرية الفائقة الوصف عن الفردوس والتي هي مخفية عنا حتى هذا اليوم". وبحسب الرؤيا، اختطف بولس الرسول للسماء الثالثة بمعنى أنه عبر الثلاثة سموات التي هي الفلسفة العملية، والثيئوريا الطبيعية، ووصل لعلم اللاهوت الباطني الذي هو السماء الثالثة، ومن هناك اختطف إلى الفردوس كما يقول القديس مكسيموس المعترف. وهكذا دخل إلى شجرة الحياة في منتصف الفردوس، وشجرة المعرفة التي بسببها كان الشاروبيم بسيف من نار يحرسون بوابة عدن حيث وجدت كلتاهما (شجرة الحياة وشجرة معرفة الخير والشر) وكل الحقائق العظمى الأخرى التي قدمها العهد القديم[٤٥].

أما النص الثالث فهو في سفر الرؤيا. فقد قيل لأسقف أفسس من ضمن أشياء أخرى: "من يغلب فسأعطيه أن يأكل من شجرة الحياة التي في وسط فردوس الله"(رؤ٢: ٧). وبحسب أندراوس القيصري فإن "شجرة الحياة" هي إشارة لفظية للحياة

---

44 - Theophylactos, On Luke, PG 123, 1106.

45 - Nicodemus the Hagiorite: Interpretation of the 14 Epistles of the Apostle Paul, Athens, 1971, vol. 2, p. 113, note 3.

الأبدية. يعد الله "بنصيب في الأشياء الحسنة في الدهر الآتي"[٤٦]. وبالمثل، فإنه بحسب آريثا القيصري "ينبغي أن يُفهم الفردوس المبارك على أنه الحياة الأبدية"[٤٧].

بالتالي فإن الفردوس والحياة الأبدية وملكوت السموات هي أمر واحد. لن نسترسل في هذه النقطة محللين أكثر ما هو الفردوس بالنسبة لمصطلحات ملكوت الله وملكوت السموات، فالحقيقة أن **الفردوس هو الحياة إلى الأبد في شركة واتحاد مع الله الثالوث**.

تأتي كلمة "جحيم" (في اليونانية kolasi وفي الإنجليزية Hell) من كلمة Kolaso (باليونانية)، وهي لها معنيان: الأول هو "تهذيب"، والثاني "عقاب". وهي تُستعمل بصورة رئيسية بالمعنى الثاني في الكتاب المقدس، ولكن من منظور أنه ليس الله هو الذي يعاقب، **ولكن الشخص يعاقب نفسه لأنه لا يقبل عطية الله**. على أية حال، فإن غياب الشركة مع الله هي عقوبة الإنسان، وخصوصاً عندما نفكر أن الإنسان مخلوق على صورة الله ومثاله، وأن هذا هو الهدف الأعمق لوجوده.

يتكلم نصان من الكتاب المقدس عن الجحيم بوضوح.

الأول في كلمات السيد المسيح عن الدينونة الآتية عندما قال: "فيمضي هؤلاء إلى عذاب أبدي Kolosi والأبرار إلى حياة أبدية"(مت٢٥:٤٦). لو ربطنا هذا النص بالنص الذي سبقه: "اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته"(مت٢٥:٤١) لوجدنا أنه يوحد بين الجحيم والنار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته وليس للناس.

النص الكتابي الثاني الذي يحتوي على كلمة جحيم موجود في رسالة يوحنا الإنجيلي الأولى: "المحبة الكاملة تطرح الخوف إلى خارج لأن الخوف له عذاب. وأما من خاف فلم يتكمل في المحبة"(١يو٤:١٨). ومن المؤكد أنه لا يشير إلى الجحيم خاصةً، الذي هو طريقة حياة الأشرار بعد المجيء الثاني للمسيح ، ولكن إلى العذاب المرتبط بالخوف والذي هو غريب عن المحبة.

يعبر الكتاب المقدس عن حياة الجحيم بمصطلحات وتعبيرات أخرى مثل "النار الأبدية"(مت٢٥:٤١)، و"الظلمة الخارجية"(مت٢٥:٣٠)، و"نار جهنم"(مت٥:٢٢)

---

46 - On Ephesians, PG 106, 233.
47 - Ibid. PG 106, 529.

وهكذا. لكن ليس هدفي هنا هو أن أحلل هذه الكلمات أيضاً. وسوف نتعرض لها بشكل أو بآخر في فصل آخر عندما نفحص نتائج تعليم الآباء القديسين عن الفردوس والجحيم.

(٢) الفردوس والجحيم لدى الآباء القديسين

من المهم أن نلقي نظرة على تعليم الآباء القديسين عن الفردوس والجحيم لأنهم معلمو الكنيسة عديمو الغش، وحاملو الفردوس الطاهر وبالتالي لا يمكن تفسير الإنجيل بدون تعليمهم الموحى به من الله. بالإضافة إلى ذلك، فإن الكنيسة التي هي جسد المسيح الإلهي البشري تكتب الكتاب المقدس وتفسره.

إن التعليم العام لآباء الكنيسة هو أن الفردوس والجحيم غير موجودين من وجهة نظر الله ولكن من جهة الإنسان. إنه أمر حقيقي أن الفردوس والجحيم موجودان كطريقتين للحياة، ولكن ليس الله هو الذي خلقهما. إنه أمر واضح في تقليد الآباء أنه يوجد طريقان، **ولكن الله ذاته هو الفردوس بالنسبة للقديسين، وهو نفسه الجحيم بالنسبة للخطاة.**

يرتبط هذا بشدة بتعليم الآباء عن مصالحة الإنسان مع الله. لا يوجد أي موضع في الكتاب المقدس يظهر تصالح الله مع الإنسان، ولكن أن المسيح صالح بين الإنسان والله. بالإضافة إلى ذلك يظهر في كل تقليد الآباء أن الله لم يقف ضد الإنسان قط، ولكن الإنسان هو الذي جعل نفسه مضاداً لله بعدم شركته واشتراكه فيه. **يصنع إذاً الإنسان من الله عدواً له، ولكن الله لا يصنع من الإنسان عدواً له أبداً.** يرى الإنسان الله، من خلال الخطايا التي يرتكبها، في صورة غاضبة عدائية[48]. سوف نلقي نظرة على هذا الموضوع عندما نقدم باختصار تعليم آباء الكنيسة المعينين.

قد نريد أن نبدأ بالقديس اسحق السرياني الذي يتكلم عما هو الفردوس، وما هو الجحيم. فهو إذ يتحدث عن الفردوس يقول أنه محبة الله، ومن الطبيعي أنه عندما نتحدث عن المحبة فإننا نعني بصورة رئيسية قوى الله غير المخلوقة. إنه يكتب قائلاً: "الفردوس هو محبة الله حيث يوجد التمتع بكل البركات"[49]. ولكنه أيضاً إذ يتكلم عن

---

48 - see John Romanides: Romiosyni, ed. Pournaras, Thessaloniki 1975, p. 96ff.
49 - Isaac the Syrian: The ascetical homilies, Hom. 46, op. cit. p. 223.

الجحيم يقول نفس الشيء تقريباً أن الجحيم هو سوط المحبة. فيكتب قائلاً: "**أؤكد أيضاً على أن أولئك المعاقبين في جهنم يُضرَبون بسوط المحبة. وإلا فما هو أكثر مرارة وشدة من عذاب المحبة؟**"[٥٠].

الجحيم هو إذاً عذاب محبة الله. بالإضافة إلى ذلك وكما يقول القديس اسحق فإن الأسى الحاصل في القلب بسبب الخطية ضد محبة الله "هو أكثر حدة من أي خوف من العقاب"[٥١]. إنه عقاب حقيقي عندما نرفض ونعارض محبة آخر. فهو أمر مروع أن نكون محبوبين ونسلك بطريقة غير ملائمة. لو قارنا ذلك بمحبة الله، نستطيع أن نفهم عذاب الجحيم. وهذا مرتبط بما يقوله أيضاً القديس اسحق عن أنه أمر مؤلم للشخص أن يفكر أن "الخطاة في جهنم محرومون من محبة الله"[٥٢].

بالتالي، حتى المعاقبين سوف يتلقون محبة الله. **فالله سيحب كل الناس الأبرار والخطاة، ولكنهم لن يشعروا جميعاً بهذا الحب على نفس العمق وبنفس الطريقة.** على أية حال إنه أمر منافٍ للعقل بالنسبة لنا أن نصر على أن الجحيم هو غياب الله.

تعني هذه الأمور أن خبرات الناس عن الله ستكون مختلفة. "سوف يعطي الرب كل واحد بحسب مقياس تميزه واستحقاقه"، "لأنه سيبطل هناك الفرق بين المعلم والمتعلم، وسوف يكون في كل واحد محبة الجميع الملتهبة". وهكذا سيكون هناك الله نفسه الذي يعطي نعمته للجميع، ولكن الناس سيتلقون هذه المحبة بحسب سعتهم. سوف تنزل محبة الله على كل الناس، ولكنها ستعمل بطريقة مزدوجة وهي عقاب الخطاة وإعطاء الفرح للأبرار. يعبر القديس اسحق السرياني عن التقليد الأرثوذكسي في هذا الموضوع قائلاً: "تعمل قوة المحبة بطريقتين: فهي تعذب الخطاة مثلما يحدث هنا عندما يتألم صديق من صديقه، ولكنها تصبح مصدراً للفرح لأولئك الذين راعوا واجباتها"[٥٣].

هكذا سوف تنزل نفس محبة الله ونفس قواه على كل الناس، ولكنها ستعمل بطريقة مختلفة. ولكن كيف سيكون هذا الاختلاف؟

---

50 - Ibid. Hom. 28, p. 141.
51 - Ibid.
52 - Ibid.
53 - Ibid. p. 140f.

لقد قال الله لموسى النبي: "أتراءف على من أتراءف وأرحم من أرحم"(حز٣٣:١٩). يستشهد بولس الرسول بهذا النص من العهد القديم مستنتجاً: "فإذاً هو يرحم من يشاء ويقسي من يشاء"(رو٩:١٨). ينبغي علينا تفسير ذلك بمصطلحات أرثوذكسية. كيف يريد الله أن يرحم الواحد ويقسي الآخر؟ هل عند الله محاباة؟

بحسب تفسير ثيئوفيلاكتس من بلغاريا فإن هذا يرتبط بطبيعة الإنسان وليس بعمل الله. يقول القديس ثيئوفيلاكتس: "تماماً مثلما تلّين الشمس الشمع ولكنها تقسي الطين، ليس عن محاباة ولكن بسبب اختلاف مادتي الشمع والطين، هكذا أيضاً الله الذي قيل عنه أنه قسّى قلب فرعون الطيني"[٥٤]. **إذاً نعمة الله، أي محبته، التي ستسطع على الكل سوف تعمل بحسب حالة الإنسان الروحية.**

ينضم القديس باسيليوس الكبير لهذا الرأي. فهو يفسر قول المزمور: "صوت الرب يقطع لُهُب نار"(مز٩:٧) قائلاً أن هذه المعجزة حدثت مع الثلاثة فتية في أتون النار. كانت النار في هذه الحالة منقسمة إلى اثنين بحيث أنها إذ كانت حارقة بالنسبة للذين هم خارجاً كانت باردة بالنسبة للثلاثة فتية كما لو كانوا في ظل شجرة. إنه يعطي ملاحظة فيما يلي عن أن النار التي كانت معدة من الله لإبليس وملائكته "تُقطَع بصوت الله". للنار قوتان: قوة حارقة وقوة منيرة، وهذا ما يجعلها تحرق وتعطي ضوءاً. وهكذا يشعر المستحقون للنار بطبيعتها الحارقة، والمستحقون للنور بطبيعة النار المنيرة. وهكذا ينهي قوله بطريقة معبرة جداً إذ يقول: "صوت الرب يقطع لهب نار وفي هذا القطع تكون نار الجحيم بلا نور، ونور السلام يبقى غير حارق"[٥٥].

ستكون إذاً نار الجحيم مظلمة إذ ستكون مجردة من خاصية الإنارة، على حين سيكون نور الأبرار غير حارق بدون خاصية الإحراق، وسيكون ذلك نتيجة لقوى مختلفة لله. ومع هذا، فإن ذلك يوحي بأنه بحسب حالة الشخص فإنه سوف يتلقى أيضاً قوى الله غير المخلوقة.

هذا التفسير الخاص بالفردوس والجحيم هو ليس فقط خاص بالقديس اسحق السرياني والقديس باسيليوس الكبير، ولكنه تعليم عام لآباء الكنيسة الذين يفسرون بطريقة تجريدية ما قيل عن النار الأبدية والحياة الأبدية. عندما نتكلم عن التجريد لا نعني

---

[54] - Nicodemus the Hagiorite, op. cit. vol. 1, p. 110.
[55] - Basil the Great, On Psalm 28, PG 29, 297 A.

أن الآباء شوهوا تعليم الكنيسة متكلمين تجريدياً وتأملياً، ولكنهم إذ يفسرون تلك المواضيع يحاولون تخليصها من مئات الأفكار البشرية ومن صور الأشياء الحسية[٥٦]. يستطيع المرء في هذه النقطة أيضاً أن يرى الاختلاف بين الآباء الأرثوذكس الشرقيين والكاثوليك الغربيين الذين اعتبروا هذه الحقائق مخلوقة[٥٧].

هذه هي الطريقة التي يشرح بها القديس غريغوريوس اللاهوتي هو أيضاً هذه الحقيقة المهمة التي،كما سوف نرى، لها معنى عظيم للحياة الكنسية والروحية.

إنه ينصح سامعيه أن يقبلوا تعاليم الكنيسة عن قيامة الجسد والدينونة ومكافأة الأبرار. يجب استقبال هذه الأمور من منظور أن الحياة الآتية ستكون "نوراً بالنسبة لأصحاب الأذهان المطهرة" وبالطبع "بحسب درجة طهارتها" ونسمي هذا ملكوت السموات. وهي ستكون ظلمة "بالنسبة لأولئك الذين اظلّم عضو التمييز لديهم" التي هي في الواقع اغتراب عن الله "وبحسب درجة عماهم"[٥٨]. الحياة الأبدية هي إذاً نور للذين طهروا نوسهم (وبكل تأكيد بحسب عمق هذا التطهير)، وظلمة بالنسبة لأصحاب النوس الأعمى الذين لم يستنيروا بهذه الحياة و لم يصلوا للاستنارة والاتحاد بالله.

إننا نستطيع أيضاً أن نلقي نظرة على هذا الاختلاف من منظور الحقائق الحسية. إن نفس الشمس "تعطي ضوءاً للنظر السليم وليس للأعين المريضة". **ليس الخطأ هو خطأ الشمس، ولكن حالة العين.** وهذا بعينه ما سيحدث عند المجيء الثاني للمسيح. المسيح واحد "ولكنه يمثل عثرة وقيامة: عثرة للغير مؤمن، وقيامة للمؤمن"[٥٩]. كلمة الله واحدة وهي بآن واحد "مرعبة بالنسبة للذين يستحقون ذلك بسبب طبيعتهم، ومُرَحِبة بسعة بأولئك المستعدين"[٦٠] في الوقت الحالي وأيضاً بالأكثر في وقت الدينونة. ليس إذاً الجميع مستحقين لنفس الرتبة والامتياز. ولكن الواحد يستحق رتبة، والآخر يستحق أخرى "كل واحد بحسب تطهيره الشخصي كما أظن"[٦١]. سوف يتذوق المرء قوى الله غير المخلوقة بحسب طهارة قلبه وعقله.

---

56 - John Romanides, op. cit. p. 99.
57 - Ibid. p. 96f.
58 - Gregory the Theologian, Or. 40, 45, On holy Baptism, NPNFns vol. 7, p. 377.
59 - Gregory the Theologian, Or. 17, 7, To the citizens of Nazianzus, PG 35, 973D.
60 - Gregory the Theologian, Or. 39, 9-10, On the holy Lights, PG 36, 344D.
61 - Gregory the Theologian, Or. 45, 11, On Easter, NPNFns vol. 7, p. 427. PG 36, 637D.

هكذا، وبحسب القديس غريغوريوس اللاهوتي أيضاً، فإن **الله هو هو نفسه الفردوس والجحيم بالنسبة للإنسان، طالما أن كل شخص يتذوق قوى الله بحسب حالة روحه**. وبالتالي فإنه يستطيع أن يهتف في واحدة من جمل ذوكصولوجياته قائلاً: "أيها الثالوث، الذي مُنحت أن أعبده وأسبحه، الذي سوف يصير معروفاً من الجميع في يوم ما، سيُعرَف للبعض من خلال الاستنارة، وللبعض الآخر من خلال العقاب"[٦٢]. إن الله هو نفسه كل من الاستنارة والجحيم للناس؛ فكلمات القديسين واضحة ومعلِنة.

أود أيضاً أن أذكر القديس غريغوريوس بالاماس رئيس أساقفة تسالونيكي الذي يؤكد على نفس التعليم.

إنه يقول عن كلمات يوحنا السابق عن السيد المسيح أنه "سيعمدكم بالروح القدس ونار" أن هذه الكلمات تعني أن تعلن عن هذه الحقيقة أن الناس سيتلقون بدرجة نسبية خاصية النعمة، إما العقابية أم المنيرة. لقد أوردها بهذه الطريقة: "إنه يقول: إنه سوف يعمدكم بالروح القدس ونار بمعنى الاستنارة والعقاب بحسب استعداد كل واحد"[٦٣].

من المؤكد أنه ينبغي علينا أن نلقي نظرة على تعليم القديس غريغوريوس بالاماس هذا في إطار المنظور اللاهوتي الشامل الخاص بنعمة الله غير المخلوقة. يعلّم القديس أن كل الخليقة تشارك في نعمة الله غير المخلوقة، ولكن ليس بنفس الطريقة ولا بنفس العمق، وبالتالي فإن نصيب القديسين في نعمة الله يختلف عن نصيب باقي الخليقة. إنه يؤكد: "لو أن الجميع يشاركون نفس الأمر، إلا أنهم لن يشاركوه بنفس الطريقة ولكن بطريقة مختلفة، حتى لو كان لكل شيء نصيباً في كل أمور الله، إلا أننا نرى الفرق في نصيب القديسين في أنه كبير وعظيم"[٦٤].

بالإضافة إلى ذلك، نحن نعلم من كل تعليم الكنيسة أن نعمة الله غير المخلوقة تأخذ أسماءً مختلفة بحسب تأثيرات عملها. فلو كانت تطهر الشخص فإنها تسمى مطهرة، ولو كانت تنيره تسمى مانحة الاستنارة، ولو كانت تجعله يتحد بالله تسمى مؤلهة. وبالمثل توصف في بعض الأحيان بأنها مانحة الوجود، وفي أحيان أخرى بأنها محيية وبأنها معطية الحكمة. يشارك إذاً الجميع في نعمة الله غير المخلوقة، ولكن بطريقة مختلفة. بالتالي لا

---

[62] - Gregory the Theologian, Or. 23, 13, On peace 3, PG 35, 1165B.
[63] - Gregory Palamas, Homily 59, EPE 11, p. 498 (GK).
[64] - Gregory Palamas, Syggrammata vol. 2, p. 145 (GK).

ينبغي الخلط بين النعمة المؤلهة التي يشارك بها القديسون وبين قوى أخرى. ينطبق نفس الشيء على نعمة الله في الحياة الأبدية. سوف يشارك الأبرار في قوى الله المنيرة والمؤلهة، على حين أن الخطاة والنجسين سوف يختبرون قوى الله الحارقة والمعاقِبة.

إننا نجد نفس هذا التعليم في الكتابات النسكية للعديد من القديسين. فعلى سبيل المثال، يقول القديس يوحنا السلمي أن نفس النار تسمى كل من "تلك التي تحرق، وتلك التي تنير". فهو يتحدث عن النار المقدسة والسماوية التي هي نعمة الله. فنعمة الله التي يتلقاها الناس في هذه الحياة "تحرق البعض لأنهم مازالوا ناقصين في التطهير"، وأما البعض الآخر "فتنيرهم بدرجة تتناسب مع الكمال الذي حققوه"[٦٥]. في الواقع، **لا تطهر نعمة الله الخطاة غير التائبين في الحياة الأبدية، ولكن ما يقوله القديس يوحنا السلمي ينطبق على الحياة الحاضرة.** هذا مشهود له بالخبرة النسكية أن القديسين يشعرون في البداية بنعمة الله كأنها نار تحرق أهواءهم، وبعد ذلك، بعد أن يتطهر قلبهم، يشعرون بنعمة الله كأنها نور. ويؤكد الناس المعاصرون الذين يرون الله في زياراتهم النسكية للأماكن المقدسة أنه بقدر ما يتوب المرء ويختبر الجحيم في النعمة، بقدر ما تتحول النعمة أيضاً إلى نور غير مخلوق حتى لو لم يتوقع المرء ذلك. إنها نفس نعمة الله التي تطهر الإنسان في البداية، وعندما يصل لعمق كبير من التوبة والتطهير تُرى على أنها نور، وبالتالي ليست المسألة مجرد أشياء مخلوقة وحالات انفعالية بشرية، ولكنها اختبار نعمة الله غير المخلوقة.

(٣) الفردوس والجحيم في حياة الكنيسة

إننا نرى بوضوح أيضاً في نفس حياة الكنيسة الأشياء التي يصفها آباء الكنيسة القديسون والتي قمنا بتحليلها من قبل حيث استعملنا شهادات العديد من الآباء العظام. بالإضافة إلى ذلك، فإن الآباء القديسين الذين استشهدنا بهم ليسوا فلاسفة متأملين يتفحصون مواضيع الإيمان، ولكنهم يفسرون خبرات الكنيسة ويعبِّرون عن الإعلان الموجود فيها. سوف أستعمل مثالين صغيرين لكي أظهر أن ما قلناه هو قناعة وخبرة للكنيسة.

---

[65] - John of the Ladder: Step 28, CWS p. 280.

أحد الأمثلة هي الشركة في جسد ودم المسيح. **فالمناولة المقدسة تعمل بحسب حالة الشخص.** فلو كان غير طاهر فإنها تحرقه، ولو كان يجاهد لكي يتطهر ويتحد بالله فإنها تعمل بحسب ذلك. يكتب بولس الرسول عن هذا الموضوع لأهل كورنثوس قائلاً: "إذاً أي من أكل هذا الخبز أو شرب كأس الرب بدون استحقاق يكون مجرماً في جسد الرب ودمه"(١كو١١:٢٧). ولكي يؤكد النتيجة قال: "من أجل هذا فيكم كثيرون ضعفاء ومرضى وكثيرون يرقدون"(١كو١١:٣٠). وهذا لأن: "الذي يأكل ويشرب بدون استحقاق يأكل ويشرب دينونة لنفسه غير مميز جسد الرب"(١كو١١:٢٩). وهذا يعني أنه على حين أن شركة جسد ودم المسيح هو الحياة بالنسبة للذين تطهروا واتحدوا بالله، وبالنسبة للذين لم يتطهروا فإنه يكون دينونة وموت قد يصل لموت الجسد. الكثيرون ضعفاء وموتى، ويؤكد بولس الرسول أن هذا يحدث من مناولة غير المستحق للعطايا الثمينة. من أجل ذلك ينصح بولس الرسول قائلاً: "ولكن ليمتحن الإنسان نفسه وهكذا يأكل من الخبز ويشرب من الكأس"(١كو١١:٢٨).

ترتبط جملة: "ليمتحن الإنسان نفسه" بروح بولس الرسول والتي ينبغي على الإنسان بحسبها أن يقتني نعمة الله في قلبه، وترتبط أيضاً بالنص القائل: "لأنه حسن أن يثبت القلب بالنعمة "(عب١٣:٩). وهي تشير إلى أنه ينبغي على الإنسان لكي يقترب من المناولة المقدسة أن يمتحن حالته الروحية. **إن المناولة المقدسة هي طهارة للذين تطهروا، واستنارة للمستنيرين، واتحاد بالله للذين اتحدوا بالله، ودينونة وعقاب وجحيم لغير المتطهرين وغير التائبين.**

لذلك يسأل الكاهن الله في صلوات الليتورجية ألا تكون المناولة المقدسة للدينونة والعقاب، ولكن لغفران الخطايا. وصلاة القديس يوحنا ذهبي الفم مميزة: " أيها السيد المحب البشر، إيّاك نودع حياتنا كلّها ورجاءنا، ونطلب ونتضرّع ونسأل أن تؤهّلنا لأن نتناول بضمائر نقيّة أسرارك السماوية المرهوبة، أسرار هذه المائدة المقدّسة الروحيّة، لصفح الخطايا، وغفران الزلاّت، وشركة الروح القدس، وميراث ملكوت السماوات، والدالة لديك، لا لمحاكمة ولا لإدانة."

إننا نستطيع أن نرى نفس هذه الروح في كل صلوات خدمة المناولة، قبلها وبعدها. وما يحدث الآن في سر الشركة المقدسة سوف يحدث في المجيء الثاني عند ظهور

الرب. **فسيكون الله فردوساً للذين تطهروا وتابوا، على حين أنه سيكون جحيماً للذين لم يتطهروا.**

المثل الثاني هو من الكتاب والذي هو أيضاً تعبير عن تعليم الكنيسة. وبالتطلع إلى أيقونة المجيء الثاني للمسيح المصورة في الأديرة، نلاحظ أن النور الذي يحيط بالقديسين يأتي من كرسي الله، ومن كرسي الله أيضاً يخرج نهر نار يحرق كل الخطاة غير التائبين. **فنفس النبع هو نبع لكل من النور والنار.** وهذا يُعبِّر بطريقة رائعة عن تعليم آباء الكنيسة، الذي تناولناه بالفعل، الخاص بخصائص نعمة الله المنيرة والحارقة. وهذا في الواقع مرتبط بحالة الإنسان.

(٤) النتائج اللاهوتية والكنسية لهذه الحقيقة

ليست الأشياء التي قلناها حتى الآن حقائق نظرية، ولكنها مرتبطة بكل حياة الكنيسة. بالإضافة إلى ذلك، فإن تعليم الآباء القديسين عن الفردوس والجحيم هو مفتاح لتفسير الكتاب المقدس والنصوص الآبائية وحياة الكنيسة. سوف نفحص في هذا الفصل بصورة أكثر تحليلية نتائج النظرة الأرثوذكسية للفردوس والجحيم على الحياة الكنسية والروحية.

(أ) الفردوس والجحيم هما قوى لنعمة الله غير المخلوقة كما يتذوقها الناس، وبالتالي هما غير مخلوقين. وبحسب آباء الكنيسة القديسين لا يوجد فردوس غير مخلوق وجحيم مخلوق كما يعلِّم التقليد اللاتيني. فهم إذ يتبعون أوغسطينوس آمنوا أن المعاقَب لن يرى الله، وبالتالي اعتبروا نار الجحيم مخلوقة. إن جحيم دانتي ووصف المعاقَب هما من الأشياء المشهورة. وبالتالي تخيل اللاتين أن العالم مقسم لثلاثة طبقات وهي السموات غير المتغيرة للمتنعمين، والأرض المتغيرة لامتحان الناس، وعالم تحت الأرض متغير لأولئك المعاقَبين والمتطهرين. ونتيجة أخرى لهذه الرؤية هي تعليم اللاتين عن نار المطهر[٦٦].

بالتالي فإن الفردوس والجحيم موجودان ليس في صورة تهديد وعقاب من جهة الله، ولكنهما في صورة مرض وشفاء. فالذين شفوا وتطهروا يختبرون قوى نعمة الله المنيرة، على حين أن غير المشفي والمريض يختبر قوى الله الحارقة.

---

[66] - See John Romanides, op. cit. p. 96.

يوصف مجد الله في الكتاب المقدس بالمتضادات، مثل النور في مقابل الظلمة، والنار في مقابل الظلام، أو المجد في مقابل السحاب، والبرق في مقابل الدخان. فالذين عندهم محبة غير أنانية، والذين هم أصدقاء يرون الله "نور في مقابل ظلام إلهي"، على حين أن الأنانيين غير الطاهرين يرون الله الديان على أنه "نار في مقابل ظلمة"[٦٧].

هكذا يسمى الفردوس كلاً من نور وظلام. إنهما يبدوان كفكرتين متضادتين من منظور لغوي، لأن النور هو عكس الظلام، والظلام هو عكس النور. وفي الواقع يكون الظلام نوراً في تقليد الآباء "بسبب الإضاءة الباهرة". وبالمثل يوصف الجحيم بصورة النار والظلمة، ولكن هذين التصويرين متضادين.

إذاً ليس الجحيم لا نار ولا ظلمة كما نعرف هاتين الحقيقتين. ومن الطبيعي أن الفردوس ليس لا نور ولا ظلام كما نعرف هاتين الحقيقتين. وبالتالي فإن الآباء يفضلون المصطلحات التجريدية لكي يتجنبوا الارتباك.

فالقصة هي أنه لا الفردوس ولا الجحيم هو حقيقة مخلوقة، إذ أنهما غير مخلوقين. سوف يرى الأبرار والأشرار الله في الحياة الأبدية، ولكن على حين أن الأبرار سوف يشتركون ويشاركون في الله، فإن الخطاة لن يشتركوا فيه. يظهر هذا في مثل الرجل الغني الغبي. لقد رأى الرجل الغني إبراهيم ولعازر في حضنه، ولكنه لم يشترك في الله، وبالتالي كان يحترق. لقد تلقى الطاقة الحارقة لرؤية الله. وعلى الرغم من كونه مثلاً إلا أنه يعبر عن حقيقة، واستخدام شكل المثل وبهدف التعبير عن الحقائق.

(ب) بمقدار ما يكون اختبار النعمة الإلهية مختلفاً من شخص لآخر بحسب حالته الروحية، بمقدار ما يحتاج المرء للتطهير الفعلي في هذه الحياة. بحسب الآباء القديسين، يحدث التطهير بصورة رئيسية في قلب ونوس الإنسان. فالنوس هو الجزء الحاكم للنفس، والذي من خلاله يحصل الشخص على الاشتراك والشركة مع الله. يسمى اظلام الجزء الحاكم اغتراباً، ليس أن الشخص ينفصل عن الله ولكنه لا يشترك فيه. لقد اظلّم نوس الإنسان من خلال سقوطه وأصبح متوحداً مع المنطق، والأهواء والعالم المحيط. إن تطهير النوس هو أمر ضروري الآن.

---

67 - Ibid. p. 99.

يؤكد القديس غريغوريوس بطريقة مشددة قائلاً: "بالتالي يجب على المرء أن يطهر نفسه أولاً ثم بعد ذلك يتحدث مع الله". فلو أن أحداً يريد أن يصل لله ولمعرفته بدون أن يمر أولاً خلال الامتحان الضروري الذي هو تطهير القلب، فسيحدث معه إذاً ما حدث مع العديد من الحالات التي قابلناها في الكتاب المقدس، والتي يذكرها القديس غريغوريوس اللاهوتي. ما سيحدث هو الذي حدث مع الإسرائيليين الذين لم يستطيعوا رؤية وجه موسى المضاء بنعمة الله. أو ما حدث لمنوح الذي صرخ: "نموت موتاً لأننا قد رأينا الله"(قض١٣:٢٢). وسوف يحدث ما حدث أيضاً لبطرس الرسول الذي بعد معجزة صيد السمك الكثير قال: "أخرج من سفينتي يا رب لأني رجل خاطئ". وما حدث أيضاً لبولس الرسول الذي فقد بصره لأنه رأى المسيح الذي كان يضطهده دون أن يتطهر أولاً من اضطهاداته. سوف يحدث أيضاً ما حدث لقائد المئة الذي على الرغم من أنه طلب منه الشفاء، إلا أنه خوفاً منه لم يدعُه إلى بيته، وهذا على أية حال قد مدحه السيد المسيح. إذ يقول القديس غريغوريوس اللاهوتي هذه الأشياء فإنه يعطي الملحوظة التالية: لو أن أحداً منا مازال قائد مئة يخدم رئيس هذا العالم وبالتالي يكون غير طاهر، فليدرك وليقُل قول قائد المئة: "لست مستحقاً أن تأتي تحت سقف بيتي". ولكن ينبغي عليه ألا يبقى في هذه الحالة. فلو أنه يتمنى أن يرى الله فليفعل ما فعله زكا بأن يستقبل الكلمة في بيته بعد أن يتسلق شجرة الجميز "مميتاً أعضاءه التي على الأرض ورافعاً جسد الاتضاع".

من المطلوب أن يشعر المرء بعدم طهارته، ولكن مطلوب أيضاً جهاد للتطهير والشفاء. إننا نحتاج إلى تطهير أنفسنا وتجميل أرواحنا، وبالإضافة إلى ذلك أن نستنير بقوة وطاقة المسيح. وبالتالي عندما نحفظ قلبنا بكل طريقة، أي عندما نضع اليقظة داخل قلوبنا، وعندما نجهز قلوبنا للصعائد الروحية فعندئذ "نعطي ذواتنا نور المعرفة الروحية. وهنا نتكلم عن حكمة الله المخفية في سر، ونعطي أيضاً استنارة لآخرين". وبالتالي يكتب القديس غريغوريوس اللاهوتي مشدداً: "دعونا في الوقت الحالي نطهر ذواتنا وننشط أمام الكلمة بحيث أننا نستفيد حقاً، نحن الذين خلقنا على صورة الله واستقبلنا الكلمة الآتي"[٦٨].

[68] - Gregory the Theologian: Or. 39, 9-10, On the holy Lights, PG 36, 344C-345B.

هكذا يوجد حديث مستمر في الأرثوذكسية عن التطهير والتوبة بحسب قول السيد المسيح: "توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات"(مت٤:١٧). يعرف الإنسان الله فقط من خلال التوبة والخبرة **لأن الله ليس نظرية معرفية، ولا هو فكرة ولكنه مرئي.**

(جـ) **إن عمل الكنيسة الأعمق هو شفاء الإنسان وتطهير النوس والقلب.** فينبغي على الإنسان بعد أن يتطهر أن يقتني نوساً مستنيراً لكي يرى الله، ولكن لكي يحصل لنفسه على الفردوس وملكوت السموات.

يحدث هذا من خلال الأسرار والنسك. وفي الواقع ينبغي أن يكون هذان الأمران مرتبطين ببعضهما البعض. فالنسك، كما يبدو في التقليد الآبائي، يسبق المعمودية ويتبعها كما أنه يسبق المناولة ويتبعها. **فعندما نعزل النسك عن الأسرار والأسرار عن النسك فإننا ننحرف عن الحياة الكنسية.**

لو أن أحداً فحص كتاب الصلوات بعناية لوجد أنه وسيلة علاجية. فهو، لو جاز لنا القول بشكل رمزي، كتاب طبي روحي عن شفاء نفس الإنسان. وفي الواقع فهذا الشفاء كما يبدو بوضوح في كل صلوات الأسرار هو موجه نحو شفاء النوس أي استنارته. **بالتالي لا يقوم الكاهن ببساطة "بقطع تذاكر إلى الفردوس"**، ولكنه يشفي الشخص بحيث أنه عندما يرى الله يصبح بالنسبة له إله الفردوس وليس إله الجحيم طالما أننا جميعاً، أبراراً وخطاة، سوف نرى الله. لو أن أحداً فحص بعناية "النسك" الغربي، فسوف يجد أنه يهدف إلى قيادة الشخص لرؤية الله. ولكن ليست هذه هي المشكلة طالما أننا جميعاً سوف نرى الله ونتحدث معه. بالإضافة إلى ذلك، يصف الرب ذلك في النص الخاص بالدينونة الآتية. **المهم هو أن يتطهر الإنسان قبل أن يرى الله.**

للأرثوذكسية طريقة علاجية، وتظهر تلك بين أشياء أخرى في كتاب "الفيلوكاليا" والذي يقول: "فيلوكاليا الآباء النساك الذين من خلال العمل ورؤية الله تطهر نوسهم واستنار وصار كاملاً".

(د) **لا ينبغي أن يكون لدينا رغبة عارمة لرؤية مجد الله كما يفعل العديد من الناس الفضوليين**، وبالتالي يستعملون العديد من الطرق مثل التأمل بحسب الديانات الشرقية، بالإضافة إلى طرق أخرى. إن مثل هذا الفضول بخلاف أنه قد يقودنا للضلال،

يستطيع أيضاً أن يضع طريقاً مختلفاً. ففي الكنيسة الأرثوذكسية على وجه الخصوص، نشعر بأن المهمة الرئيسية هي تطهير نوسنا طالما أن الله يصبح جحيماً للشخص غـير الطـاهر. **يرتبط التطهير بشفاء الإنسان وبالطبع يكون الشفاء هو نوال الحب العديم الأنانية.**

(٥) ليس الجحيم هو غياب الله كما يقال عادة، ولكنه وجود ورؤية الله كنـار. وبالتأكيد كما قلنا في فصل آخر نستطيع بالفعل أن نتذوق الفردوس والجحيم. ومـن الأفضل أن أقول أن الطريقة التي سوف نختبر بها مجيئه الثاني تعتمد على الطريقة التي نختبر بها الله الآن.

بحسب إيليا الكاهن فإن **الفردوس هو رؤية الحقائق المعقولة**. وفي هذه الرؤيـة يدخل الذي اكتسب معرفة الله "في الصلاة كما لو كان يدخل في منـزله الخـاص". يُنظَر للشخص المنخرط في الممارسة النسكية التي هي مرحلة التطهير "على أنه عـابر"، طالما أن له الرغبة في الدخول ولكنه ممنوع بسبب حاجز سنه الروحي[٦٩]. الفردوس هـو اللاهوى الذي هو في الواقع تحول للجزء الحسي في النفس. يقـول إيليـا الكـاهن أن فردوس اللاهوى مخفي في داخلنا، وأنه "صورة لما سيسكن فيه الأبرار"[٧٠].

بحسب القديس غريغوريوس السينائي فإن النار والظلمة والدود وصرير الأسنان أي الجحيم هي "فجور دائم، وجهل مظلم شامل، وتأنق فاسق منحـرف، وخـوف، ورائحة نتنة للخطية". وبالتالي يكون الفسق والجهل والظلام والخوف ورائحة الخطيـة الشريرة هي خبرات الجحيم الحالية. وكل هذه الأمور "نشـطة كبـاكورة لعـذابات الجحيم"[٧١] حتى في الحياة الحاضرة.

إن ما نستنـتجه من هذا التحليل هو أن الكنيسة هي مستشفى ومصحة تعطي الشفاء للإنسان. وهذا هو العمل الرئيسي للكهنة، ومن هذا المنظور يستطيع الكاهن أن يهتم بالمهام الأخرى. **فالكاهن على الرغم من انشغاله بمشاكل الناس الأكثر عمومية والصدقات وأعمال البر وما إلى ذلك، إلا أن عمله الرئيسي هو شفاء الإنسان.**

---

69 - Philok. 3, p.55, 58.
70 - Ibid. p. 49, 19.
71 - 137 texts, 34, Philok. Vol. 4, p. 218.

هذا هو العمل الإنساني المتميز الذي ستكون له نتائج أبدية، **لأنه ما المنفعة من الاهتمام بالاحتياجات المادية فقط دون مراعاة مستقبل الشخص الأبدي؟** من الممكن اعتبار مثل هذه الكنيسة كنيسة عالمية بطريقة عملية، بل هي كذلك بالفعل. **لم يُخلق الإنسان للحياة الحاضرة فقط ولكن لكي يتقدم أيضاً لما هو مصنوع من روح وجسد.**

يوجد البعض ممن يتهمون الكنيسة بأنها لا تبالي بالاحتياجات الاجتماعية، وبأنها منعزلة عن الصراعات الاجتماعية. لا أحد ينكر أنه ينبغي على فاعلية الكنيسة أن تزداد في هذا المضمار، إلا أن السؤال المطروح هو: أليس الموت مشكلة اجتماعية؟ ألا يخلق الموت مشاكل اجتماعية وشخصية، بخلاف حقيقة أن كل شخص مقهور بموته، طالما أنه يحمله منذ ولادته وطالما أنه ولد لكي يموت وفي نفس الوقت هو مقهور بموت أحبائه؟ تهتم الكنيسة بمشكلة الموت الرهيبة وتساعد الإنسان على التغلب عليها بالحياة في المسيح.

أيضاً عندما تعتني الكنيسة بشفاء نوس الإنسان، يكون لذلك نتائج اجتماعية مباشرة. فالشخص الحاصل على الشفاء هو شخص مسالم وصادق وغير شهواني، وبالتالي هو رب أسرة صالح ومواطن صالح. بالإضافة إلى ذلك، فكما أن المستشفى تستمر في تقديم الشفاء أثناء الأزمات الاجتماعية، كذلك أيضاً الكنيسة لا تفقد صفتها العلاجية أثناء العديد من الأزمات وتستمر في شفاء الناس.

هكذا إذ نعيش في الكنيسة ينبغي علينا أن نُشفى، مستخدمين كل الوسائل التي تمتلكها من أسرار ونسك، وبالطريقة التي تستعملها حتى أننا الآن وعند المجيء الثاني للمسيح نحصل على تأثير النعمة المانح للاستنارة والخلاص، وليس التأثير الديان.

الباب الثامن

استعادة كل الأشياء

على الرغم من أنه يوجد في الكنيسة الأرثوذكسية حديث دائم عن الفردوس والجحيم التي هي أجزاء رئيسية من إيماننا، إلا أنه منذ وقت بعيد ظهر بعض الناس الذين وضعوا نظرية استعادة كل الأشياء، بمعنى أنه لن يكون هناك جحيماً أبدياً.

بحسب هذه النظرية، فإن الله في محبته للبشر سوف يستعيد كل الخليقة وسوف يختفي الشر، وكنتيجة لذلك لن يكون هناك جحيماً أبدياً. وهذا يعني أن كل الناس سوف يخلصون. وبالطبع فإن نظرية أخروية وخلاصية مثل هذه تقلب كل بنيان الإيمان وتستبعد كل تعاليم الكنيسة الرئيسية المعَبَّر عنها في الكتاب المقدس ونصوص آباء الكنيسة. يستطيع المرء أن يؤكد أن مثل هذه النظرية تلغي جوهر الكنيسة أيضاً.

لقد أكد العديد من المفسرين الغربيين على أن القديس غريغوريوس النيصي وضع هذه النظرية، وأن هذا المنظور انتقل لأرضنا. من أجل هذا يقول العديد من الناس أن القديس غريغوريوس النيصي، هذا الأب العظيم الذي لكنيستنا، انقاد لهرطقات قديمة عن موضوع استعادة كل الأشياء طالما أنه تكلم عن استعادة الخليقة.

لكن السؤال هو هل دعم القديس غريغوريوس مثل هذه النظريات؟ حتى رغم وجود العديد من النصوص المتعلقة بهذا الموضوع والتي تشير إلى نظرية استعادة كل الأشياء، ينبغي علينا تفسيرها في إطار مرجعية أرثوذكسية. ينبغي على هذا التحليل أن يشمل كل شخصيته بالإضافة إلى كل مناخ تعليمه. إننا سوف نقوم بهذه المهمة في هذا الكتاب.

ينبغي علينا أولاً أن نقول أن القديس غريغوريوس النيصي لم يُعَلِّم باستعادة كل الأشياء كما كان أوريجانوس يعني، والتي هي رؤية شجبتها الكنيسة مجمعياً. وعلى أية حال سوف ننتهز الفرصة في نفس الوقت لكي نلقي نظرة على المواضيع المختلفة المرتبطة بحياة الأشياء الأخيرة التي تعنينا في هذا الكتاب.

(١) الفلسفات والنظريات القديمة عن استعادة كل الأشياء

لقد انتشرت بين الشعوب القديمة نظرية انحلال العالم واستعادته. وبحسب هذه النظرية فإن العالم يتحرك على خط زمني محدد حيث تؤدي الأحداث المختلفة إلى فنائه

وتدميره، ثم بعد ذلك تبدأ حقبة جديدة من إعادة تأسيس وإعادة تشكيل وتزيين العالم. نشأت إذاً نظرية إعادة تدوير الكون من العصور الأولى[٧٢]. تُعرف إعادة خلق العالم تلك بالتناسخ أو استعادة العالم[٧٣].

توجد مثل هذه المفاهيم في المدارس الفلسفية القديمة. كانت هذه المواضيع تُناقَش في فلسفات ما قبل الرواقية (آناكسيماندر، فيثاغورس، هيراكليتوس، إمبيدوكليس)، والفلسفة الرواقية والأفلاطونية الحديثة[٧٤]. أخذت روح الإنسان أيضاً نصيباً في إعادة تدوير العالم، وهذا هو السبب الذي جعل أغلب الأنظمة الفلسفية تتحدث عن التقمص أو التناسخ أي عن عودة الروح للعالم لكي تتطهر. إننا لا ننوي عمل تحليل مفصل لنظرية استعادة كل الأشياء التي نشأت في الفلسفة القديمة. والحقيقة هي أنها خاصية مشتركة في كل الفلسفات ومرتبطة بالنظريات الأخرى عن خلق العالم، ووجود الشر، وخلق الإنسان وتناسخ الأرواح.

وضح أوريجانوس، هذا اللاهوتي العظيم في القرن الثالث، نظرية استعادة كل الأشياء بوضوح. ولقد تأثر أوريجانوس في نقط عديدة بالفلسفة، وعبَّر عما يسمى بالمسيحية الهلينية، على حين عبَّر الآباء القديسون عن هلينية مسيحية.

بحسب تعليم أوريجانوس، تتقدم أرواح الناس إلى التصالح مع الله من خلال التطهير. تصل بعض الأرواح للتطهير والتصالح مع الله في الحياة الحاضرة، ولكن تحتاج الأخرى لوقت أطول وبالتالي تعود للحياة ثانية في شكل جسدي آخر. بالتالي يتعلق الأمر بتناسخات متوالية حتى تحقق كل روح التطهير الكامل والاتحاد بالله. وبهذا المنظور تكون عقوبات الملحدين والشياطين وقتية. وعندما تتطهر كل الأرواح ينهزم الشيطان وتخضع كل الأشياء لله ويستعاد كل شيء، ويتبع ذلك قيامة الناس بأجسادهم الروحية، وبهذا المنظور تعود كل الأشياء لحالتها الأصلية.

إنه مبدأ أوريجانوس الرئيسي أن نهاية العالم ستكون مثل بدايته، وأن العقوبات الموضوعة من الله والتي تبدأ في الحياة الحاضرة سوف تستمر أيضاً بعد الموت حتى يحدث

---

72 - See Andreou Theodorou: The idea of the restoration of all things, reprint, Athens, 1959. p. 8. (GK).
73 - Ibid. p. 9.
74 - Ibid. p. 11f.

التطهير واستعادة كل الأشياء وحتى يخضع كل شيء لله. يحدث هذا التطهير من خلال النار المطهرة التي تنظف العالم من الفساد وتجدد كل الأشياء، وبالتالي سوف يُزال الشر ويُلغى إلى الأبد، وسوف يسود الخير. يبدو مما قيل أن أوريجانوس يربط استعادة كل الأشياء بتناسخ الأرواح[٧٥].

تظهر عبارة "استعادة كل الأشياء" مرة واحدة في الإنجيل في عظة بطرس الرسول في هيكل سليمان بعد شفاء الرجل المقعد، حيث يتكلم بطرس الرسول عن أشياء عديدة، ومن ضمنها التوبة والعودة إلى الله فقال: "فتوبوا وارجعوا لتمحى خطاياكم لكي تأتي أوقات الفرج من وجه الرب ويرسل يسوع المسيح المبَشر به لكم قبل. الذي ينبغي أن السماء تقبله إلى أزمنة رد كل شيء التي تكلم عنها الله بفم أنبيائه القديسين منذ الدهر"(أع٣: ١٩-٢١).

على كل حال، لا تعني عبارة "رد كل شيء" هنا استعادة وتناسخ الأرواح كما أكد الفلاسفة، ولكنها تعني الملكوت الذي سيأتي عند المجيء الثاني للمسيح، وعندئذ سوف تتجدد الخليقة. توجد أيضاً تعبيرات أخرى في الكتاب المقدس مثل تجدد و تجديد، وهي تشير أحياناً إلى تجديد العالم الذي حدث بتجسد المسيح، وأحياناً أخرى إلى تجديد الإنسان عند انضمامه إلى الكنيسة خلال المعمودية المقدسة، وأحياناً ثالثة إلى تجديد المجيء الثاني للمسيح طالما أنه في ذلك الحين سوف يتحرر العالم من الفساد الذي نتج عن الخطية.

بالإضافة إلى ذلك، يجب تفسير النص الكتابي في إطار تعليم الكتاب المقدس ككل والذي يتحدث عن فرادة الروح، ووجود الجحيم الأبدي، وحقيقة أن المحاكمة عند مجيء المسيح سوف تنتهي إلى نهايتين: إما الفردوس الأبدي أو الجحيم الأبدي، وأن هناك تجديف على الروح القدس لن يُغفَر لا في هذا الدهر ولا في الدهر الآتي، وأنه ينبغي على كل الناس أن يظهروا أمام كرسي قضاء المسيح ليتلقوا ثمرة أعمالهم سواء صالحة أم شريرة، وما إلى ذلك.

---

[75] - See Panag. Christou: Greek Patrology, vol. 2, Thessaloniki, 1978, p. 868f. (GK), and Andreou, op. cit. p. 32f (GK).

إننا لا ننوي أن نذكر هنا كل تلك النصوص الكتابية لأن لدى القارئ الفرصة ليجدها في فصول هذا الكتاب المتعلقة بهذا الموضوع. ولا يوجد أي موضع في الكتاب المقدس يدعم فكرة استعادة كل الأشياء، أي أن الأرواح سوف تعود ثانية للحياة للتطهير النهائي، وأنه لن يكون هناك جحيماً أبدياً.

هذا هو السبب بعينه الذي يجعلنا نشجب نظرية استعادة كل الأشياء. وفي كتاب "المجامع الأرثوذكسية" يُحرَم كل من يؤمن بنظرية استعادة كل الأشياء وكل المواضيع الأخرى المرتبطة بها، والصياغة فيها كالآتي: "ليكن محروماً كل من يقبل وينشر الأقوال اليونانية الخاطئة عن وجود سابق للأرواح وأن كل الأشياء لا تأتي من العدم، وكل من يقر بوجود نهاية للجحيم واستعادة للخليقة وللشئون البشرية مرة أخرى، والذي لهذه الأسباب يلغي ملكوت السموات، وكل من يدخل تعليماً يضلل عما عمله ربنا يسوع المسيح نفسه والذي تلقيناه من العهدين القديم والجديد بأن كلاً من الجحيم والملكوت أبديان، والذي لمثل هذه الأسباب يحطم نفسه ويسبب دينونة أبدية لآخرين..."[٧٦].

تُعتبَر نظرية استعادة كل الأشياء "أقوالاً يونانية باطلة"، **أي ثمرة للفلسفة اليونانية التي تتلف ملكوت السموات وتقتل كلمة الكتاب المقدس التي تتحدث عن جحيم أبدي. وكل من يقبلون هذه الآراء لا يدمرون أنفسهم فقط، ولكنهم يتسببون في عثرة للآخرين**. هذه هي الأسباب بعينها التي تجعلهم محرومين ومنبوذين من الكنيسة كما لو كانوا أعضاءً فاسدة مريضة.

من المؤكد أن هذا الحرم الموجود في المجامع الأرثوذكسية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمجمع المسكوني الخامس الذي حرم أفكار أوريجانوس والتي كان من بينها فكرة استعادة كل الأشياء.

---

[76] - Triodion, ed. Phos, p. 160 (GK).

(٢) رأي المفسرين لموقف القديس غريغوريوس النيصي من جهة استعادة كل الأشياء

لقد كان القديس غريغوريوس النيصي مشغولاً في كل كتاباته بالمسائل المختصة بالحياة بعد الموت، وما هي الروح، وكيف يبقى شخص الإنسان بعد مفارقته للجسد، وكيف ستحدث قيامة الجسد، وما هو ملكوت الله وما إلى ذلك. لقد رأينا العديد من هذه الآراء في فصول أخرى من هذا الكتاب.

من ضمن مثل هذه الموضوعات الأخروية ما يسمى استعادة كل الأشياء. وبخلاف بعض الاستثناءات فإن أغلب الذين درسوا تعليم القديس غريغوريوس هذا وصلوا لنتيجة مؤداها أن القديس كان متأثراً بأوريجانوس في موضوع استعادة كل الأشياء. وفي الواقع كما يؤكدون فإنه لم يقبل نظريات أوريجانوس الخاصة بهذه المواضيع إذ أنه شجب التناسخ، وعودة الأرواح، ولكنه في موضوع استعادة كل الأشياء اتبع أفكار أوريجانوس بطريقة متوسطة. وبالتالي يقولون أن القديس غريغوريوس النيصي يتكلم عن الاستعادة بطريقة إيجابية.

إننا سوف نلقي نظرة عامة على انطباع المفسرين المختلفين عن آراء القديس غريغوريوس في هذا الموضوع، ثم سوف نفحص إن كانت هذه الاستنتاجات تتمشى مع الحقيقة. وفي الواقع فإن الأشياء التي علق عليها المفسرون واستشهدوا بها كانت فعلاً للقديس غريغوريوس، ولكن ما يجب علينا قوله أنها لم تُفَسَر في إطارات مرجعية أصيلة وأنه في بعض النقاط لم يتم فهم حقيقة ما قيل. لذلك سوف نرى فيما يلي أن القديس غريغوريوس فيما يخص موضوع استعادة كل الأشياء لم يكن يعني ما نسبه تلاميذه له. وفي الواقع يجب على المرء لكي يفهم تعليم القديس غريغوريوس أن يحدد المفاتيح التفسيرية المناسبة، وأن يضع ما يقوله في إطار تقليد الكنيسة بجملته.

بحسب القديس غريغوريوس، يكون هدف الإنسان الرئيسي هو الاتحاد بالله. يجب علينا أن ننظر لخلاص الإنسان من هذا المنظور فقط. لكن لكي ينجح أي شخص في هذا الهدف السامي جداً، ينبغي عليه أن يتطهر وهذا أمر رئيسي بالنسبة للإنسان. من

الممكن تحقيق التطهير في الحياة الحاضرة، ولكن لو أن أحداً لم ينجح توجد حياة أخرى ستتبع ذلك. من المؤكد أن القديس غريغوريوس لا يقبل فكرة التناسخ التي بحسب أوريجانوس تكمل تطهير الإنسان، ولكنه يقبل أن التطهير يستمر بعد الحياة.

يحدث التطهير بعد الحياة من خلال ما يسمى النار المطهرة التي هي علاجية. وبالتالي تكون عذابات الجحيم علاجية، مما يعني أنها ليست أبدية. ففي وقت ما لن يعود هناك وجود للجحيم. فسوف تدخل الأرواح إلى الأبدية بعد تطهرها الذي حققته بعضها في الحياة الحاضرة والبعض الآخر بعد الموت.

يأتي التطهير والخلاص من خلال حب الله ومحبته للبشر. فالله كمحب للبشر يدرب الإنسان من أجل تجديده.

تتعدد البركات النابعة من التطهير. تتجدد طبيعة الإنسان لأنه يخلصها من العناصر الخاطئة الغريبة التي دخلت عليها.

في إطار ذلك حتى الموت نفسه سيبطل وسيختفي الشر، وبالتالي سيخضع كل شيء لله. يؤكد القديس غريغوريوس النيصي على وجه الخصوص على وجود الشر واختفائه. فبحسب رأيه، **ليس الشر حقيقة وجودية لأنه ليس إلا غياب الحب.** فالشر فانٍ، ولكن كل شيء فاني يمكن أن يتجدد. **هذا هو السبب بعينه الذي يجعل الشر غير موجود كجوهر ولكن خاصية الشر موجودة، وحيث أن الخاصية لا تكون الجوهر فإن الشر ليس جوهراً.**

هذا يعني أن الشر غير أبدي ولكن له سمة مؤقتة. فمن غير الممكن للشر الذي هو غير متولد وفانٍ أن يغلب الخير غير الفاني الذي هو الله. بالتالي، **ففي وقت ما سوف ينتفي الشر الذي ليس جوهراً.** إن استنزاف الشر وفناءه لا يتعارض مع حرية الإنسان لأنه لو كان هذا صحيحاً لكانت حرية الإنسان أقوى من الله الخيِّر وقدرته طالما أنها كانت ستمتلك على امتداد مسار الشر بلا نهاية. هكذا سوف ينتهي الشر في وقت ما.

ليس فقط أن أرواح الناس سوف تتطهر وسينتفي الشر، ولكن أيضاً الشيطان سوف يخضع لله مما يعنى أنه سيخلص. لقد أثبت فداء المسيح كونه فداءً حتى للشيطان.

فالسيد المسيح اتخذ الطبيعة البشرية ومات على الصليب، وإذ أُمسِك الشيطان بواسطة جسد المسيح مثل سمكة في صنارة اضطر لتسليم الأرواح التي كان ممسكاً بها. وهذا بالتالي أثبت الخلاص للشرير أيضاً.

من المؤكد أن مفسري القديس غريغوريوس النيصي يشيرون إلى أنه توجد العديد من المتناقضات في كل نظامه اللاهوتي. فأحد المتناقضات التي يحاول القديس غريغوريوس حلها كيفية المصالحة بين التطهير "الضروري" واستعادة كل الناس وحتى الشيطان نفسه، وبين حرية كل من الإنسان والشيطان. يوجد تناقض آخر وهو كيف أنه بينما يتكلم عن فناء الشر وخلاص كل الناس النهائي يكتب أيضاً عن أبدية الجحيم. وكيف أنه على حين أنه يقبل استعادة كل الأشياء التي يؤمن بها أوريجانوس فإنه في نفس الوقت لا يقبل بتناسخ الأرواح والتقمص التي ترتبط بتطهير الروح واستعادة كل الأشياء.

أنا شخصياً مع الرأي القائل أن نفس هذه الملاحظات المسماة تناقضات التي تكلم عنها الذين يدرسون القديس غريغوريوس النيصي هي ذاتها مصدر خطأ تفسير تعليم القديس، كما أنها هي أيضاً التي نجد فيها المعنى الحقيقي لمقالاته. يجب علينا أن نفحص هذه "التناقضات" بعناية لكي نرى ما هي رؤية القديس غريغوريوس عن استعادة كل الأشياء.

يوجد أيضاً مفسرون يحاولون رؤية الافتراضات الحقيقية لتعليم القديس غريغوريوس وتوضيح أن القديس غريغوريوس لم يعلِّم بآراء أوريجانوس. إننا سوف نتلامس مع كل هذه الأشياء في الفصل القادم حيث سنحاول أن نصور الإطار العام للاهوت القديس غريغوريوس النيصي لأننا نعتقد أنهم قد أخطئوا تقدير القديس غريغوريوس. لذا هناك احتياج لاستعادة القديس غريغوريوس النيصي من جهة ما يسمى نظرية الاستعادة.

أنا لست متوهماً أن ما نقوله سوف يغطي الموضوع ولكننا سنركز على النقاط الرئيسية التي لو أدركها دارس هذا الكتاب يستطيع تفسير تعليم القديس[٧٧].

---

77 - For an analysis of his views, see Andreou Theodorou, op. cit., Greek Patrology op. cit., vol. 4., p. 197f, and Athenagorou Kokkinaki, Archbishop of Thyateira and Great Britain, introduction to Gregory of Nyssa's works, EPE 1, p. 111ff (GK).

(٣) تعليق تفسيري على تعليم القديس غريغوريوس النيصي عن استعادة كل الأشياء

سوف نحاول في هذا الفصل أن نحلل "المتناقضات" التي يشير إليها المفسرون عندما يدرسون تعليم القديس غريغوريوس النيصي لأن التفسير الحقيقي لأعماله يوجد هنا.

يجب علينا أن نؤكد من البداية على أن المواضيع واللغة التي يكتب بها القديس غريغوريوس صعبة على القارئ المعاصر. إننا نحتاج دائماً أن نضع في ذهننا أن آباء القرن الرابع، وخصوصاً القديس غريغوريوس النيصي، كانت لديهم مشكلة خطيرة ينبغي عليهم التعامل معها. فقد تعين عليهم مواجهة أسئلة الفلاسفة عن المشاكل الكونية والوجودية والخلاصية، وأن يعطوا أجوبة في إطار الوحي الإلهي. إننا غير منشغلين بمثل هذه الأسئلة اليوم، وهذا ما يصعب علينا فهمها، ولكننا نستطيع على أية حال أن نفسر تعليم القديس غريغوريوس في إطار خبرة الكنيسة.

سوف نحاول أن نلقي نظرة على الإطار العام التفسيري لتعليم القديس غريغوريوس المتعلق بالأشياء الأخيرة واستعادة كل الأشياء في خمس نقاط.

(أ) شخصيته الكنسية العظيمة

لقد كان القديس غريغوريوس رمزاً روحياً عظيماً بحق. فعندما يقرأ المرء كتاباته، فإنه يتلذذ بعمق فكره، وخصوبة تعليمه، وقبل كل شيء حساسية شديدة. إنه يتناول مواضيع صعبة جداً، ومع ذلك لا يحيد عن التقليد الأرثوذكسي.

إننا نجد في تعليم القديس غريغوريوس أن المهمة الأعمق للكنيسة هي شفاء الإنسان، الذي هو خاضع لعملية التطهير، وأن هدف الإنسان هو الاتحاد بالله. لقد حلل آباء آخرون أيضاً هذه الحقيقة، ولكن القديس غريغوريوس النيصي قام بتحليل دقيق. ففي كتابه "حياة موسى"، الذي هو نموذج لبحث أرثوذكسي، قدم توسعات وملاحظات رائعة.

كان القديس غريغوريوس النيصي شقيق القديس باسيليوس الكبير مهتماً بوجه عام بموضوعات كان من الصعب على الذهن البشري أن يستوعبها. وحساسيته الشديدة التي نشعر بها في حديثه مع أخته ماكرينا قبل وفاتها، وفي الطريقة التي قدم بها وفاتها وواجه بها انفصاله عنها تعطينا انطباعاً ملفتاً. لقد كان لاهوتياً عظيماً بحق، وأباً حساساً.

لقد اعترفت كل الكنيسة بجدارة شخصيته العظيمة. فبعد موت أخيه القديس باسيليوس الكبير في سنة ٣٧٩ ميلادية، قدم القديس غريغوريوس النيصي مبادرات كنسية عديدة لتدعيم الإيمان الأرثوذكسي أمام هرطقات عصره الخاصة بالسيد المسيح. لقد كان وجوده في مجمع أنطاكية سنة ٣٧٩ ميلادية فعالاً، كما كانت كذلك رسالته في صناعة السلام في كنيسة بنطس والعربية. وبوجه عام، كان للقديس غريغوريوس سلطة عظيمة وبالتالي كان مهتماً بتنظيم المسائل الكنسية، وبصفة رئيسية الخاصة بالمسائل العقائدية.

لقد كان حضوره في المجمع المسكوني الثاني في القسطنطينية سنة ٣٨١ ميلادية مهماً. ومن المؤكد أن لاهوت أخيه القديس باسيليوس الكبير، الذي كان قد تنيح قبل سنتين من انعقاد المجمع، كان سائداً في هذا المجمع؛ ولكن القديس غريغوريوس أثبت كونه الصوت اللاهوتي للمجمع.

في أثناء المجمع، قرأ القديس غريغوريوس النيصي للقديس غريغوريوس اللاهوتي بحثه المضاد لآراء آفنوميوس الذي كان قد عارض باسيليوس الكبير بعد أن كتب هجوماً على الآراء الهرطوقية لآفنوميوس. لقد تعجب آفنوميوس من منطق باسيليوس الكبير حتى أنه رد عليه بعد أربعة عشر عاماً بكتابه "اعتذار عن اعتذار"، ولكنه لم يكن من الممكن أن يرد عليه باسيليوس الكبير في ذلك الحين لأنه كان على مشارف الموت. فأتم القديس غريغوريوس النيصي هذه المهمة بنجاح. لقد دحض بموضوعية في كتبه الثلاثة آراء آفنوميوس مدافعاً عن الإيمان الأرثوذكسي وذكرى أخيه أيضاً. وتعتبر هذه الكتابات من بين أدق النصوص المضادة للهرطقات.

لقد كان القديس مُقَدَراً في المجمع المسكوني الثاني من قِبَل كل اللاهوتيين بامتياز. فقد قرأ الخطبة الافتتاحية للمجمع، وتأبين ميليتيوس الأنطاكي الذي كان رئيساً لجلسة المجمع. كما ألقى خطبة تتويج القديس غريغوريوس اللاهوتي في القسطنطينية،

وكما يُظَن كان هو الذي وضع الشكل النهائي لقانون الإيمان وبلور الجزء الخاص بالروح القدس: "نعم نؤمن بالروح القدس، الرب المحيي، المنبثق من الآب، نسجد له ونمجده، الناطق في الأنبياء". ومما يقال على وجه الخصوص أنه في أيقونة المجمع المسكوني الثاني يُصَوَر القديس غريغوريوس على أنه الكاتب المسجل للمجمع.

قبل نهاية أعمال هذا المجمع، أصدر الإمبراطور ثيئودوسيوس مرسوماً عيَّن فيه القديس غريغوريوس كواحد من الثلاثة أساقفة الذين ينبغي أن يكونوا نموذجاً للإيمان لأساقفة بنطس. مما يعني أن كل من لم يتفق مع تعليم القديس غريغوريوس، ويشترك معه يكون هرطوقياً.

وبعد انتهاء المجمع، ذهب القديس في رحلة إلى سوريا وفلسطين والعربية ليحل مشاكل الكنيسة العديدة، بالإضافة أيضاً إلى المشاركة في مجامع للدفاع عن الإيمان الأرثوذكسي. تُظهر كل هذه الأمور أن القديس غريغوريوس النيصي كان له وضعاً مؤثِراً بشدة في العالم الأرثوذكسي. وفي الواقع لقد أُسنِدَت إليه مهمة إلقاء العظات الجنائزية للأميرة "بوليخاريا" والملكة "بلاكيلا".

بالإضافة إلى هذه الأحداث المعروفة في تاريخ الكنيسة على أنها من الأنشطة الكنسية للقديس غريغوريوس النيصي، توجد أيضاً نصوص مجمعية تشير إليه على أنه أب للكنيسة مسكوني وعظيم. وإذ قدر المجمع المسكوني الثالث قيمة شخصيته وعلمه اللاهوتي لقَّبَه "الرجل الثاني بعد أخيه في أقواله وطرقه". تعني هذه العبارة أنه كان تالياً لأخيه فقط. بل وأيضاً بعد أربعمائة عام من موته منحه المجمع المسكوني السابع اللقب الأول والوحيد الذي كان يُعطَى للاهوتيين في الكنيسة وهو "أب الآباء". وفي الواقع هو أمر معروف جيداً كيف جاوب باسيليوس الكبير على تعبيرات التعجب التي وضعها مثل هذا الأسقف القدير على مدينة غير مهمة، وهي نيصص، وهو لم يكن يقصد القديس غريغوريوس اللاهوتي حيث أنه استعمل كلمة "أخي" حيث قال له: **"لا يفتخرَّن الأسقف بالمكان، بل دع المكان يفتخر به"**[٧٨].

---

[78] - See Athenagorou Kokkinaki, op. cit. pp. 31-34 and Panag. Christou, op. cit. p, 163ff.

من غير الممكن إذاً أن تسقط مثل هذه الشخصية الآبائية العظيمة في نظرية استعادة كل الأشياء بهذه الصورة البشعة. فالكنيسة تلقبه من خلال المجامع المسكونية "أب الآباء"، والرجل التالي بعد باسيليوس الكبير في أقواله وطرقه، ذاك الذي دُعِي واحداً من الآباء الثلاثة العظام. وبالتالي يخطئ كل من يؤكد على أن القديس غريغوريوس يقبل مثل هذه النظريات التي شجبتها الكنيسة نفسها. فكيف يمكن لنظرية استعادة كل الأشياء التي شجبتها المجامع أن تكون مقدَّرة من قِبَل القديس غريغوريوس النيصي؟!

(ب) آراؤه عن الفلسفة

يعلن العديد من مفسري تعليم القديس غريغوريوس النيصي أنه كان أكثر آباء الكنيسة فلسفة وأنه في العديد من المسائل، وخصوصاً استعادة كل الأشياء، انقاد إلى ضلال لاهوتيي عصره المتفلسفين مثل أوريجانوس.

يجب علينا أن نكرر ما قيل من قبل أن القديس غريغوريوس لم يضل في كتاباته بالفلسفة ونظرياتها لأنه هو ذاته كان مقياساً وعلامة للإيمان والحياة المسيحية.

إن ما اضطلع به كان الإجابة على الأسئلة الوجودية المطروحة من قِبَل الفلسفة. تطرح الفلسفة أسئلة: ما هو الوجود؟ ما هي الموجودات؟ ما هي العلاقة بين الوجود والموجودات؟ ما هو الشر؟ وكيف دخل إلى العالم؟ ما هي الروح؟ وما إلى ذلك. كان القديس غريغوريوس النيصي مشغولاً بمثل هذه الأسئلة المسماة وجودية، وأعطى أجوبة في سياق الخبرة المعلنة. لقد كان هذا هو العمل الرئيسي لآباء هذه الحقبة الحرجة[٧٩].

لا يستطيع أحد أن يصف القديس غريغوريوس النيصي بأنه فيلسوف لأنه كان يعمل على المشاكل الوجودية التي طرحتها الفلسفة. بالإضافة إلى أن كتاباته النسكية العديدة وعظاته الروحية وأجوبته على العديد من المشاكل الفلسفية تظهر أن الاتهام الموجه له هو غير حقيقي.

لقد بلور رأيه في الفلسفة في العديد من كتاباته. وعلى أية حال، أود أن أقدم آراءه عن الفلسفة كما ظهرت في النص الذي كتبه بعنوان "بخصوص الفضيلة أو حياة موسى".

---

79 - See John Zizioulas, "Hellenism and Christianity, the meeting of the two worlds", in Historia tou hellenikou ethnous, vol. 6, p. 554 (GK).

يعلق القديس غريغوريوس النيصي على حقيقة أن أم موسى لكي تنقذ وليدها وضعته في سلة وألقته في النهر، بأن النهر يرمز لأمواج هذه الحياة وأن السلة ترمز للتأدب بالمعارف المختلفة. لو اقتنى المرء مثل هذا التأدب فإنه لن يغرق في الأمواج ولكنه سيخرج للأرض الناشفة.

وابنة فرعون التي كانت عقيمة وعاقر تبنت موسى الصغير. إنها ترمز للفلسفة النجسة التي كانت عقيمة وعاقراً. لا يستطيع أحد أن يرفض هذا التأدب العاقر غير المثمر حتى رغم كونه غير كامل، ولكنه يستطيع ذلك عندما يصعد على الجبل مثل موسى وعندئذ "سوف يخجل من أن يدعى ابناً لتلك التي هي عاقر بالطبيعة". وهكذا فإن أياً من يعيش في الإعلان ويصل لرؤية الله يشعر بالخجل والخزي من أن يُدعى ابناً للفلسفة.

وهو إذ يتكلم بصورة أكثر تحليلية عن الفلسفة التي هي عاقر وغير نافعة للخلاص يكتب قائلاً: "لأن العقم الحقيقي هو التأدب النجس الذي على الرغم من كونه في مخاض مستمر إلا أنه لا يلد أبداً. لأنه أية ثمرة تستوجب مثل هذا المخاض الذي تظهره الفلسفة كما لو كانت في حالة ولادة طويلة؟ أليس كل المنتفخين بريح ولا يصلون أبداً لميعاد الولادة يجهضون قبل أن يصلوا لنور معرفة الله على الرغم من أنهم كانوا يستطيعون أن يكونوا رجالاً لو لم يكونوا مختبئين كلية في رحم الحكمة العقيمة؟".

يظهر بوضوح في هذا النص العجيب رأي القديس غريغوريوس النيصي في الفلسفة. وهو يعني بمصطلح "التأدب النجس" الفلسفة وليس الموضوعات العلمية الأخرى. فعلى حين تشعر الفلسفة بآلام الوضع باستمرار إلا أنها لا تلد أبداً بل تبقى عاقراً. إنها لا تأتي بثمر للإنسان. وهو يعطي ملحوظة خاصة بأنه كان ممكناً للناس أن يكونوا قادرين على أن يصيروا رجالاً عمليين لو لم يكونوا قد اختبئوا في رحم هذه الحكمة العقيمة.

ثم يقول القديس غريغوريوس أنه من الممكن أن ننخرط في الكلمات النجسة أثناء تربيتنا، ولكن لا ينبغي علينا في نفس الوقت أن نفصل أنفسنا عن لبن الإنجيل الذي يغذينا. وحقاً كل من لا يتلقى سوى التعليم الدنس ولا يتطلع لتعليم وأخلاقيات والديه سوف يجد نفسه بين نقيضين.

ينقد القديس غريغوريوس الفلسفة فيقول أن هناك شيئاً جسدانياً وغير مختون فيما يتم تعليمه في دروس الفلسفة، ولو قُطِع هذا الشيء فسوف يبقى نسل إسرائيل. ثم

يعطي بعد ذلك عدة أمثلة. تقبل الفلسفة أن الروح خالدة، ولكنها تؤكد أنها تنتقل من جسد لآخر، ومن طبيعة عاقلة إلى طبيعة غير عاقلة. تتكلم أيضاً الفلسفة عن الله، ولكنها تفكر فيه على أنه مادي. وهي تتكلم عن الله كخالق، ولكنها تعتقد أنه يحتاج للمادة لكي يتمم الخلق، أي أنه لم يخلق الكون من لا شيء. إنها تؤمن أن الله خيِّر وقادر، ولكنها تقول أنه يخضع لضرورة القدر. توجد إذاً تقوى في الفلسفة حيث أنها تتكلم عن الله، ولكنها في نفس الوقت تربطها بالأمور الجسدانية[٨٠].

عندما تكون آراء القديس غريغوريوس في الفلسفة على هذا المنوال، فمن غير المعقول بالنسبة لنا أن ننظر إليه على أنه أب متفلسف متأثر بالآراء الفلسفية عن استعادة كل الأشياء. لا يمكن أن نجد مثل هذا التناقض في قديس متحد بالله مثل القديس غريغوريوس النيصي، ولا في رجل له مواهب وخصائص ذهنية عالية مثل التي كانت للقديس غريغوريوس. بالأحرى نحن الذين نفتقر للمواهب ونحن غير قادرين على اختراق محتوى تعليمه الملهَم من الله.

(جـ) تعليمه عن اختيار الإنسان وأبدية الجحيم

يتكلم القديس غريغوريوس في العديد من النصوص عن حرية الاختيار لدى الإنسان والتي لا يلغيها الله، كما يتكلم أيضاً عن أبدية الجحيم. وكل من هذين الموضوعين يمحو كل فكرة عن نظرية استعادة الأشياء التي يؤكدها أوريجانوس.

ففي عظته التعليمية العظيمة التي يتحدث فيها عن التعليم الديني وعن قيمة المعمودية يكملها في النهاية بموضوع التغير في كل وجود الإنسان الذي يحدث بواسطة اختياره. فهو يكتب أن المعمودية المقدسة تدعى الولادة من فوق، أي أنها ولادة الإنسان الثانية وتجديده، إلا أنها لا تغير من خصائصه. فهذه الطبيعة البشرية لا تقبل في ذاتها أي "تغير بالمعمودية"، ولا يتغير بها عقل الإنسان ولا ذكاؤه ولا معرفته ولا أي من خصائص طبيعته البشرية. فهذا التغيير يجب أن يحدث من خلال جهاد الإنسان قبل وبعد المعمودية؛ **ونعمة الله التي نتلقاها من خلال المعمودية لا تحقق ولادتنا الثانية ما لم يكن لنا نحن ذواتنا دوراً في ذلك.**

---

80 - Gregory of Nyssa: Life of Moses, CWS, pp. 56f and 63.

يصل القديس غريغوريوس لوضع عبارة جريئة كما يصفها هو. لو لم تُزِل النفس الصبغات على الرغم من المعمودية، بمعنى أنه لو بقيت حياتنا بعد المعمودية كما كانت من قبلها، فإن ماء السر هو مجرد ماء "لأن نعمة الروح القدس لم تظهر". وبمعنى آخر، فإن الأمر يكون كما لو كان الإنسان لم يتلقَ عطية الروح القدس.

إن أياً من يعلن ولادته الثانية من خلال المعمودية ولكن مازالت له نفس طريقة الحياة، ينبغي عليه أن ينصت لكلمة الله القائل: "من يظن في نفسه أنه شيء وهو لا شيء فإنه يخدع نفسه". "لقد أعطى للكثيرين الذين تلقوا الحق أن يصيروا أبناء الله". يجب على من يؤكد أنه تلقى الله أن يثبت ذلك باختياره. **"أظهر في نفسك ذاك الذي ولدك"**. وهو يسأل بطريقة قاطعة: "ألستم تعلمون أن المرء لا يصبح ابناً لله ما لم يصبح مقدساً؟ يجب علينا أن نتقدس لكي نصبح أبناءً لله.

إن الذين لن يغيروا طريقة حياقم سوف يحصلون على عقوبات كثيرة. فلن تكون حياة الخطاة في الدهر الآتي مشابهة لحن الحياة الأرضية. يتكلم القديس غريغوريوس عن نار العقاب التي سوف يواجهها الخاطئ، وليس عن ولادة ثانية في الحياة الآتية. فهو يكتب بصورة قاطعة: "عندما تسمع عن كلمة نار يجب عليك أن تتعلم أن تفكر في نار أخرى تختلف عن النار التي نراها بسبب وجود شيء إضافي إلى هذه النار. سوف تختلف النار التي سيختبرها الإنسان في الحياة الآتية عن نار الحياة الحاضرة. فنار هذه الحياة يمكن إطفاؤها بطرق عديدة، على حين أن نار الحياة الآتية سوف تبقى غير منطفئة. فهذه النار هي إذاً شيء مختلف عن تلك".

أيضاً لو سمع المرء عن دودة سوف تلتهم الإنسان، فإن المقصود بذلك يختلف تماماً عن المقصود بالدودة التي تعيش في الأرض. لأن "إضافة خاصية عدم موتها يوحي بفكرة عن زواحف أخرى تختلف عن المعروفة لنا"[٨١].

تبرز العديد من الحقائق من هذا التقديم المختصر لتعليم القديس غريغوريوس عن الاختيار والجحيم. أولها أن نعمة الروح القدس خلال المعمودية لا تجدد الإنسان ما لم يدخل اختياره في الموضوع، وبالتالي يوجد معنى عظيم لاختيار الإنسان. والحقيقة الثانية هي وجود جحيم تسود فيه نار ودود لا يشبه الحقائق الحسية، فهي حقائق غير مخلوقة.

---

[81] - Gregory of Nyssa: The Great Catechism, ch. 40, NPNFns vol. 5, p. 509.

وفي الواقع، فإن حقيقة أن أشياء الحياة الأبدية لن تكون مشابهة للحياة الحاضرة، وأن الدود "لا يموت" تظهر أن كلاً من النار وآثار الدود المعذبة هي قوى الله غير المخلوقة التي سوف يختبرها أولئك الذين لم يتطهروا في هذه الحياة. يظهر ربط آلام الحياة بعد الموت بالأبدية أنه لن يكون هناك نهاية للتطهير كما توحي بذلك دراسة تعاليم القديس غريغوريوس.

إننا نقرأ في نصوص أخرى خاصة به عن النور الذي هو الله. فهو إذ يحلل حياة موسى ويعتبره النموذج الأصلي لكل مسيحي يقول أن موسى رأى الله في العليقة المشتعلة والتي لم تحترق لأنه خلع نعليه أولاً.

وهو يطبق ذلك على رؤية الله التي يستطيع كل إنسان أن يقتنيها. فالله هو الحق، وهذا الحق هو النور. وتقود حياة الفضيلة لهذه المعرفة عن النور العظيم. ولئلا يظن أحد أن القديس غريغوريوس يتحدث عن فضيلة بشرية إنسانية، يجب علينا أن نربط الفضيلة بنقاوة الروح، **لأنه من غير الممكن للأرجل المرتدية النعلين أن تصعد لهذا العلو حيث يُرى نور الحق.** لهذا يجب على الروح أن تتحرر من هذه الأثقال. لا يتعلق الأمر بالتخلص من الجسد، ولكن بتحرير الروح من التزين بالجلد الذي التحفت به الطبيعة بعد تمردها. وبالتالي سوف يُرى نور الحق، وسوف تتأتي معرفة الوجود من خلال تطهير رأينا عن اللاوجود طالما أن اللاوجود هو خطأ وخيال. **وبحسب القديس غريغوريوس فإن الوجود خارج الله هو اللاوجود من منظور أنه أكذوبة وخيال وليس لكونه غير موجود**[82].

من الواضح في هذا التفسير أن الإنسان يحصل على معرفة الوجود من خلال التطهير ويتخلى عن اللاوجود الذي هو أكذوبة وخيال. سوف ينفعنا هذا التفسير فيما بعد عندما ندرس رأيه في الشر الذي هو لاوجود. لا يعني ذلك أن الشخص الذي يختبر الشر يختفي، ولكن بتعبير أكثر دقة أنه إذ يعيش بعيداً عن الوجود، الذي هو الحق، يحيا في الأوهام. يكون الإنسان موجوداً، ولكنه لا يعيش بحسب الله. يوجد فرق بين الوجود والحياة بحسب الله.

يربط القديس غريغوريوس النيصي الفردوس والجحيم باختيار الإنسان. فهو يعلم جيداً بوجود فردوس أبدي، وجحيم أبدي. بالإضافة إلى ذلك، فإنه حتى الذين مازالوا ينتقدون القديس غريغوريوس، لا ينكرون أنه في العديد من النقاط في تعاليمه يقبل

---

82 - Gregory of Nyssa: Life of Moses, CWS p. 59f.

بأبدية الجحيم. لقد رأينا ذلك بالفعل من قبل عندما تكلم عن الدود الذي لا يموت أبداً. ولكن من ضمن تعاليم الكنيسة الرئيسية، يعلّم القديس أن الفردوس والجحيم غير موجودين من وجهة نظر الله ولكن من وجهة نظر الإنسان. يتعلق الأمر، إذاً، باختيار الإنسان وحالته. إننا نستطيع أن نفهم تعليم القديس غريغوريوس النيصي فقط عندما ندرسه في إطار هذه الافتراضات الأرثوذكسية.

وإذ يستشهد القديس بالتأثير المزدوج للنور على العبرانيين والمصريين يقول أنه على حين أن شمس الأبرار أنارتهم بأشعتها "وابتهج العبرانيون في نورها، إلا أن المصريين كانوا غير مستجيبين لعطيتها". **لقد تلقى المصريون أيضاً نعمة الله، ولكن حيث أنهم كانوا غير حساسين استقبلوها كظلام.**

يحدث نفس الشيء أيضاً مع رجال آخرين. فنفس النعمة ونفس النور ترسل أشعتها لكل الناس، ولكن البعض يتوهون في الظلام بسبب الأعمال الشريرة وظلمة الشر، على حين يضيء الآخرون ويعيشون في نور الفضيلة.

لقد عوقب المصريون لأنه هكذا كان عمل اختيارهم إذ أنهم جلبوا على أنفسهم عقاب الله. "تسببت حرية إرادة المصريين في كل هذه الأشياء بحسب المبدأ المذكور سابقاً، وأتت عدالة الله الكاملة كنتيجة لاختياراتهم الحرة وجلبت عليهم ما يستحقونه".

ينطبق نفس الشيء على التجارب التي نعتقد أنها تأتي من عند الله. فالذي يخلق الأحزان والتجارب هو كل شخص من خلال اختياره الشخصي. **"يصنع كل شخص بلاياه من خلال إرادته الشخصية الحرة"**. سوف يحدث نفس الشيء في الحياة الأبدية، فلن يكون هناك لا ظلام ولا دود ولا نار بالنسبة لمن عاش بلا خطية. ونفس المكان يكون بؤساً للواحد وليس للآخر. يعني ذلك أن الأمر يتعلق باختيارهم، وبالتالي "يكون من الواضح أنه لا يأتي أي أمر شرير إلى الوجود خارجاً عن اختيارنا الحر"؛ **فلا يمكن للشر أن يكون موجوداً بدون اختيارنا**[٨٣].

يظهر هذا التحليل بوضوح أن القديس غريغوريوس لا ينكر وجود الجحيم، ولكنه يقول أن الأمر يتعلق باختيار الإنسان. وبالنسبة لله لا وجود للجحيم، **ولم يصنع الله الإنسان للجحيم** ولكنها حرية اختيار الإنسان.

---

83 - Ibid. CWS p. 74, 86.

من المقرر في كتابات القديس غريغوريوس أنه يتعين على الشر أن يُلقى خارج وجود الإنسان، وأن "الذي هو غير موجود في الوجود يجب عليه أن يكف عن الوجود تماماً". وهذا لا يعني أنه سوف تكون هناك فترة ستكف فيها الموجودات التي ليس لها نصيب ولا شركة مع الله عن أن توجد. على أية حال، **ليس للشر وجوداً في ذاته ولكنه الحرمان من الخير**. بمعنى أن الشخص الذي اظلّم سوف يحرم من قوة الله المانحة الاستنارة، وبالتالي سوف يكون مثل غير الموجود على الرغم من أنه سيعيش إلى الأبد. إنه لن يتلقى عمل الله المانح الاستنارة، ولكنه سيتلقى فقط خاصيته الحارقة والمعاقِبة. فهو يكتب قائلاً: "حيث أن الشر غير موجود بطبيعته خارج حرية الاختيار، فسوف يخضع الشر لتلاشي كامل لأنه لم تتبقَ هناك أوعية من أجله"[٨٤].

هنا تنشأ مشكلة: ماذا سيحدث لو لم يخضع الإنسان حرية اختياره لله؟ هذا السؤال موجه لأولئك المقتنعين بأن القديس غريغوريوس يعَلّم باستعادة كل الأشياء بالتطابق مع آراء أوريجانوس، وهم يظنون أن القديس يناقض نفسه. ولكن لا يوجد في الحقيقة تناقض في كتاباته، ومن الممكن أن يُفهَم تعليمه في إطار تقليد الكنيسة. هذا يعني أن كل من لا يعطون اختيارهم لله لن يكون لهم نصيب فيه، فهم سيكونون موجودين ولكنهم لن يشتركوا في الله. وحيث أن الله هو الحياة والوجود، فإنهم على الرغم من كونهم موجودين إلا أنهم سيعيشون في اللاوجود ولن تكون لهم شركة مع الله.

ينطبق نفس الشيء على وجود النار المعاقِبة، التي هي نعمة الله المطهرة، والتي ستصبح نمواً وشفاءً مستديماً للقديسين، والتي ستستمر أيضاً في الحياة الآتية. وكما أشرنا، فإن النار المطهرة بحسب تعليم القديس غريغوريوس النيصي هي غير مخلوقة وغير منتهية. إنها نعمة الله التي سوف تطهر وتقدس الإنسان بإطراد طالما أن الكمال لا ينتهي، كما يعَلّم هو ذاته. فهو يتكلم عن نار مطهرة للأبرار من هذا المنظور[٨٥].

كنتيجة لذلك فإن تعليم القديس غريغوريوس النيصي عن الفردوس والجحيم هو جزء من الإطار الآبائي. فعلى الأقل لم أكتشف أنا شخصياً أية انحرافات عن التعليم الأرثوذكسي. فليس الأمر سوى أن حديث القديس غريغوريوس أصعب من أحاديث باقي آباء الكنيسة.

---

[84] - Gregory of Nyssa: On the soul and resurrection, ch. 7, SVS, p. 85.
[85] - Ibid. p. 84f.

لقد رأينا في الفصل السابق آراء أخيه القديس باسيليوس الكبير عن كيفية صيرورة الله نوراً وناراً بحسب حالة الإنسان الروحية. فمن المستحيل على القديس غريغوريوس، الذي أحب وقدَّر القديس باسيليوس الكبير واتفق معه، أن يختلف عن التعليم الأرثوذكسي.

(د) التفسير التحليلي لنصوص معينة

لقد فحصنا الآراء الرئيسية للقديس غريغوريوس النيصي عن تطهير الإنسان المرتبط بإرادته الحرة والتي لا يستطيع حتى الله أن يلغيها، وعن أبدية الجحيم. لقد رأينا كيف يُفهم التطهير حتى في الحياة بعد الموت وكيف يُفهم انتفاء الشر.

مع ذلك ينبغي علينا أن نعود إلى تفسير تحليلي للعديد من النصوص التي يستخدمها اللاهوتيون ليدعموا الرأي القائل بأن القديس غريغوريوس النيصي يتكلم عن استعادة كل الأشياء بحسب مفهوم أوريجانوس. سوف يساعد بعض التكرار على فهم الموضوع لأننا نقوم بمقارنة التفاسير التحليلية للنصوص المتوازية.

ظهرت صبغات الخطية في النفس بعد سقوط الإنسان. وبالتالي يحتاج الإنسان للشفاء من هذه الصبغات. وهذا هو السبب الذي جعل "الدواء الذي تمنحه الفضيلة في الحياة الحاضرة يُعطَى لشفاء مثل هذه الجراح". يتطهر الإنسان بواسطة الفضيلة وبواسطة الجهاد من أجل حفظ وصايا الله. ولكنه لو بقي بدون شفاء بعد رحيل النفس عن الجسد "فإن العلاج في الحياة التي تتبع ذلك يصبح عديم القيمة". لو كانت بعض الأمراض الجسدية أسهل في الشفاء من الأمراض الأخرى، فإن نفس الشيء ينطبق على النفس. وبالتالي "يكون شفاء أمراض النفس الذي تعد به الدينونة الآتية شيئاً من هذا القبيل"[٨٦].

يستخدم العديد من دارسي القديس هذا النص لكي يظهروا أنه يعلِّم عن استمرار تطهير الخطاة غير التائبين في الحياة بعد الموت أيضاً. قد يتوصل المرء لمثل هذا الاستنتاج التعسفي لو كان غير واعٍ للتعليم عن أن **نمو المتحدين بالله سوف يستمر ولا ينتهي أبداً في الدهر الآتي**.

[86] - Gregory of Nyssa: The Great Catechism, ch. 8, NPNFns vol. 5, p. 483.

سوف يرى القارئ في الفصل القادم تعليم الكنيسة عن هذه النقطة. فبحسب تعليم الآباء أصحاب السلطان، لو أن شخصاً ما دخل مرحلة التوبة قبل موته ولكنه لم يتطهر فإن الشفاء سيستمر فيه "على الدوام" طالما أن الفضيلة ليس لها نهاية. ومن المؤكد أن هذا لا ينطبق على أولئك الذين باختيارهم الشخصي بقوا غير تائبين تماماً و لم يدخلوا مرحلة التوبة. بالإضافة إلى ذلك، يعلِّم القديسون أن الملائكة أيضاً سوف يستقبلون نعمة الله بإطراد. وفي هذه الحالة نستطيع أيضاً أن نستعمل كلمة تطهير حتى مع الملائكة.

يجب أن يُفحَص، في ضوء ذلك، النص الآخر للقديس غريغوريوس الذي يستعمله أولئك الذين يصرون على أن القديس يقبل نظرية أوريجانوس عن استعادة كل الأشياء.

إنه يقول في بحثه التعليمي أنه سيحدث مع نفسه نفس الشيء الذي يحدث مع جسده. فكما يخضع للعلاج الأشخاص أصحاب الأمراض الجسدية وهم غاضبون من الأطباء المعالجين ولكنهم عندما يُشفون يستمتعون بصحتهم بامتنان، هكذا يحدث نفس الشيء مع النفس. "بنفس الطريقة عندما بعد مدة طويلة يُستبعد الشر الموجود في طبيعتنا والمختلط بها والذي نما مع نموها، وعندما تُستعاد الحالة الأصلية لأولئك المنطرحين في الخطية الآن سوف تصدر من كل الخليقة تسبحة شكر، وأيضاً من أولئك الذين أثناء عملية التطهير عانوا من التأديب، ومن أولئك الذين لم يحتاجوا للتطهير بالمرة"[٨٧].

يتكلم هذا النص عن استعادة الطبيعة البشرية لحالتها الأصلية، وعن تحررها من الشر الذي دخل إليها كنتيجة للسقوط، وعن التشكرات الجماعية التي يعطيها الجميع لله. لا يعلم هذا النص عن نظرية استعادة كل الأشياء التي تشجبها الكنيسة.

أولاً وقبل كل شيء يجب تفسير هذا النص في ضوء كل تعليم القديس غريغوريوس الخاص بالجحيم الأبدي الذي يعتمد على اختيار الإنسان. فلا يمكن تفسيره بمعزل عن كل تعليمه لأنه عندئذ سوف يُساء تفسيره.

يجب بعد ذلك أن نؤكد هنا على أن تطهير الطبيعة البشرية وتخليصها من الشر واستعادتها ترتبط بخلع أقمصة الجلد التي للفساد والموت. إننا نعلم جيداً أنه الآن مع تجسد المسيح واختباره، وبالأخص مع المجيء الثاني للمسيح، سوف يتم التخلص من

---

87 - Ibid. ch. 26, p. 496.

الفساد والموت. هذا يعني أن أجساد الجميع، أبرار وأشرار، سوف تقام وسوف تتمتع كل الأجساد بعدم الموت وعدم الفساد. وفي تعليم الآباء القديسين يُقصَد بقول بولس الرسول عن الخاطئ "سوف يخلص ولكن كما بنار" أنه سوف يستمر في أن يُعاقَب بالنار، أي أن الخاطئ سوف يُنقَذ ولَن يفنى.

بالتالي يتعلق الأمر هنا باستعادة الطبيعة وليس الإرادة كما سوف نستفيض في شرح ذلك فيما بعد.

بهذا المعنى سوف يعطي الجميع الشكر، بمعنى أنهم سوف يقدِّرون الله كخالق للكون وكإله حقيقي. وسوف يفعل ذلك الذين عوقبوا "في التطهير" والذين لم يبدأوا فيه بأن يعيشوا في استنارة النوس.

لديّ انطباع متمشي مع كل تعليم القديس غريغوريوس النيصي أن عبارة "الذين تأدبوا في التطهير" تعني أولئك الذين بسبب اختيارهم الشخصي بقوا في النار الأبدية حيث يختبرون نعمة الله كنار. من المؤكد أن هذا لا يعني أنه سيأتي اليوم الذي سيُنقَذون فيه من الجحيم طالما أن الجحيم أبدي، ولكنهم إذ يحترقون بهذه النار غير المخلوقة سوف يعترفون بوجود الله.فشكر كل الخليقة يكون إما إيجابياً أو سلبياً.

تظهر أيضاً في نصوص موازية حقيقة أن استعادة المعاقَب ينظر إليها القديس غريغوريوس على أنها خلع أقمصة الجلد، وخلع الفساد والموت الذي سوف يستمتع به أيضاً الخطاة كاعتراف بالله.

إنه إذ يتحدث عن قيامة الأجساد يقول أن عدم الفساد، والمجد، والإكرام، والقوة هي خصائص للطبيعة الإلهية. لقد كانت نفس هذه الأشياء في الأصل خصائص الإنسان أيضاً، ذاك الذي خُلِق على صورة الله ومن المنتظر أن يستعيدها ثانية. لقد دخل الفساد إلى الطبيعة البشرية من خلال الخطية، ولكن بعد قيامة الجسد سوف يتغير ذلك. **فالأمر يتعلق باستعادة الطبيعة من الخطية وليس باستعادة الإرادة.**

من الصعب تفسير النص الذي استشهدنا به، ولكن من الممكن عمل ذلك لو فحصناه من منظور تعليم القديس غريغوريوس النيصي الشامل. فالقديس يؤكد على أن الجميع سوف يقامون ولكن سيكون الواحد غير كامل في الجسد وسيكون الآخر

كاملاً. تماماً مثلما يمتلك المسجون والحر نفس الجسد ولكنهما يختلفان من جهة السعادة والحزن، هكذا أيضاً الفرق بين الخيِّر والشرير في الحياة الآتية. فلن تكون أجساد الخطاة ناقصة، ولكنها سوف تُحرَم من الله وتتغرب عنه؛ وسوف يقتني الأبرار مجداً وكرامة.

ما يتمنى القديس غريغوريوس التأكيد عليه هنا هو أنه على الرغم من أن الجميع سيقومون ثانية، إلا أن الحالة الروحية لكل واحد سوف تكون مختلفة بحسب استعداده الداخلي واختياره. لا يُقصَد ببساطة بكلمات عدم فساد ومجد وكرامة وقوة كل الناس الذين سوف يُقامون، ولكن أولئك الذين كانوا قد تطهروا.

إنه يكتب قائلاً: "على أية حال، بمجرد أن تتطهر مثل هذه النفوس وتتقدس بالنار فإن الخصائص الأخرى سوف تحل فيهم محل الخصائص الشريرة، أي عدم الفساد والحياة والكرامة والنعمة والمجد والقوة وكل خاصية أخرى نتكهن بوجودها في الله وفي صورته التي هي الطبيعة البشرية"[٨٨].

إنه بعباراته هذه يستشهد بتعليم بولس الرسول عن الجسد المقام: "يُزرع في هوان ويقام في مجد. يُزرع في ضعف ويقام في قوة. يُزرع جسماً حيوانياً ويقام جسماً روحياً"(١كو١٥: ٤٣-٤٤).

إن ما يشير إليه القديس غريغوريوس هنا هو أنه على الرغم من التخلص من الفناء والموت، إلا أن وضع الناس سيكون مختلفاً. فهذه المفاهيم المتعلقة بعدم الفساد والمجد والكرامة والقوة لا تشير إلى حالة الجسد، ولكنها تشير بصورة رئيسية إلى حالة النفس التي تنعكس على الجسد أيضاً، بمعنى أنها مرتبطة بالتطهير الذي كانت النفس قد تلقته من هذه الحياة. إنه لا يتكلم عن كل الناس، ولكن عن أولئك المعتَبَرين من بين الأسمى وليس عن أولئك الذين ليسوا في معية الله. تتعلق المسألة بالشفاء الذي يتحقق بواسطة قوة عمل الله التي تبدو في البداية مثل النار، بالإضافة أيضاً إلى تناغم إرادهم الشخصية مع قوة عمل الله.

كما هو واضح هنا، يوجد فرق بين ما قد تطهر وبين ما قد أُميت. وفي هذه الحالة لا يتعلق الأمر باستعادة كل الأشياء كما قال أوريجانوس.

---

88 - Gregory of Nyssa: The Soul and the Resurrection, ch. 10, SVS, p. 119-121.

إننا نستطيع رؤية هذه الآراء في أحد كتاباته التي على الرغم من صغرها إلا أنها بارعة، حيث أنه يحلل فيها عبارات بولس الرسول: "ومتى أُخضِع له الكل فحينئذ الابن نفسه أيضاً سيخضع للذي أخضع له الكل"(١كو١٥:٢٨). هكذا سوف يخضع الابن لله أبيه طالما أن كل الأشياء قد أخضعت له أولاً.

سوف نصف فيما يلي الأفكار الرئيسية لهذا العمل الخاص بالقديس غريغوريوس النيصي لأننا نؤيد الرأي القائل أن تعليمه عن الأخرويات، أي الحياة في الأزمنة الأخيرة، ملخص فيه.

أولاً، إنه يركز انتباهه واهتمامه في هذا العمل بصورة رئيسية على تفسير عبارة "الابن نفسه أيضاً سيخضع للذي أخضع له الكل". هذا البحث مرتبط بالأكثر بالسيد المسيح لأن هراطقة هذا العصر استعملوا هذا النص ليؤكدوا على أن السيد المسيح مخلوق بواسطة الله.

إنه يقول إذاً أن كلمات بولس الرسول تشير إلى قيامة الأموات الآتية حينما سوف تخضع كل الأشياء للآب من خلال السيد المسيح.

وبالتالي يستفيض القديس غريغوريوس النيصي في تحليل أن كلمات الرسول تعود على الطبيعة البشرية التي اتخذها المسيح والإبطال المستقبلي للموت والذي كانت بدايته قيامة السيد المسيح.

يحلل القديس غريغوريوس أن هذا النص يشير إلى الطبيعة البشرية التي اتخذها السيد المسيح. وهذه خاضعة للآب، مثلها مثل ألوهيته الخاصة، طالما أنه لا توجد ألوهية للآب مختلفة عن تلك التي للابن. لقد اتبعت الطبيعة البشرية الطبيعة الإلهية باستمرار. وتحقق خضوع كل الطبيعة البشرية في المسيح.

وحيث أن اقترابنا من الآب يحدث في المسيح، فلهذا يسمى هذا الاتحاد خضوع الابن للآب. "يسمى خضوع جسده خضوع الابن، هذا الجسد الذي تخضب بدمه الخاص، والذي هو الكنيسة"[٨٩]. وهو يقول أيضاً في موضع آخر أن معرفة الوجود وأن خلاص كل الطبيعة البشرية تشير إلى خضوع الابن للآب[٩٠].

---

[89] - Gregory of Nyssa: When all things are made subject to Him, EPE 10, p. 90 (GK).

[90] - Ibid. p. 98.

ثانياً، كنتيجة لما سبق فإن هذا الخضوع يُفهم على أنه خلاص الإنسان الذي يتحقق في السيد المسيح ومن خلاله. "وحيث أن كل شيء موجود فيه يخلص، وأن الخلاص يُفَسَر بالخضوع"، فإنه لا وجود لشيء بخلاف أولئك المخلَّصين[٩١]. إن الحديث هنا يتعلق بخلاص حتى أعداء الله. "من الواضح أن الخلاص يظهر فيهم في صورة الخضوع"[٩٢].

عندما يبطل الموت من خلال الطبيعة البشرية التي اتخذها الله وقدسها، ومن خلال قيامة الأموات الآتية سوف يخضع الكل لله.

ثالثاً، توجد حقيقة مرتبطة بما سبق وهي أن خلاص حتى الخطاة مازال يُرى على أنه إبطال الموت والفناء وما يسمى أقمصة الجلد. يقول بولس الرسول أن العدو الأخير الذي هو الموت سوف يبطل (١كو١٥: ٢٦). وبالتالي نحن أيضاً نرجو أن الموت سيبطل في النهاية. وحيث أن نعمة الله تتخلل كل الأشياء "فسوف يختفي الموت تماماً من الوجود، لأن الموت سيكون قد اختفى سابقاً طالما أنه قد قيل أن الموت اكتسب السلطان على الناس بواسطة الخطية"[٩٣].

يتكلم القديس غريغوريوس النيصي عن إبطال الموت وأيضاً عن إخضاع أعدائه. خضوع الجميع هذا، والذي سوف يتحقق في المسيح لن يكون قهراً وعبودية. هذا الخضوع "لن يكون عبودية مهينة ولكنه سيكون ملكوتاً وعدم فساد ونعيماً"[٩٤]. **من الواضح أن الخلاص يعتمد على حقيقة أن العدو مازال موجوداً**. لا يتعلق الأمر بجهاد رغماً عن إرادة المرء أو فقدان للإرادة ولكن باستعادة الطبيعة وليس أيضاً باستعادة الإرادة.

يعني إذاً خلاص الخطاة أن الفناء سيبطل حيث أن الموت سيختفي وبالتالي سوف يكف الشر عن الوجود طالما أن الخطاة لن يكونوا قادرين على ارتكاب الخطية.

إنه يضيف في نقطة أخرى أن ما يحدث للإنسان يحدث لكل الخليقة. لقد قال السيد المسيح أنه سيكرز بالإنجيل في العالم كله وهذا يعني أن "ما وجدته الكلمة الآن في الواحد سوف تجلب به البركة لكل طبيعة الناس"[٩٥].

---

[91] - Ibid. p. 94.
[92] - Ibid. p. 102.
[93] - Ibid. p. 86.
[94] - Ibid. p. 104.
[95] - Ibid. p. 100.

رابعاً، هذا هو المقصود أيضاً باختفاء الشر. "الخضوع لله هو الاغتراب الكامل عن الشر"[٩٦]. من الواضح أنه يتكلم هنا عن اختفاء الموت الذي أتى من الخطية. فعندما تتحرر الخليقة من الموت والفساد، سوف يدخلها الله ويكون الكل في الكل. "من الواضح أنه سيتأكد عندئذ أن الله موجود في كل الأشياء عندما لا يلاحظ الشر بين المخلوقات"[٩٧]. يحدث هذا بالفعل في الكنيسة التي هي جسده.

خامساً، أولئك المتحدون بالله سوف يحيون هم أنفسهم حياته. مثلما هو الحال مع أولئك الذين بحسب قول الرسول خلعوا الإنسان العتيق بكل أعماله وشهواته وتلقوا الرب داخلهم. "وبالضرورة فإن الذي يحيا فيهم يعمل الأعمال التي يعملونها". يأتي الخير المطلق الذي هو الخلاص "من خلال الاغتراب عن الشر". **ولكننا لا نستطيع أن نفصل أنفسنا عن الشر ما لم نخضع لله**[٩٨]. يقتني المسيح لنفسه كل من يتحد معه في جسده، الذي هو الكنيسة[٩٩].

إن ما يتمنى القديس غريغوريوس النيصي التأكيد عليه في هذا النص هو أن آخر عدو يبطل هو الموت، من وجهة نظر أن الأموات سوف يقامون بالمجيء الثاني للمسيح، وأن الفساد والموت اللذين لايزالان موجودين في الخليقة سوف يبطلان، وأن السيد المسيح سيملك على الجميع. سوف يقف الجميع أمام منبره وسوف يتعرفون عليه. وبهذا المعنى سوف تبطل الخطية التي هي سبب الموت، وسوف يتعرف عليه الجميع على أنه الله. ولكن حيث أن حرية الاختيار لا تبطل فإن الناس بحسب حالتهم سوف يكون لديهم اختبارات مختلفة عن الله. فالذين حصلوا على الشفاء سوف يختبرون قوى الله المنيرة والمؤلهة، على حين أن الخطاة سوف يختبرون النار الحارقة. سوف يرى الجميع الله، ولكن سوف يشارك فيه الأبرار على حين أن الأشرار لن يكون لهم نصيب في الله. وعلى أية حال، **لن يكون الشر موجوداً كجوهر**. وسوف يكون الناس تماماً مثلما كانوا خلال هذه الحياة الحاضرة.

وبالتالي سوف يخضع إذاً الكل للمسيح، وسوف يُخضِع المسيح الطبيعة البشرية لله الآب. وهذا ما بدأ حدوثه الآن في الكنيسة.

---

[96] - Ibid. p. 86.
[97] - Ibid. 88.
[98] - Ibid. p. 100.
[99] - Ibid. p. 92.

(٥) تفسير آباء الكنيسة للقديس غريغوريوس النيصي

توجد حقيقة تنص على أن القديسين يفهمون القديسين. فما يحدث في العلوم يحدث هنا أيضاً. فالعالِم في فرع ما يُفهَم جيداً من قِبَل عالم في نفس الفرع. يكتب بولس الرسول عن هذا الموضوع قائلاً: "التي نتكلم بها أيضاً لا بأقوال تعلمها حكمة إنسانية بل بما يعلمه الروح القدس قارنين الروحيات بالروحيات. ولكن الإنسان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله لأنه عنده جهالة. ولا يقدر أن يعرفه لأنه إنما يحكم فيه روحياً. وأما الروحي فيحكم في كل شيء وهو لا يحكم فيه من أحد"(١كو٢: ١٣-١٥).

هكذا أيضاً لا يجب الحكم على أقوال القديس غريغوريوس النيصي على أساس تحاليل لغوية، ولا على أساس أفكار فلسفية، ولكن على أساس تعليم آباء الكنيسة القديسين. تظهر حقيقة أن الكنيسة وصفت القديس غريغوريوس على أنه "أبو الآباء" وتنظر إليه على أنه نموذج للإيمان والتعليم الأرثوذكسي أنها فسرت تعليمه بطريقة صحيحة.

بالإضافة إلى ذلك نحن لدينا آباء عظام استشهدوا بهذا التعليم. فالأشياء التي قلناها من قبل حقيقية لأنها مبنية على أقوال أناس متحدين بالله، الذين منهم القديس مكسيموس المعترف والقديس مرقس آفيانيكوس. إننا سوف نبدأ بذاك الأحدث تاريخياً (القديس مرقس آفيانيكوس)، ثم نرى كيف أن القديس مكسيموس المعترف فسر تعليم القديس غريغوريوس النيصي عن استعادة الأشياء.

استعمل اللاتين نصوص القديس غريغوريوس النيصي بالإضافة إلى نصوص أخرى في حوارهم مع الأرثوذكس عن نار المطهر في مجمع فيرارا-فلورنسا. وهكذا دحض القديس مرقس آفيانيكوس أدلة اللاتين إذ قدم الآراء الأرثوذكسية في هذا الموضوع في خطبتين.

من ضمن الملاحظات التي أبداها القديس أشار إلى نصين للقديس غريغوريوس النيصي يتعلقان بالموضوع. أولاً، أنه عندما يتكلم القديس غريغوريوس عن نار المطهر فإنه لا يعني بالمرة ما يعَلِّم به اللاتين. فالمطهر اللاتيني موجود في حالة النفوس المتوسطة وهو مخلوق على حين أن النار المطهرة التي يتحدث عنها القديس غريغوريوس النيصي هي أبدية وغير مخلوقة. ثانياً، يتحدث أيضاً القديس مكسيموس المعترف عن استعادة الأشياء كما يفهمها القديس غريغوريوس النيصي. يقول القديس مرقس: "ولكن أيضاً ما

يعزي القديس مكسيموس يتمشى مع التعليم الذي للقديس غريغوريوس الرائع الخاص باستعادة الأشياء، وهذا ما سوف نوضحه بصورة كاملة". وفيما يلي ذلك يستشهد بنص للقديس مكسيموس المعترف[100]. من المهم هنا أن نؤكد على أن القديس مرقس آفيانيكوس سمى القديس غريغوريوس "الرائع".

بعد أن استشهد القديس مرقس بنص القديس مكسيموس حيث فسر أقوال كلٍ من القديسيْن، انتهى إلى أنه عند الحديث عن نار مطهرة في التعاليم القديمة فإن المقصود بها النار الأبدية وليست حالة النفوس المتوسطة. فمن الواضح أن تعبير "نار مطهرة" يعني النار الأبدية التي هي بالأكثر مجازية وتعني العقاب الأبدي تماماً مثلما يُدعى النور رؤية الأبرار الأبدية لله. كما أنه لن يكون هناك في الحياة الآتية دود وزواحف سامة وآكلة للحوم، ولكن سيكون هناك "عذاب عقاب الضمير والندم المر". وصرير الأسنان هو التعبير المجازي عن جنون الذين يصارعون بضراوة، وعن الأسى والنحيب المر[101].

تلك هي الطريقة التي يفسر بها القديس مرقس آفيانيكوس ما يسمى بالنار المطهرة التي للقديس غريغوريوس النيصي. فالأمر يتعلق بالنار الأبدية التي هي غير مؤقتة وغير مخلوقة. إنها قوى الله المعاقِبة التي سوف يختبرها الذين سيبقون بدون شفاء بناء على اختيارهم الشخصي.

سوف نلقي نظرة الآن على الطريقة التي يكتب بها القديس مكسيموس عن استعادة الأشياء كما يفهمها القديس غريغريوس النيصي. فهو يقول أنه توجد ثلاثة استعادات. الأولى تحدث لكل شخص خلال إتمام وصية الفضائل، والثانية هي استعادة كل الطبيعة لعدم الفساد وعدم الموت خلال قيامة المسيح، والثالثة هي استعادة قوى النفس للحالة التي كانت عليها قبل السقوط. يعني القديس غريغوريوس النيصي هذه الاستعادة الثالثة، وفي الواقع، كما يقول القديس مكسيموس، فإنه يبالغ في استعمالها. ليس هذا خطأً، ولكنه بلورها أكثر مما يجب.

يضيف القديس مكسيموس فيما يلي أنه تماماً مثلما ترجو الخليقة العودة لعدم الفساد، هكذا يكون الحال مع كل النفوس. وهذا بالطبع لا يعني أن كل النفوس سوف

---

[100] - Patrologia Orientalis vol. 15, p. 122ff (GK).
[101] - Ibid. p. 130.

تحصل على الشركة في الأشياء الصالحة كما سيفعل القديسون. فنفوس الخطاة سوف تكتسب معرفة بالأمور الصالحة، وسوف تتأكد أن الله لم يكن مسئولاً عن الشر، ولكنها مع ذلك لن تصل للشركة في الله"[١٠٢].

يجب علينا أن نفحص تعليم القديس غريغوريوس النيصي عن استعادة كل الأشياء في إطار تعليم القديس مكسيموس المعترف. فبحسب القديس مكسيموس سوف يكون هناك استعادة كاملة للخليقة طالما أنه بواسطة عمل لانهائي قوي لإرادة الله الخيِّرة "سوف يجمع الكل معاً: الملائكة والناس، الأبرار والأشرار". ولكن على الرغم من أن الله يسود على كل الأشياء بصورة مطلقة، إلا أنه لن يكون للجميع نفس العلاقة معه. فسوف يجمع الله معاً في حضرته في "صلاح أبدي" الملائكة والناس القديسين، ولكن في "شقاء أبدي" أولئك الذين لم يدخلوا ضمن الأول (أي الصلاح الأبدي)[١٠٣].

هكذا حتى الخطاة سوف يُستعادون، بمعنى أنهم سوف يرون الله دون أن يشتركوا فيه. يعلق الأب جورج فلوروفسكي على رؤية القديس مكسيموس تلك، قائلاً أن الله سوف يعيد للخطاة كل ما فقدوه بسبب الخطية، إذ سيعيد لنفوسهم ملء قواهم وقدراتهم الطبيعية ولكن دون اشتراك وشركة فيه. إنهم سوف يختبرون باستمرار غياب الشركة فيه، وسوف يعون المسار الأعمى الضيق الذي اتخذوه رافضين محبة الله، وبهذه الطريقة سوف يعاقبون أنفسهم بحركة أذهانهم المشوهة[١٠٤].

هكذا سوف يُستعاد كل الناس، أبرار وأشرار، "للوجود الأبدي". ولكن الأبرار سيقتنون "الصلاح الأبدي" والأشرار "الشقاء الأبدي". ومن الواضح في تعليم القديس مكسيموس أن "الصلاح الأبدي" هو "الوجود الأبدي الحقيقي الوحيد"[١٠٥].

تظهر شهادات وتعاليم كل من القديس مكسيموس المعترف والقديس مرقس آفانيكوس، اللذين هما عمودان للأرثوذكسية، أن تعليم القديس غريغوريوس النيصي عن استعادة كل الأشياء يختلف بوضوح عن استعادة كل الأشياء الموجودة في الفلسفة القديمة وفي المفهوم الأوريجاني التي شجبها المجمع المسكوني الخامس.

---

102 - Ibid. p. 129.

103 - Hieromonk Artemiou Rantosavlievits: The mystery of salvation according to St. Maximus the confessor, Athens, 1975, p. 205f (GK).

104 - See Nikolaou Loudovikou: Eucharistic ontology, Domos, Athens 1992, p. 128 (GK).

105 - Ibid. p. 129.

(٤) الخلاصة

ينبغي علينا لكي نختم هذا الباب أن نلخص النقاط الأكثر رئيسية الخاصة بالموضوع الذي تناولناه.

أولاً، يجب فحص تعليم غريغوريوس النيصي بخصوص استعادة كل الأشياء والنار المطهرة في إطار تعليم القديس باسيليوس الكبير والقديس غريغوريوس اللاهوتي عن الفردوس والجحيم. فالمرء لا يستطيع عزله عن القديسيْن الآخريْن اللذين ارتبطا به برباطات الأخوة والصداقة. ربما بلور القديس غريغوريوس النيصي هذه الآراء بصورة أكبر، وبلغة فلسفية لكي يجاوب على أسئلة ومشاكل فلسفية، إلا أنه لم يحِد عن حقيقة أكدها أيضاً قديسان آخران وهما القديس مكسيموس المعترف والقديس مرقس آفيانيكوس.

ثانياً، حب الله ومحبته للبشر وصلاحه هي قواه غير المخلوقة والتي سوف ترسل لكل من الأبرار والخطاة في الدهر الآتي. ولكن هذا الحب سوف يُختبر بطرق مختلفة، فالأبرار سوف يشتركون في الله على حين أن الذين لم يُشفوا سوف يرون الله ولكنهم لن يكون لهم اشتراك ولا شركة فيه.

ثالثاً، لن يكون هناك وجود للشر طالما أنه حتى اليوم يكون الشر هو غياب الخير والاغتراب عنه. لا وجود لليل من مفهوم وجودي، ولكنه غياب الشمس. عندما تشرق شمس البر فعندئذ لن يكون هناك شراً. سوف يبطل أيضاً الموت، هذا الموت الذي تنبع منه الشرور التي لا حصر لها والعديد من الأهواء والخطايا. وحقيقة أن الشر لن يكون موجوداً لا تعني أن الخطاة وغير المشفيين لن يكونوا موجودين. فوجود الإنسان هو شيء، والشركة مع الله التي هي الحياة الحقيقية هي شيء آخر.

رابعاً، سوف تُستعاد الطبيعة عند المجيء الثاني للمسيح، ولكن لن تُستعاد الإرادة. فسوف يكتسب الجميع عدم الموت، وسوف تُقام أجساد الجميع ثانية، ولكن الحرية ورأي الشخص الشخصي لن يتغيرا. إنهم سوف يستمرون هناك أيضاً بحسب الاختيار الذي عاشوه في حياتهم الأرضية. حتى الخطاة سوف يعرفون الله وسوف يرون الله ولكنهم لن يكون لهم شركة فيه. ليس العقاب هو غياب الله ولكن عدم الشركة في الله واختبار وجود الله كنار.

خامساً، بالنسبة لأولئك الذين دخلوا مرحلة التطهير قبل موتهم سوف يستمر تكميلهم في الحياة الآتية أيضاً، فالكمال هو لانهائي. فهو ليس له نهاية ولا انتهاء. بالإضافة إلى ذلك، فالطبيعة البشرية محدودة على حين أن الله غير محدود.

سادساً، توجد استعادة لكل الأشياء هرطوقية كما آمن بها أوريجانوس وشجبتها الكنيسة، ولكن توجد استعادة لكل الأشياء أرثوذكسية كما علم بها القديس غريغوريوس النيصي والقديس مكسيموس المعترف. وبحسب الأخير، سوف يتعرف كل الناس على الله في المجيء الثاني ولكنهم لن يكون لهم نصيب في الله؛ سوف يُقام الجميع ثانية ولكن لن يمجده الجميع. قيامة المسيح هي عطية أعطيت للجميع، ولكن الصعود سوف يُختبر من قِبَل القديسين فقط. وبالتالي سوف يكون في الجميع استعادة للطبيعة التي ستبقى إلى الأبد غير مائتة ولكن لن يكون هناك استعادة للإرادة طالما أن كل شخص سوف يدرك المسيح بحسب اختياره هو.

إن لاهوت القديس غريغوريوس النيصي المختص بالأشياء الأخيرة وملكوت الله هو شفاف وأرثوذكسي، ومن غير الممكن أن نقول أن هذا الأب واللاهوتي العظيم يتبع تعاليم أوريجانوس الهرطوقية عن استعادة كل الأشياء لأن القديس غريغوريوس النيصي مرتبط بصورة أساسية بكل التقليد الأرثوذكسي الكنسي.

الباب التاسع

الحيـــاة الأبـــديـــة

سوف تبدأ الحياة الأبدية بعد الدينونة الأخيرة التي ستحدث عند المجيء الثاني للمسيح، وسوف يُعبَر عنها بطريقتين: كفردوس أبدي وكجحيم أبدي. يسمي القديس مكسيموس المعترف الفردوس "الصلاح الأبدي" والجحيم "الشقاء الأبدي". وعلى كل حال، كلاهما هو "وجود أبدي"، ولكنهما يختلفان في نوع الخبرة بحسب حالة الشخص.

يتكلم المسيح عن الحياة الأبدية في نص المجيء الثاني قائلاً: "فيمضي هؤلاء إلى عذاب أبدي والأبرار إلى حيوة أبدية"(مت٢٥:٤٦). وهذا يعني أن الإنسان لا ينتهي بالموت ولا بالمحاكمة الآتية، ولكن الحياة تستمر حتى بعد ذلك. لا يفنى الخاطئ بعد الدينونة، ولكنه سيعيش إلى الأبد ليحترق بقوى النعمة الإلهية. ومن الطبيعي أن يكون ذلك كنتيجة لحرية الاختيار.

وعلى الرغم من أن الجحيم هو أيضاً أبدي، إلا أن تعبير "الحياة الأبدية" يستخدم أكثر عندما يُربَط بالحياة في المسيح، لأن حياة بعيدة عن الله هي في الواقع تسمى أيضاً موتاً. من أجل ذلك قال السيد المسيح: "وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته"(يو١٧:٣). تسمى معرفة الله والشركة مع يسوع المسيح حياة أبدية، وهي كذلك بالفعل.

يوجد قول آخر للمسيح ينبغي أيضاً أن يُرى في هذا الضوء: "الحق الحق أقول لكم إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحيوة"(يو٥:٢٤). تسمى الحياة الحاضرة موتاً، على حين أن تجاوز الموت والشركة مع الله تعتبر حياة حقيقية.

ترتبط الحياة الأبدية ارتباطاً وثيقاً بخلاص الإنسان والاشتراك في مجد الله. كتب بولس الرسول لتلميذه تيموثاوس متذكراً الضيقات والتجارب التي احتملها من أجل مجد الرب قائلاً: "لأجل ذلك أنا أصبر على كل شيء لأجل المختارين لكي يحصلوا هم أيضاً على الخلاص الذي في المسيح يسوع مع مجد أبدي"(٢تي٢:١٠). يقول بطرس الرسول نفس الشيء: "وإله كل نعمة الذي دعانا إلى مجده الأبدي في المسيح يسوع بعدما تألمتم يسيراً هو يكملكم ويثبتكم ويقويكم ويمكنكم"(١بط٥:١٠).

هكذا يطلق تعبير الحياة الأبدية بالأكثر على شركة واتحاد الإنسان بالله، وعلى الاشتراك في الله الأبدي ورؤية النور غير المخلوق. سوف نفحص ما يلي في ضوء ذلك.

يجب علينا أن نؤكد مرة أخرى على أنه حتى حياة الخطاة والجحيم هما أبديان، لأن نفوس الخطاة هي أيضاً خالدة بواسطة نعمة الله. ولكننا هنا نطبق تعبير الحياة الأبدية بصورة رئيسية من منظور خلاصي على أنها الاشتراك والشركة في مجد الله.

سوف نتناول ثلاثة نقاط في بقية الباب. النقطة الأولى هي ماهية ملكوت الله الأبدي، والثانية هي ما نعنيه عندما نتكلم عن تجديد الخليقة، والثالثة هي أن حياة الأبرار في الفردوس سوف تستمر في النمو.

(١) ملكوت الله

يوجد في باب آخر من هذا الكتاب تحليل تفصيلي عن الماهية الحقيقية لما يسمى ملكوت السموات. وبالتالي لا ننوي أن نشرحه هنا ثانية. لقد رأينا في الباب السابق أشياء مرتبطة بالفردوس وسوف نتكلم في الباب التالي عن ملكوت الله والاشتراك فيه خلال الزمن. وسوف نقوم هنا ببساطة بالتأكيد على بضعة حقائق قد ترد على الذهن.

تستخدم تعبيرات ملكوت الله، وملكوت السموات، والفردوس، والحياة الأبدية بنفس المعنى في الكتاب المقدس والنصوص الآبائية. إنها مترادفات تعني الاشتراك في مجد الله. ويبدأ ذلك في هذه الحياة ويستمر في الحياة بعد الموت وسوف يكمل في الحياة بعد المجيء الثاني للمسيح لأنه عندئذ سوف تقام أجساد الناس أيضاً من الموت.

يقول القديس سمعان اللاهوتي الحديث متحدثاً عن ملكوت الله أن ملكوت السموات هو "اقتناء الله نفسه". وهذه العبارة معبرة جداً. ونحن في الواقع متأكدون أن الإنسان سوف يرى غنى مجد ملكوت السموات. يسمى الشخص المتحد بالله "الذي يرى مثل هذا المجد"[1].

يسمى الاشتراك في نعمة الله الاشتراك في الملكوت. يقول القديس سمعان اللاهوتي الحديث أيضاً: "إن ملكوت السموات هو الشركة في الروح القدس"[2]. يوصف السيد المسيح الذي سوف يظهر في المجيء الثاني بأنه "ملكنا الغالي جداً والأكثر حلاوة يسوع

---

[1] - SC 129, p. 348-350.
[2] - SC 104, p. 22.

المسيح والله". فوجود هذا الملك السماوي واتحاد الإنسان به، مما يتبعه إشراق المسيح في القديسين وإشراق كل قديس فيه هو رؤية وشركة الملكوت.

إنني قد أسمح لنفسي بأن أستعمل كلمات القديس سمعان اللاهوتي الحديث، لأنها لا يمكن أن تقال بطريقة مختلفة. فبالنسبة للأبرار يكون ملكوت السموات "كما لو كان المرء سيرى في كل مكان ملك الكون، **فهو سيكون حاضراً لكل أحد وكل أحد حاضر له، سوف يشرق في كل أحد وكل أحد سيشرق فيه**"[٣].

يبدو إذاً أن ما يسمى ملكوت الله هو تبادل مشترك بين المسيح والمؤمن. فسوف يسكن المسيح في الإنسان البار وسوف يمجده، والإنسان الممجد سوف يستنير لكونه في شركة مع النور الإلهي غير المخلوق.

ليس ملكوت السموات واقعاً مخلوقاً، ولا هو حالة من حالات العالم، ولكنه الشركة في مجد الله. إننا نحتاج لأن نقول ذلك، لأن العديد من التفاسير لملكوت الله تُعطَى اليوم. ونحن نعتقد أن تشويه معنى ملكوت الله له نتائج مرعبة في حياتنا الروحية والاجتماعية. ويرتبط التوجه الأخلاقي بهذا التشويه اللاهوتي.

يعلم القديس أندراوس أسقف كريت أن ملكوت الله هو أن يرى المرء الله، ويُرى منه. ويتكلم القديس يوحنا الدمشقي عن تجلي المسيح الذي هو خبرة لملكوت الله قائلاً أننا في الدهر الآتي "سوف نكون دائماً في الرب، ونرى المسيح مشرقاً في نور الألوهية"[٤].

يتحرك كل الآباء القديسين في نفس المنظور. يشير القديس غريغوريوس بالاماس الذي يمكن وصفه على أنه لاهوتي النور غير المخلوق إلى "كمال الدهر الآتي". إنه إذ يستعمل كلمات يوحنا الإنجيلي عن أنه عندما يظهر المسيح سوف نكون مثله يقول أننا عندئذ سنصبح أولاداً لله "وسنرى ونتلامس مع لمعان الله وسنستنير بفجر مجد المسيح ونشرق معه"[٥]. **فسوف يسطع القديسون بنور المسيح وسوف يسطعون معه.** وبالتالي سيصبح مجد الله مجداً للأبرار أيضاً، مع الفارق بأن مجد الله طبيعي على حين أن مجد الناس سيكون بسبب النعمة وعطية الله.

---

[3] - SC 122, p. 222.
[4] - John of Damascus: The Orthodox Faith, BK. 4, ch. 27, FC 37, p. 406.
[5] - Gregory Palamas: Works, EPE 11, p. 446 (GK).

على الرغم من أنه سيكون هناك اختلافاً في الاشتراك في المجد بحسب حالة الشخص البار الروحية، إلا أنه في ملكوت السموات سوف تُلغى كل طبقات الناس طالما أنه لن يكون هناك "معلمين وتلاميذ". وفي الواقع سوف تُلغى في ملكوت السموات "رتب المعلمين ورتبة المتعلمين"[٦].

يستمر الآباء في التأكيد على حقيقة أن اختبار ملكوت السموات يبدأ في هذه الحياة. فالتمتع بالبركات الآتية "يبدأ هنا والآن"[٧].

لن نسترسل أطول من ذلك في هذه النقطة لأن القارئ سيجد تحليلاً أكثر توسعاً لهذا الموضوع في أبواب أخرى من الكتاب. ما يجب أيضاً تأكيده هو أننا عندما نتحدث عن ملكوت الله فإننا نعني الشركة في نعمة الله الثالوث غير المخلوقة. وحيث أن هذه النعمة يشارك فيها الإنسان كنور فيتمجد، بالتالي يكون ملكوت الله أيضاً الشركة في مجد الله.

(٢) تجديد الخليقة

تعلم الكنيسة تعليماً واضحاً عن أن الخليقة هي عمل الله، وأنها أُفسِدَت بواسطة سقوط الإنسان، وأنها سوف تتحرر أيضاً من هذا الفساد.

إننا نتكلم في تقليد الكنيسة عن الخليقة أكثر مما نتكلم عن الطبيعة. فكلمة طبيعة تشير إلى شيء طبيعي، على حين أن كلمة خليقة تدل على ما هو مخلوق، أي شيء صُنع لم يكن موجوداً من قبل. **بالتالي، لا يتكلم المرء في الكنيسة عما هو طبيعي وما هو وراء الطبيعة، بل عما هو مخلوق وما هو غير مخلوق.** غير المخلوق ليس له لا بداية ولا نهاية، وغير المخلوق هو موجود بذاته، على حين أن المخلوق له بداية خليقة ولكن الله أراد له ألا يكون له نهاية حتى لو كان ينبغي عليه أن ينتهي في وقت ما بالطبيعة.

الفرق بين المخلوق وغير المخلوق كبير، فهما لا يتشابهان. فالوحيد الذي يشترك فيه المخلوق وغير المخلوق هو المسيح الله الإنسان، الذي في شخصه اتحد الله بالطبيعة البشرية، أي غير المخلوق بالمخلوق.

---

[6] - Isaac the Syrian: Ascetical Homilies, p. 140.
[7] - Maximus the Confessor, 4th century on love, 78, Philok. 2, p. 110.

وبحسب القديس مكسيموس المعترف، يكون الكيان اللانهائي الكلي القدرة وخالق كل الأشياء هو وحده البسيط، الفريد، غير الموصوف، السلامي. لا يوجد شيء مركب في الكيان غير المخلوق أي في الله. وعلى العكس من ذلك، فإن الطبيعة المخلوقة مركبة، وتتكون من جوهر ومظهر، وهي تحتاج للعناية الإلهية[8]. لقد صنع الله كل الخليقة وهو يحافظ عليها بعنايته غير المخلوقة. وقمة عناية الله "هي خلاص كل الخليقة"[9].

من المؤكد أنه لا ينبغي علينا أن ننسى أن تعبير خليقة يشير إلى الملائكة والشياطين والجنس البشري والخليقة غير العاقلة.إنه تعبير يطلق على كل الخليقة، العاقلة وغير العاقلة. إننا نعلم أن الله خلق العاقل أولاً، ثم العالم الحسي والمادي، ثم بعد ذلك الإنسان الذي هو اتحاد من العالم العاقل والعالم الحسي. الإنسان هو إذاً خلاصة كل الخليقة، فهو الكون الصغير داخل الكون الكبير، ولكي نعبر عن ذلك بصورة أفضل من منظور القيم نقول أنه الكون الكبير داخل الكون الصغير.

لكننا عندما نتكلم في هذه النقطة عن الخليقة وتجديدها فإننا نعني بالأحرى الخليقة المادية وغير العاقلة التي سوف تتجدد في الدهر الآتي بعناية ونعمة الله. لأن هذا الشأن يهمنا في دراستنا.

يتكلم الكتاب المقدس عن سقوط الخليقة، ولكنه يتكلم أيضاً عن تحررها من الفساد. يوجد نص كلاسيكي في رسالة بولس الرسول لأهل رومية سوف نورده كاملاً لأنه مميز جداً وسوف يساعد في البلورة القادمة للموضوع.

"لأن انتظار الخليقة يتوقع استعلان أبناء الله. إذ أُخضِعَت الخليقة للبطل. ليس طوعاً بل من أجل الذي أخضعها على الرجاء. لأن الخليقة نفسها أيضاً ستعتق من عبودية الفساد إلى حرية مجد أولاد الله. فإننا نعلم أن كل الخليقة تئن وتتمخض معاً إلى الآن"(رو٨: ١٩-٢٢).

يوجد في هذا النص العديد من النقاط المهمة. **أولاً**، أن عالم الحواس، أي الخليقة المادية، يسمى مخلوقاً وليس طبيعياً، لأنه مرتبط بوجود خالق وبالتالي هو ليس خالداً وأبدياً كما يظن بعض الفلاسفة. **ثانياً**، أن الخليقة أُخضعت للفساد ليس بإرادتها الخاصة

---

[8] - Ibid. 9, p. 101.
[9] - Thalassius, First century, 61, Philok. 2, p. 310.

طالما أن الخليقة ليس لها إرادة أو حرية، ولكن بسبب سقوط الإنسان. فلقد جرف الإنسان كل الخليقة إلى الفساد. **ثالثاً**، أن الخليقة تئن وتتمخض مع الإنسان وتتوقع وترجو التحرر. **رابعاً**، يشير انتظار الخليقة إلى استعلان أبناء الله. فبمقدار ما كان الإنسان هو سبب سقوطها، بمقدار ما يأتي تجديدها من الإنسان. ومن الطبيعي أننا عندما نتكلم عن الإنسان فإننا نعني الله الإنسان الذي هو ابن الله. **خامساً**، يوجد تأكيد على أن كل الخليقة سوف تعتق من عبودية الفساد إلى حرية مجد أولاد الله. هذا يعني أن كل الخليقة سوف تتمتع بالبركات التي سوف تتأتى عندما يصل الإنسان للشركة في مجد الله.

يظهر هذا النص مفهوم وتعليم الكنيسة عما يسمى المشكلة البيئية وتجديد الخليقة. فسبب السقوط هو عصيان الإنسان وعدم خضوعه، وسبب التجديد هو ابن الله بالنعمة، أي الإنسان المتحد بالله. فهو سوف يحررها ويجددها. وفي الواقع، سوف تجدد نعمة الله الخليقة العاقلة أيضاً بواسطة الإنسان. **ومن ينظر لتجديد الخليقة بعيداً عن الإنسان المتحد بالله فإنه يتعب باطلاً.**

الشخص المتحد بالله هو شخص جديد، أي خليقة جديدة، وهذا هو السبب الذي يجعله مهيئاً للمجد. يقول بولس الرسول: "إذاً إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة"(٢كو٥:١٧). ويشير بطرس الرسول إلى نهاية العالم دون أن يتكلم عن تدمير نهائي كامل ولكنه يتكلم عن تجديد وتحويل قائلاً: "ولكننا بحسب وعده ننتظر سموات جديدة وأرضاً جديدة يسكن فيها البر"(٢بط٣:١٣). إننا نرى هنا بوضوح الحديث عن تجديد الخليقة وليس عن الخراب والتدمير. وسوف نتناول هذا الموضوع بصورة أكثر تحليلاً بعد قليل عندما نتناول تعاليم آباء الكنيسة.

يجب علينا عند دراسة النصوص الآبائية أن نفحص كيف سقطت الخليقة، ومما يتكون تجديدها كما يحلله آباء الكنيسة القديسون. وينبغي علينا عندما نعمل هذا التحليل أن نضع في اعتبارنا باستمرار نصوص الكتاب المقدس التي أوردناها فيما سبق.

أولاً، ينبغي علينا أن نتحدث عن سقوط الخليقة. يقول القديس غريغوريوس السينائي أن الخليقة لم تصنع متغيرة وفاسدة، ولكنها أُخضِعت بدون إرادتها للفساد بسقوط آدم[10]. ولكي يقدم القديس مقاريوس المصري هذه الحقيقة، استعمل تشبيهاً

---

[10] - Gregory of Sinai, 137 texts, 11, Philok. 4, p. 214.

جميلاً. فهو يقول أنه عندما يسبى ملك ما فإن خدامه ووزراءه يتبعونه بالضرورة إلى السبي، هكذا أيضاً عندما سقط آدم الذي كان رب وملك كل الخليقة التي كانت تخدمه، تضمن سقوطه الخليقة التي كانت تخدمه وتساعده أيضاً[١١].

يصف القديس سمعان اللاهوتي الجديد بطريقة جميلة مأساة الخليقة بعد سقوط آدم وانحدارها إلى الفساد. فيكتب أنه بعد طرد آدم من الفردوس، لم ترد كل الخليقة أن تتطلع إلى الإنسان وتملكها الغضب ضده. فهي لم تكن تريد الخضوع له. فالشمس لم تُرِد أن تسطع ولا القمر أن يرسل نوره، ولا النجوم أن تلمع، ولا الينابيع أن تفيض، ولا الأنهار أن تجري. لم يُرِد الهواء أن يعطي الإنسان تنفساً، وغضبت الوحوش وكل الحيوانات على الإنسان لأنه فقد المجد الذي كان له. وأرادت السماء أن تسقط على الإنسان، ولم تستطع الأرض أن تحتمله. وهنا تدخل الله بحبه ومحبته للبشر، واضعاً في ذهنه الإصلاح من خلال تدبير تجسد ابنه، فقيَّد الخليقة بقدرته وكبح عنف المخلوقات ضد الإنسان، حتى يصبح الإنسان روحانياً، غير فاسد، وغير مائت، حتى تقدر الخليقة هي أيضاً أن تتحرر من الفساد وتتجدد معه وتصبح غير فاسدة وروحية[١٢].

حيث أن سقوط الخليقة حدث من خلال الإنسان، هكذا أيضاً تجديدها سيحدث من خلال الإنسان المتحد بالله. بالإضافة إلى ذلك، فإن **الإنسان هو الرابطة بين العالم العقلاني وعالم الحواس.**

لو فُسِرَت النصوص الكتابية والآبائية التي استشهدنا بها بعناية، فإنها تشير إلى حقيقة أن الخليقة أيضاً سوف تُستعاد من الفساد خلال قيامة الإنسان وميلاده الثاني. إننا نرى ذلك بوضوح في كل تقليد كنيستنا. وسوف نقدم فيما يلي تعليم القديس سمعان اللاهوتي الحديث عن تجديد الخليقة.

ينبغي علينا أن نرى ما نحن مزمعون أن نقوله من وجهة نظر أن كل الخليقة صنعت بواسطة الله "من مادة غير موجودة". لقد أحضرها الله إلى الوجود، وهذا يعني أنه لا يوجد سبب لتدمير الخليقة غير العاقلة وإهلاكها تماماً. **لم يخلق الله أي شيء لكي يفنى فيما بعد،** فلا يوجد سبب لكي يحدث ذلك. بالإضافة إلى ذلك فإن كل النصوص

---

[11] - Macarius of Egypt, Homily 11, 5, CWS p. 92.
[12] - Ethical treatise 1, ch. 2, SC 122, p. 190.

الآبائية التي أوردناها تتكلم عن "سماء جديدة وأرض جديدة"، وعن تحرر الخليقة من الفساد وتجديدها. لا يمكن أن تكون هذه التعبيرات مشيرة إلى تدميرها الكامل المطلق.

يوضح القديس سمعان اللاهوتي الجديد هذه النقطة فيقول أنه تماماً مثلما جبل الله الخليقة أولاً على غير فساد ثم الإنسان، هكذا ينبغي تجديد الخليقة أي تغييرها أولاً، ومعها سوف تتجدد أيضاً الأجساد المتحللة بحيث "يصبح الإنسان روحانياً وغير مائت ثانية، ويحيا من جديد في مكان غير فاسد وأبدي وروحي"[١٣].

إنه يتكلم هنا عن تجديد الأجساد، وعن تغيير وتجديد كل الخليقة. فهو يقول أيضاً أن الإنسان الروحي سوف يسكن في مكان روحي غير فاسد أبدي بعد قيامته والمجيء الثاني للمسيح. يظهر هذا ما قلناه من قبل، أن الله لم يخلق الخليقة لكي تفنى بعد ذلك.

يربط القديس سمعان تجديد الجسد بتجديد الخليقة. فتماماً مثلما سيتجدد الجسد من خلال القيامة، هكذا أيضاً السماء والأرض بكل ما فيها، أي كل الخليقة سوف تتجدد وتعتق من عبودية الفساد. وليس فقط أن كل الخليقة سوف تتجدد، ولكن "سوف تشترك هذه العناصر معنا في اللمعان الذي هو من فوق"[١٤]. **فليس فقط الإنسان، ولكن كل الخليقة أيضاً، سوف تشترك في نور الله**. يجب علينا أن نؤكد أن ذلك سوف يحدث وجودياً حيث أن الإنسان هو وحده الذي يشترك في قوى الله المؤلهة. تشترك الخليقة في قوى الله تلك، والتي تهب الوجود والحياة. إنها حقيقة أن الخليقة أيضاً ستتغير وتتحول.

إنه يستخدم تشبيهاً ناجحاً جداً فيقول أنه مثلما يضع الصانع الأداة النحاسية القديمة الصدئة في النار ثانية فتخرج نظيفة متجددة بسبب التخلص من الصدأ، هكذا سيكون الحال مع الخليقة أيضاً. فهي إذ تشوهت بسبب خطية الناس، فإن الخالق سوف يضعها في النار وبالتالي "سوف يعاد تشكيلها وتجميعها إلى عناصرها الرئيسية لتصبح لامعة وجديدة"، وسوف تبدو مختلفة تماماً عما هي عليه اليوم[١٥].

يؤكد القديس سمعان اللاهوتي الحديث على هذه النقطة. فهو يقول أنه عندما يجدد الله الإنسان ويجعله غير فاسد، وغير مائت، فإنه عندئذ "سوف يحول كل هذه

---

[13] - Ibid. ch. 3, p. 204.
[14] - Ibid. p. 206.
[15] - Ibid. ch. 4, p. 208.

الخليقة معه أيضاً، وأقول أنه سيجعلها غير زمنية وغير مادية بالمرة"[١٦]. سوف تصبح الخليقة غير مادية وأبدية. إنها سوف تتحول تماماً بالتوازي مع الإنسان، "أي معه".

هذا الأمر مهم، لأني سمعت لاهوتياً يقول أن الخليقة سوف تتحول في الإنسان لأن الإنسان هو خلاصة كل الخليقة، أي أن كل الكون سوف يتجدد. ولكن مثل هذا الاستنتاج يضاد كلمات الكتاب المقدس عن أن الخليقة سوف تعتق من الفساد، ويضاد أقوال القديس سمعان الذي يتكلم عن تجديدها "مع الإنسان" وليس ببساطة "في الإنسان".

بالتأكيد، لا تدعم آراء القديس سمعان اللاهوتي الجديد مفهوم الملك الألفي لأن هذا بدوره يتكلم عن حالة أرضية. ولكن لا يبدو أن للقديس سمعان هذا المنظور، بل ينبغي علينا أن نقول أنه لا يشير إلى مكان مادي مدرك بالحواس، ولا إلى خليقة مادية مدركة بالحواس ولكن إلى خليقة روحية.

يؤكد القديس سمعان على أننا عندما نتكلم عن تجديد الخليقة، فإننا لا نعني أنها ستعود لحالتها في الفردوس الأول قبل عصيان آدم. ففي ذلك الحين، كان آدم إنساناً حسياً متغيراً وكان يحتاج للغذاء. ولكن عند قيامة جسد آدم سيكون جسده روحانياً طالما أنه كما يقول بولس الرسول "يزرع جسداً حيوانياً ويقام جسداً روحياً". ومثلما سيكون آدم روحانياً ولن يحتاج للطعام، هكذا أيضاً كل الخليقة ستتجدد بقوى الله "في الميلاد الثاني وتتحول إلى مكان إقامة غير مادي وروحي يكون فوق كل إدراك الحواس"، وهكذا لن تكون مادية وملموسة كما خلقها الله لتشبع احتياجات آدم. سوف تصبح الخليقة روحية وغير مادية بحيث يكون للناس "مكاناً للإقامة"، أولئك الذين سيقتنون أجساداً غير جسدانية وسيصبحون "فوق إدراك الحواس في إدراكهم الحسي" وسيكونون "فائقي الوصف في كيانات فوق الوصف"[١٧].

من الواضح أن الحديث هنا هو عن إقامة روحية في مكان خاص حيث سيسكن الروحاني. يشير القديس سمعان مراراً وتكراراً إلى مكان إقامة أو سكن لأن كل الخليقة ستصبح فردوساً وستتغير وتتجدد مع الإنسان[١٨].

---

16 - Ibid. p. 210.
17 - Ibid. p. 212-214.
18 - Ibid. p. 218.

يعطي أيضاً القديس سمعان في تعليمه العديد من الأمثلة لكي يجعل هذا المفهـوم أكثر وضوحاً. بدون أن يكون ذلك مفهوماً بالمنطق البشري لأنه أعلى من كل ذهـن، سوف يصبح كل شيء روحانياً وإلهياً، وسوف يتحد بالمدرك وسوف يصبح "فردوساً عقلياً آخر وأورشليم سمائية". لم يسكن أحد من قبل في مثل هذا المكان الجميل. وهو إذ يقدم العديد من الأمثلة يقول أن الشمس والقمر والنجوم ستلمع لمعاناً أكثر. وسيحدث نفس الشيء مع الأرض حيث سيلمع كل شيء ويعكس جمالاً وحباً. إننـا نستشـهد بأقوال القديس سمعان اللاهوتي الجديد والتي يقول فيها: "سـوف ترتـدي الأرض في تجديدها جمالاً غير موصوف، ونوع من الخضرة غير الذابلة المزينة بزهور منيرة من نوع روحاني بجملته، وهناك يقيم الأبرار بحسب الكلمة المقدسـة"(٢بـط٣:١٣)[19]. **إننـا نتحدث عن اتحاد يفوق الحواس بين الخليقة الأرضية والسماوية.** يعبر القديس سمعان عن ذلك بشدة: "سوف تتحول الخليقة الأرضية المرئية والمحسوسـة وتتحـد بالعـالم السماوي غير المرئي الذي هو فوق الحواس". وعندئذ، عندما تتحد كل الأشياء الأرضية بالسماوية بنعمة الله، "سوف يتلقى الأبرار أيضاً هذه الأرض المتجددة كميراث ينبغـي على الودعاء الذين طوبهم الرب أن يرثوه"[20].

يـبدو من كل هذا التعليم الذي للقديس سمعان اللاهوتي الجديد أننـا عنـدما نتحدث عن الحياة الأبدية وعن تجديد الخليقة فإننا نعني أن الإنسان سيتحول ويعيش في مكان روحاني. **لن تختفي الخليقة ولكنها سوف تتحول وتتجدد وتتغير.**

يعبر أيضاً القديس نيقوديموس من الجبل المقدس عن نفس لاهوت القديس سمعان اللاهوتي الحديث متكلماً عن النعيم الأبدي الذي للأبرار. ومن المؤكد أنه عندما يشـير إلى الناس فإنه يكون أكثر تحليلاً وبساطة ولكنه يقدم الحقيقة اللاهوتية التي أوردناها من قبل. إنه يكتب قائلاً: "إعلم أيها السامع أنه عند المجيء الثاني سـوف يتجـدد العـالم وسيكون أكثر جمالاً وأكثر لمعاناً من الآن. سوف تتطهر العناصر مـن كـل فسـاد، وستكون أكثر لمعاناً من النار، وبشكل ما لن تحرق لأن الحرارة ستمضي بكليتـها إلى الجحيم، وسوف يتطهر الهواء من كل ظلام وضباب. سوف يسطع الماء مثـل المـرآة والبلور. وبالمثل سـتنقى الأرض أيضاً من أي وسخ ومادة مؤذية. فكل الأشياء المؤذية التي تسبب اضطراباً ومرضاً مثل حرارة النار، وبرودة الماء، وظـلام الهـواء، وحـرارة

[19] - Ibid. p. 218-219.
[20] - Ibid. p. 220.

الصيف الحارقة، وكل تلوث وقذارة هذا العالم، كل هذه الأشياء سوف تتجمع معاً في قاع الهاوية من أجل الشقاء الأعظم الذي للخطاة الأردياء. وهكذا سوف تبقى العناصر النقية بحيث أن الأرض ستكون جميلة وغير مؤذية كفردوس آخر.

بطريقة مشابهة سوف تعطي السموات والشمس والقمر والنجوم نوراً باهراً، وسبعة أضعاف أعظم كما يقول أشعياء: إنه أراد أن يكون نور القمر كنور الشمس، ونور الشمس سبعة أضعاف كنور سبعة أيام. ومع ذلك سوف يكف دورانهم، لأنه حيث أن الشمس والقمر والكواكب تدور من أجل مصلحة الإنسان وولادته وموته فإنها ستكف عن هذه الأشياء بعد القيامة العامة. سوف تقف الشمس في الشرق والقمر في الغرب وباقي الكواكب في أماكنها، كما خُلِقَت من البداية، ولن تتغير الفصول، ولن يكون هناك شتاء أو صيف، أو ليل، **ولكن سيكون هناك دواماً مستمراً أبدياً للزمن ببهجة لا تنتهي وفرح لا يُقارَن**. وكل هذه الأشياء ستكون بأمر الله من أجل مجد الأبرار الأعظم ونعيمهم بحيث يتلقون مكافأة أعمالهم الوفيرة"[21].

يُختبَر تجديد الخليقة المستقبلي منذ الآن. فمثلما يستطيع المرء أن يرى مجد الله بالفعل في الحياة الحاضرة، هكذا أيضاً يستطيع أن يصل بالفعل لإدراك التحول المستقبلي للخليقة. عندما يقتني المرء نوساً مستنيراً، فإنه لا يُستعبد للخليقة ولكنه يرى فيها العناصر الداخلية للكائنات ونعمة الله وقواه غير المخلوقة. فهو عندما يقتني نعمة الله في داخله بطريقة مدركة ومحسوسة، فعندئذ يكون عائشاً قيامته وتجديد الخليقة فيبدو كل شيء جميلاً بالنسبة له. ينبغي علينا في ضوء ذلك أن نفحص الوصف الجميل للخليقة الذي يعطيه القديسون. **حيث أن الإنسان هو مركز الخليقة، فإن النعمة غير المخلوقة تعبر من خلاله إلى الخليقة غير العاقلة أيضاً**. وبالتالي تخضع أيضاً الحيوانات المتوحشة للقديسين كما أُخبِرنا في سيرة حياتهم. ولكن رفات القديسين هي المكان الذي تظهر فيه طريقة التغيير والتحويل المستقبلي لحياة الخليقة.

في هذا المعنى نقول أن المسيح بتجسده جلب للأرض الخليقة الجديدة لأنه أعطانا بالفعل إمكانية الحصول على إدراك لتجديدها، ولكنه أعطانا أيضاً التوقع الجاد لتجديدها المستقبلي. **بالتالي ليس لدينا في الكنيسة مجرد إشارات إلى هذه الحياة، ولكن لدينا برهاناً عليها**.

---

[21] - Nicodemus the Hagiorite: Ethics of the Christians, Thessaloniki, 1974, p. 398 (GK).

(٣) النمو المستمر في الدهر الآتي

ليست الحياة الأبدية هي الثبات، ولكنها حركة مستمرة. هذا هو السبب الذي يجعل القديسين أكثر قدرة دائماً على الاشتراك في مجد الله غير المخلوق. هذه الحقيقة يؤكدها التقليد الآبائي.

يُرى الأساس اللاهوتي لهذه الحقيقة في نقطتين، الأولى أن الإنسان مخلوق على صورة الله ومثاله. **وكلمة "مثاله" تشير إلى الحركة والتوجه نحو الله.** ومن الطبيعي أن يوحي ذلك بأنه لا نهاية للكمال لأن هذا يعني مثال كامل تام للمسيح. والنقطة الثانية والمرتبطة بالأولى ترتبط بالفرق بين ما هو غير مخلوق وما هو مخلوق. لا يمكن أبداً أن يكون المخلوق غير مخلوق، **فالمخلوق يتحرك نحو غير المخلوق ولكنه لا يستطيع أن يصبح غير مخلوق في طبيعته.** وهذا هو بالضبط السبب الذي يجعله متحركاً باستمرار، ولن تكون هناك نهاية وانتهاء لهذه الحركة.

يفهم القديسون جيداً من خلال رؤيتهم لله طبيعتهم المخلوقة المتغيرة، ويشعرون بذلك على أنه سقوط. ويقولون ذلك من وجهة نظر أن المخلوق يرى حقارته مقارنة بغير المخلوق. من أجل ذلك، فإن أولئك الذين رأوا الله فهموا الفساد والموت وقالوا مثل إبراهيم "أنا تراب ورماد".

تظهر هذه الحركة المستمرة والنمو في العديد من النصوص الكتابية. فالمضارع المستمر للفعل الذي يُستعمَل في العديد من العبارات مثل: "تب" و"استيقظ" وما إلى ذلك يظهر أن **الأمر لا يتعلق بحالة ثابتة ولكن بنمو مستمر يبدأ بالفعل في هذه الحياة.**

ففي سفر الرؤيا توجد دعوة: "من هو مقدس فليتقدس بعد"(رؤ٢٢: ١١). لا يحدث هذا في هذه الحياة فقط، ولكنه سيستمر أيضاً في الحياة الآتية. فمن يدخل مرحلة التطهير والتوبة سوف يتقدم من قداسة إلى قداسة ومن نعمة إلى نعمة. فكلما يتنعم المرء برؤية مجد الله، كلما زاد اشتياقه إليه. بالإضافة إلى ذلك، هذا هو طريق الفضيلة، **فليس للفضيلة نهاية لأن هذا يعني الشبع، وبالطبع يخلق الشبع ضجراً ومللاً.** وبمقدار كون الفضائل ثماراً للروح القدس ولا يمكن أبداً أن تصل لكمال حياة المسيح، بمقدار ما لا يوجد حدود للفضيلة. نستطيع من خلال هذه الافتراضات أن نفهم أنه لا نهاية للتوبة لأن هذا يعني التشبه بالمسيح في الفضيلة.

يؤكد القديس غريغوريوس النيصي على أن الفضيلة ليس لها نهاية. **فكمال كل الأشياء التي تقاس بالحواس يُحتوى داخل قيود محددة، ومن الطبيعي أن تقاس تلك الأشياء بوحدة قياس.** ولكن لا يوجد حد للخيرات العظمى مثل الفضيلة. "لقد تعلمنا من الرسول أنه في حالة الفضيلة يوجد حد واحد للكمال وهو حقيقة أنها ليس لها حد". ليس للفضيلة نهاية ولا حد. وهو يؤكد على ذلك الرأي في كلمات بولس الرسول: "ليس أني قد نلت أو صرت كاملاً ولكن أسعى لعلي أدرك الذي لأجله أدركني أيضاً المسيح يسوع. أيها الإخوة، أنا لست أحسب نفسي أني قد أدركت ولكن أفعل شيئاً واحداً إذ أنا أنسى ما هو وراء وأمتد إلى ما هو قدام. أسعى نحو الغرض لأجل جعالة دعوة الله العليا في المسيح يسوع. فليفتكر هذا جميع الكاملين منا"(في٣: ١٢-١٥). فعلى حين يشعر بولس الرسول أنه أُدرِك من قِبَل المسيح وأنه على طريق الكمال، إلا أنه يشعر أنه لم يصل بعد.

يقول القديس غريغوريوس النيصي مشيراً لهذا النص الرسولي أن بولس الرسول يسعى في طريق الفضيلة ويجاهد من أجل الأشياء الآتية، ومع ذلك لا يشعر أن هذه الرحلة انتهت لأنه لا يظن أنه من الأمان أن يوقف سعيه. **فنهاية الفضيلة هي الشر، تماماً مثلما يكون الموت هو نهاية الحياة.** والله الذي ليس فيه شر هو خير كامل بالطبيعة. وبالتالي تكون الطبيعة الإلهية غير محدودة وغير محددة، فهي ليس لها نهاية. **تعني ممارسة الفضيلة أن نشترك في الله.** وبالتالي فإن أولئك الذين يعرفون ما هو خير بالطبيعة يشتاقون أن يشتركوا فيه، ولكن حيث أن الخير الطبيعي ليس له حدود ولا نهاية، فإن رغبة المشارك لا تشارك في الخطية. **كنتيجة لذلك، يوجد حد واحد للفضيلة وهو اللاحد الذي ليس له حد. "الحد الوحيد للفضيلة هو غياب الحد"**[٢٢].

إن كان ذلك يحدث في هذه الحياة، فهذا يعني أنه سيستمر أيضاً في الحياة الآتية عندما سيكون للإنسان معرفة أكثر بالله، وهذا سوف يزيد من الاشتياق في الوقت الحاضر. لأنه كلما زاد الحب، كلما زادت المعرفة أيضاً. وكلما زادت المعرفة، كلما زاد الحب أكثر وزاد الاشتياق أيضاً.

يقول القديس سمعان اللاهوتي الحديث أن سكنى الثالوث القدوس في قلب الكامل "المعروف والمحسوس في الحاضر" ليس هو تحقيق الاشتياق ولكنه السبب في اشتياق أعظم

---

[22] - Gregory of Nyssa. Life of Moses, CWS p. 31, 8.

وأكثر التهاباً. **زيارة الله هذه لا تترك الإنسان في سلام، ولكنها تلهبه بالنار.** وإذ لا يجد عقله نهاية للاشتياق، ولا يجد مقياساً لاشتياقه وحبه، وحيث أنه يجبر على الاشتراك في اللانهائي، فإنه بالتالي "يحمل حنيناً بلا حدود وحباً لا يمكن إشباعه أبداً"[٢٣].

هكذا ليس تعريف الكمال أن يُحَدَّد بمقاييس. فيوجد حب لا يكف ويزداد، ويوجد اشتياق لله ملتهب، وأي توقف يكون سيئاً. وبالتالي، وبحسب الآباء، يُعَرَّف الكمال على أنه "كمال الكامل غير المنتهي".

يتكلم تعليم الآباء عن الحياة الأبدية، والشركة في نعمة الله غير المخلوقة، وعن النمو المستمر. يشير القديس مكسيموس للثبات الدائم الحركة الذي لأولئك الذين يشتهون ما يشتهي. وبحسب القديس مكسيموس، يكون الاتحاد بالله مساوٍ للتشبه بالله والشركة فيه. فهو يرى الشركة على أنها التمتع اللانهائي والمستمر بما هو مُشْتَهى. من الواضح هنا أنه يتكلم عن النعيم الأبدي الذي هو ثبات دائم الحركة. إنه يكتب باختصار: **"ثبات الذين يشتاقون الذي هو دائم الحركة جول موضوع اشتياقهم هو لانهائي، وهو تمتع مستمر بموضوع الاشتياق. والتمتع الأبدي المستمر بموضوع الاشتياق هو الشركة في أمور الله الفائقة للطبيعة"**[٢٤].

من الواضح في كل تعليم القديس مكسيموس أن حياة المرء الروحية تنمو باستمرار ولا يُنتظَر أبداً أن تتوقف. وبالتالي يتكلم القديس عن صعود دائم وازدياد في الشركة في الخير. إننا نجد مراراً في كتاباته تعبيرات **"الثبات الدائم الحركة" و"الحركة الثابتة"**. ولكن لكي نفسر هذا البحث الرئيسي بصورة أفضل، ينبغي علينا أن نلقي نظرة على المشاكل التي كان يواجهها من الفلسفة. لأنه من المعروف جيداً أن الآباء كانوا يردون على الأسئلة الوجودية التي كان يطرحها الفلاسفة وأعطوا أجوبة صحيحة استمدوها من إعلان الله.

إذ اتبع أوريجانوس في العديد من الحالات نظريات أفلاطون أكد على أن الحركة كانت موجودة قبل صيرورة الكون وأن الثبات أتى مؤخراً بعد الصيرورة. لقد قال أن الأرواح الموجودة في الله شعرت بالشبع وبالتالي تحركت، وأتى الخلق وصيرورة الكون كثمرة للحركة، وبالتالي كان الشر هو علة خلق الكون. وهكذا يكون خلاص الإنسان

---

[23] - CS 41, p. 34, 1. 7.

[24] - Questions to Thalassius, 59, PG 90, 608-609, CF. Thunberg: Man and Cosmos, p. 45, 25.

هو عودة النفس لله حيث سيكون هناك ثباتاً. وبالتالي يكون الترتيب هو أن الحركة أولاً ثم الصيرورة ثم الثبات. أي أن الأرواح كانت أولاً متحركة، ثم خُلق الكون، وأخيراً يتبع ذلك الثبات عندما تتحرر النفوس من أجسادها وتستقر في الله[٢٥].

يواجه القديس مكسيموس هذا التتابع الموضوع من قِبَل أوريجانوس الذي كان يتحرك بين الآراء الأفلاطونية الخاصة بخلق الإنسان وخلاصه، وعلى الرغم من أن القديس مكسيموس احتفظ بالتعبيرات: حركة، صيرورة، وثبات إلا أنه غيَّر الترتيب وأعطاها محتوى آخر. **فبالنسبة للقديس مكسيموس ليست الحركة هي التي تأتي أولاً ولكن الصيرورة.** فالكون هو خليقة الله الإيجابية. في البدء، خلق الله الكون الذي وضع فيه حركة، **وبدون حركة لم تكن الخليقة لتقدر أن ترتفع نحو الله.** وهكذا تكون الحركة ثمرة لقوى الله الخالقة وهي قد وُضِعَت في الكون وهي ليست علة الأصل ولا سبب سقوط الإنسان والكون. كل خليقة لها إمكانية الحركة المعطاة لها من الله لأنه بدونها لم يكن ليوجد كمال. **من أجل هذا ليست الحركة هي سبب السقوط ولكنها طريقة للصعود.** ومن الطبيعي ألا يكون للحركة نهاية لأن الله غير المخلوق ليس له نهاية طالما أنه لا نهائي.

واجه القديس مكسيموس المشكلة الآتية: طالما أن الحركة هي خاصية طبيعية للخليقة، كيف سيسود الثبات أي كيف ستتوقف هذه الحركة؟ وهذا هو بالضبط السؤال الذي جعل القديس مكسيموس يُدخِل تعبير "الثبات الدائم الحركة" في الإجابة عليه. **سوف يبقى الإنسان في شركة مع الله، ولكن هذا الثبات سيكون حركة لانهائية.** والسبب في ذلك أنه من غير الممكن أن يكون المخلوق مشابهاً لغير المخلوق، والمحدود مطابقاً تماماً للانهائي.

هكذا إذ يرفض القديس مكسيموس مفهوم أوريجانوس عن الحركة – الصيرورة – الثبات، يتحدث عن الصيرورة-الحركة- الثبات، ويقول أن الثبات سيكون دائم الحركة. ومن الطبيعي أنه بعد هذا التعديل في الكلمات يتغير المحتوى أيضاً لأن القديس مكسيموس لم يعني بتعبير "ثبات دائم الحركة" أن النفس تتحرر من الجسد وتبقى مع الله، ولكنه كان يعني الوجود الأبدي للإنسان بجملته المتكون من نفس وجسد، وتكميله المستمر.

---

25 - See the analysis of Dimitriou Staniloa on St.Maximus the Confessor: Philosophical Questions, vol. 1, Apostolic Diaconate, Athens 1978, p. 21 etc., and Nikolaou Ludovikou: Eucharistic ontology, Domos, p. 217 etc (GK).

لا يمكن للخليقة أن تتحرك نحو اللاوجود، ونحو اللاكينونة لأن هذا ممنوع من قِبَل قوى الله الموجهة. وبالتالي تكون حركتها الطبيعية موجهة نحو الحياة في المسيح ونحو إتمام ناموس خلقها.

كل تعاليم الآباء القديسين عن الله موجودة أيضاً داخل هذا الإطار. وسوف نورد فيما يلي العديد من الأمثلة من كتابات اثنين من الآباء اللذين تبنيا مفهوم أنه في الحياة الآتية سيكون هناك نمواً مستمراً للأشخاص الذين لهم نصيب في مجد الله غير المخلوق.

يكتب القديس غريغوريوس السينائي قائلاً: "في الحياة الآتية سوف يزداد الملائكة والقديسون باستمرار في مواهب النعمة ولن يهدأ أبداً اشتياقهم لبركات إضافية. ولن يُقبَل في هذه الحياة التراخي أو التحول من الفضيلة إلى الخطية"[٢٦].

قدم القديس غريغوريوس بالاماس نفس هذا البحث في دحضه لفلسفة برلعام. فقد كان برلعام يؤكد أن أكثر عطايا الله كمالاً هي أن يبقى الإنسان في الصلاة الفائقة للحواس. وبالتالي لا تكون الصلاة المرفوعة في ألم ومعاناة واحدة من أكثر عطايا الله كمالاً.

يستعمل القديس غريغوريوس بالاماس العديد من البراهين لكي يدحض هذا البحث. فهو يقول من ضمن أشياء أخرى أنه لا يوجد ما يسمى عطايا الله الأكثر كمالاً، أي عطايا كاملة لا تقبل الزيادة. لأنه من المعروف والواضح جيداً أن القديسين في الدهر الآتي سوف يتقدمون في رؤية الله بلا نهاية. "فاشتياق أولئك الذين حققوا هذه الرؤية هو غير محدود، طالما أن النعمة الممنوحة لهم بالفعل تعطيهم القوة لكي يتلقوا رؤية أعظم، حيث أن الله الذي يعطي نفسه هو لانهائي ويمنح بوفرة وسخاء. وبالتالي كيف يمكن لأبناء الدهر الآتي ألا يتقدموا في هذه الرؤية إلى ما لانهاية مكتسبين نعمة فوق نعمة وصاعدين بفرح المصاعد التي لا تنتهي أبداً؟". **لا توجد أية عطية يمنحها الله تكون أكثر كمالاً، طالما أن الأكثر كمالاً يكون غير قابل للزيادة**[٢٧].

من أجل ذلك، وبحسب القديس غريغوريوس بالاماس، سيكون هناك نمواً مستمراً في الدهر الآتي، فالثبات يعني الشر. يحدث النمو المستمر أيضاً بالفعل في هذه الحياة وسوف يستمر في الحياة الآتية للأبرار الذين إذ سيشتركون في المجد الإلهي، سوف

---

[26] - Gregory of Sinai, 137 texts, 54, Philok. 4, p. 38.
[27] - Gregory Palamas: Defence of the Hesychasts 2, 2, 11.

يحصلون على اشتياق أعظم وضيق أكبر. بالإضافة إلى ذلك، **فإن الله المحب هو غير نهائي ومن غير المستحيل أن يحجب نفسه عن الطبيعة البشرية المخلوقة.**

حيث أن القديس غريغوريوس بالاماس يرتكز هو ذاته على نص للقديس ديونيسيوس الأريوباغي، ينبغي علينا أن نقول أن القديس ديونيسيوس تكلم في كتاباته عن الرتب السماوية عن وجود ثلاثة رتب للملائكة: الأعلى منها هي الأقرب لله وهي الرتبة الأولى، والأدنى منها هي الأقرب للناس، والرتبة المتوسطة تتلقى الاستنارة من الرتبة الأعلى. وهو بذلك يشير إلى تطهير واستنارة وكمال الملائكة الذي يتناسب مع قدرهم على الاستنارة.

يوجد إذاً نمو في رؤية الله حتى بين صفوف الملائكة بحسب رتبهم المختلفة. فالرتبة الأولى "تصبح متطهرة ومستنيرة ومكمَلة لكونها غير مختلطة بأي ضعف وممتلئة بكل نور وتحقق الكمال كمشاركة في المعرفة الرئيسية والفهم"، "وهي متطهرة من الجهل بواسطة المعرفة التي للرتب المتقدمة الأكثر كمالاً الممنوحة لها". حتى الملائكة تتطهر من الجهل بواسطة المعرفة التي للرتب المتقدمة الأكثر كمالاً الذين يُمنحوا هذه المعرفة بحسب رتبتهم. فالرتب المتقدمة الأكثر كمالاً تهب معرفة أكثر وتسمى هذه المعرفة تطهيراً من الجهل السابق. يحدث نفس الشيء أيضاً مع رتب الملائكة الأخرى[٢٨].

يجب علينا أن نضيف أيضاً أنه بحسب القديس غريغوريوس بالاماس يسمى الدهر الآتي أبدياً، أي أنه لن ينتهي أبداً ليس من جهة الزمن فقط ولكن أيضاً من جهة ازدياد مواهب النعمة. ويشير القديس إلى استحقاق السيدة العذراء الكبير حيث أنه من خلالها أتى المسيح إلى العالم، ويؤكد أيضاً على قيمة والدة الله في الدهر الآتي قائلاً: "في الدهر الأبدي سيكون أي نمو في الاستنارة الإلهية وأي إعلان للأسرار الإلهية وأي شكل من المواهب الروحية مستحيلاً بدون السيدة العذراء"[٢٩].

بالتالي يكون جوهر الحكمة الآبائية أنه في الحياة الآتية لن يكون هناك توقفاً للأبرار ولكن نمواً ثابتاً وهذا سيكون مستمراً طالما أن اشتياق الإنسان يزداد بازدياد معرفته لله، وطالما أنه لا يستطيع أن يكف عن أن يكون مخلوقاً ويصبح غير مخلوق بالطبيعة. يستطيع المرء أن يختبر غير المخلوق بواسطة النعمة وليس بالطبيعة التي تخص الله بصورة مطلقة، الذي هو موجود بذاته وهو الحياة ذاتها.

---

28 - Dionysius the Areopagite: The celestial Hierarchy, ch. 7, CWS p. 162 etc.
29 - Gregory of Palamas, Homily 37, 17, EPE 10, p. 460 (GK).

بالطبع سوف يحدث ذلك لأولئك الذين قبل موهم دخلوا في مرحلة التطهير والتوبة. بمعنى أنه لو تاب شخص ما واعترف ولكن لم يكن لعقله الوقت الكافي للشفاء والاستنارة فإنه سوف يزداد في معرفة الله بنعمة الله. نحن لا نعني ذلك في إطار مفهوم اللاهوت اللاتيني، والذي بحسبه سوف يذهب إلى ما يسمى المطهر الشخص الذي اعترف ولكنه لم يجد الوقت الكافي ليؤدي عقوبته. **فنحن لا نتكلم في الكنيسة الأرثوذكسية عن استرضاء البر الإلهي، ولكن عن الدخول في مرحلة التطهير والتوبة حتى لو لم يكن الشفاء قد كمل.** وفي هذه الحالات سوف تساعد النعمة الإلهية في الشفاء حتى بعد الموت، بمعنى أن أولئك الذين كانوا قد تابوا سوف يصبحون بالنعمة الإلهية قادرين بصورة أفضل على تلقي الاستنارة والاشتراك في مجد الله.

على عكس ذلك، فإن الذين لم يتوبوا ولا أظهروا توبتهم بصورة عملية لن ينموا في الخير والفضيلة. إنني لم أجد نصوصاً في كتابات الآباء تظهر أن غير التائب سوف يتحرك نحو اختبار شر أعظم. فنحن نعلم أنه تماماً مثلما ستوجد درجات في الفردوس بحسب حالة الشخص الروحية، سيكون نفس الشيء صحيحاً بالنسبة للجحيم.

يتكلم السيد المسيح عن المدينة التي سوف تطرد الرسل قائلاً: "الحق أقول لكم ستكون لأرض سدوم وعمورة يوم الدين حالة أكثر احتمالاً مما لتلك المدينة"(مت١٠:١٥). تشير عبارة "أكثر احتمالاً" إلى أنه سوف تكون هناك درجات في الجحيم أيضاً.

في النهاية ينبغي علينا أن نقول أنه توجد حياة أبدية تُختَبَر إما كفردوس أو كجحيم أبدي. وينبغي على هذه الأبدية أن تجعلنا نفكر. سوف يكون لأجساد كل الناس المتغيرة حياة أبدية. وستقوم ثانية أجساد الجميع سواء كانوا خطاة أم أبراراً. قيامة الجسد هي عطية أُعطت لكل الناس بقيامة المسيح. ولكن الأبرار سوف يختبرون الصعود بالإضافة إلى ذلك حيث أنهم سيُخطَفون على السحاب "لملاقاة الرب في الهواء"(١تس٤:١٧). وعند مجيء المسيح الثاني سيكون هناك أيضاً تجديداً للخليقة من الفساد. وبالنسبة للأبرار سوف يزداد ويستمر اشتراكهم في مجد الله. **فلن تكون هناك حالة ثابتة ولكن ثباتاً دائم الحركة، وحركة ثابتة.**

يجب على الإنسان أن يرى فناء ووقتية هذه الحياة، وأن يتطلع إلى الأبدية. يفسر القديس غريغوريوس بالاماس النصوص الكتابية: "لأن هيئة هذا العالم تزول"(١كو٧:٣١)،

و"الوقت مقصر"(١كو٧: ٢٩) فيقول: "الحياة قصيرة، والموت قريب، وهذا العالم زائـــل، والعالم الآخر هو الذي سيـــبقى إلى الأبد". إن ازدراء العالم الحاضر، والاستعداد للعـــالم الآتي، والحياة بانسجام مع طريقة الدهر الآتي بقدر المستطاع، والهروب من الأشياء الضارة التي للعالم الحاضر هي الأشياء التي "ترسلنا إلى ذلك العالم بطريقة آمنة"[٣٠].

يجب على ذهننا أن يتوجه نحو الحيـــاة الأبديـــة لأن "ســـيرتنا نحـــن هـــي في السموات"(في ٣: ٢٠). **إن كان أهل العالم يُحكمون بالنظم الرأسمالية والاشـــتراكية والماركسية، إلا أن سيرة المسيحيين سماوية.** فهدف الإنسان هـــو الاشـــتياق للحيـــاة الأبدية، والشركة في ملكوت الله الذي "ليس له نهاية". **ولن يكـــون هنـــاك كمـــالاً للمنـــتهَى، ولكن سيكون الكمال غير منـــتهي.**

---

[30] - Ibid. Homily 19, 20, EPE 9, p. 568 (GK).

الباب العاشر

الأخرويات السرمدية

لقد قلنا في بداية الكتاب أننا سنـــتناول على الأخص موضوع حياة الإنسان بعد الموت، وقمنا بتـــتبع النفس منذ لحظة انفصالها عن الجسد حتى المجيء الثـــاني للمســـيح وحياتها بعد الدينونة الآتية. يتضمن مصطلح: "علم الأخرويات" كل تلك الموضـــوعات. فمن المعروف جيداً أن الناس في أيامنا هذه منشغلون جداً بالأخرويات وبكـــل أحـــداث الأزمنة الأخيرة. فمن الممكن أن نقول أنه بخلاف كونه سعياً جاداً، **فهو نمط معاصـــر أن نترك الأشياء الحاضرة ونشغل أنفسنا بالأمور الآتية. ربما يكون ذلـــك علامـــة علـــى التدهور.** ففي الواقع في الفترات التي جلبت الأحداث الاجتماعية المتنوعة إحباطاً رهيـــباً، توجه الناس نحو الأمور المستقبلية وسعوا نحوها بقلق. وعندما كانت للأنظمة الاجتماعيـــة المتمركزة حول الإنسان أسساً راسخة تعلق الناس بها و لم يكونـــوا يتطلعـــون للأمـــور المستقبلية. وعلى عكس ذلك في الأزمنة التي كان فيها كل شيء غير مستقر، حاول الناس أن يجدوا شيئاً أعمق. وهكذا اليوم أيضاً ظهر علم دراسة التغيرات المستقبلية من وجهة نظر بشرية لفحص مستقبل العالم ومحاولة التطلع للظروف المستقبلية لحياة الناس.

لكن المسألة هي أنه يوجد اليوم ارتباك رهيب من جهة هذا البحـــث. **فـــيخلط العديد من المسيحيين بين اللاهوت الأرثوذكسي الخاص بالأخرويات وبين التفسيرات الهرطوقية الأخرى له.** وهم يعملون كما لو كانوا تابعين لـــدين آخـــر أو للفلســـفة الإنسانية. إنهم يخلطون المواضيع التي لا يرونها في أبعادها الحقيقية. وبالتالي، ينبغي علينا أن ننظر لموضوع الأخرويات من وجهة نظر أرثوذكسية. وبهذه الطريقة فقط ســـوف نتجنب فخ خلطه بعناصر أخرى تسبب تشويهاً للإعلان.

يعني مصطلح " الأخرويات السرمدية" أنه في التقليد الأرثوذكسي ليست الأشياء الأخيرة هي ببساطة الأشياء المستقبلية، **بمعنى أنها ليست مرتبطة بالزمن على الإطـــلاق ولكنها مرتبطة بطريقة الحياة. بالتالي تكون الأخرويـــات هـــي الماضـــي والحاضـــر والمستقبل في نفس الوقت.** وهكذا إذ نتكلم عن الأخرويات من منظور أرثوذكســـي، ينبغي علينا دائماً أن نضع في الاعتبار أن الأمور الأخيرة التي ســـتحدث في المســـتقبل مشابهة للأمور الأولى والأمور المتوسطة.

(١) تفسير مصطلح "الأخرويات"

يعني مصطلح "الأخرويات" الكلمة الخاصة بالأمور الأخيرة، أي أننا نتكلم عن الأمور الأخيرة. وتماماً مثلما يعني مصطلح "المسيحيات" الكلام عن المسيح ومصطلح "الكنسيات" الكلام عن الكنيسة، هكذا ينطبق نفس الشيء على مصطلح "الأخرويات".

تُستعمَل كلمة Eschata (إسخاتا) للتعبير عن معانٍ كثيرة. فهي توحي في المقام الأول بالشيء الأخير والأشياء الأخيرة، وهذا من منظور المكان والعمق (أعلى – أدنى)، والحالة، والشخص، والزمان. وبالتالي نستطيع استعمالها لنتكلم عن المكان الأخير، والشخص الأدنى، والشخص العامي الحقير، وعن الأحداث التي سوف تحدث في المستقبل[٣١].

إننا نستطيع أن نجد كلمة "إسخاتا" في العهد الجديد في معانٍ عديدة مختلفة. وأود أن أذكر هنا العديد من الأمثلة المميزة.

تكلم المسيح عن مجد الرسل القديسين الذين تركوا كل شيء وتبعوه قائلاً: "ولكن كثيرون أولون يكونون آخرين وآخرون أولين"(مت١٩: ٣٠). لقد قيل ذلك من منظور القيمة. فالرسل الذين اعتبروا أنفسهم آخرين مقارنة بحكماء وأقوياء زمنهم أثبتوا أنهم أولون في القيمة. توجد العديد من النصوص في الكتاب المقدس بهذا المعنى.

وفي حالة أخرى، يشير المسيح للسلوك عند الدعوة للعرس فقال أنه ينبغي على المرء أن يختار المتكأ الأخير بحيث أنه عند الضرورة يدعوه المضيف إلى أعلى. "بل متى دعيت فاذهب واتكئ في الموضع الأخير حتى إذا جاء الذي دعاك يقول لك يا صديق ارتفع إلى فوق"(لو١٤: ١٠). كلمة "الأخيرة" هنا موضوعة كضد لكلمة "الأعلى" وهي تعني المتكأ الأدنى. وهي أيضاً بخلاف أشياء أخرى تشير إلى الاتضاع الذي ينبغي أن يميز تلاميذ المسيح. من أجل ذلك ينصح الرب في موضع آخر قائلاً: "إذا أراد أحد أن يكون أولاً فيكون آخر الكل وخادماً للكل"(مر٩: ٣٥).

تُستعمَل أيضاً كلمة "إسخاتوس" من منظور جغرافي للتعبير عن أقصى حد لأفق الأرض. لقد أعلن المسيح لتلاميذه: "لكنكم ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم وتكونون لي شهوداً في أورشليم وفي كل اليهودية والسامرة وإلى أقصى

---

[31] - Liddell & Scott: Mega lexiko tis ellinikis glossis, vol. 2, Athens, p. 342.

الأرض"(أع١:٨). أعلن المسيح بهذه الكلمات أنهم سيتلقون الروح القدس ويصبحون شهوداً له في العالم كله.

بالتأكيد تُستعمل كلمة إسخاتولوجي بصورة رئيسية للتعبير عن نهاية الزمان. ويوجد هذا المعنى في مواضع عديدة في العهد الجديد. وبالتالي سوف نرى العديد منها فيما يلي دون أن نخوض في النصوص التي تشير أيضاً لمعانٍ أخرى للكلمة عن الأمور الحاضرة.

لقد ربط المسيح في أحاديثه الأمور الأخيرة بقيامة الجسد، وبالتالي بالدينونة التي سوف تليها. لقد تحدث إلى اليهود قائلاً: "وهذه مشيئة الآب الذي أرسلني أن كل ما أعطاني لا أتلف منه شيئاً بل أقيمه في اليوم الأخير"(يو٦:٣٩). لقد كان هذا أيضاً اعتقاد اليهود وهذا هو السبب الذي جعل مرثا أخت لعازر تجيب على تأكيد المسيح: "سيقوم أخوك" قائلة: "أنا أعلم أنه سيقوم في القيامة في اليوم الأخير"(يو١١: ٢٣-٢٤). وكما قلنا من قبل ترتبط قيامة الأموات بالدينونة الآتية. من أجل ذلك قال المسيح: "من رذلني و لم يقبل كلامي فله من يدينه. الكلام الذي تكلمت به هو يدينه في اليوم الأخير"(يو١٢:٤٨).

تشير الأمور الأخيرة أيضاً إلى الحقبة التي تسبق مجيء المسيح ليدين الناس عند نهاية الزمان، أي عندما يتقسى الناس ويصل الشر لأقصى درجاته. من أجل ذلك يؤكد بولس الرسول لتلميذه تيموثاوس: "ولكن اعلم هذا أنه في الأيام الأخيرة ستأتي أزمنة صعبة"(٢تي٣:١). يعبر بطرس الرسول عن نفس المنظور عندما يذكر حقيقة: "عالمين هذا أولاً أنه سيأتي في آخر الأيام قوم مستهزئون سالكين بحسب شهوات أنفسهم"(٢بط٣:٣).

كنتيجة لذلك، يُستعمل تعبير "أخرويات" ليشير للأزمنة الأخيرة في نهاية الزمان عندما يأتي المسيح ليدين الناس، ولكل الأشياء التي ستأتي قبل وبعد ظهوره. ولكننا نستطيع أن نضيف أن كلمة "أخرويات" تشير أيضاً لرحيل النفس عن الجسد عندما تبدأ الدينونة الخاصة للناس.

إننا نرى من كلمات التقديم البسيطة هذه أنه ليس أمراً سهلاً أن نقصر كلمة أخرويات على مجرد بُعد واحد وهو بُعد الزمان، **لأننا في المفهوم الأرثوذكسي للزمن نعيش وحدة الماضي والحاضر والمستقبل، طالما أنه في القديسين الذين هم أعضاء حقيقيون للكنيسة يعاش الماضي والمستقبل على أنهما حاضر**. من أجل ذلك نستطيع أن نتكلم عن أخرويات سرمدية وخصوصاً لأن الأمور الأخيرة تشبه الأمور الأولى والمتوسطة.

(٢) الزمن في المفهوم الأرثوذكسي

ينبغي علينا أن نتوقف لنفحص موضوع الزمن في المفهوم الأرثوذكسي لكي نرى بطريقة أوضح التعليم الأرثوذكسي عن الأخرويات. سوف يساعدنا ذلك على أن نرى بصورة كاملة هذا الموضوع المهم والرئيسي والذي هو أيضاً حديث. بالإضافة إلى ذلك، فإن عنوان هذا الباب هو " الأخرويات السرمدية".

إن اهتمامنا بالزمن ليس من وجهة نظر علمية ولكن من وجهة نظر كنسية وبصورة رئيسية يكون مرتبطاً بإعلان الله. بالإضافة إلى ذلك، فإن اهتمامنا بالأمور الأخيرة يكون باستمرار مرتبطاً بالمجيء الثاني للمسيح والسعادة الآتية.

إننا نستطيع أن نقول أنه في الزمن السابق لتجسد المسيح كان الزمن خطِّياً (يسير في خط مستقيم) حيث كان اليهود منتظرين مجيء المسيا ليخلصهم من العبودية والخطية. ولكن في الزمن الكنسي، منذ أن أتى المسيح وصار إنساناً وأعطى كل إنسان إمكانية الحياة في ملكوت الله فإن ما يُختبر ليس خطياً بصورة رئيسية ولكنه زمن الصليب. **فلم نعد نُقاد بعد لاكتشاف ملكوت الله في المستقبل، ولكن المسيح وملكوته يتحركان نحونا، أي أنهما يأتيان ويلاقياننا في كل لحظة من الزمان.** فلو وضعنا في اعتبارنا أن المسيح بتجسده أعاد آدم إلى الفردوس ثانية وبالطبع رفعه لتلك الرتبة التي كان سيصل إليها لو لم يكن قد أخطأ، فإننا نستطيع التحقق أن **الأمور الماضية والأخيرة تُختبر في الحاضر، وبالتالي نحن نعيش فيما يسمى الزمن الليتورجي. فالزمن محاط بالأبدية.**

إن أخذ المسيح لشكل الإنسان جلب الأمور الأخيرة إلى التاريخ والزمن، وترى هذه الحقيقة في العديد من نصوص الكتاب المقدس. أود أن أذكر النصوص الأكثر رئيسية.

يكتب بولس الرسول مشيراً للطريقة التي أعلن فيها الله عن نفسه قائلاً: "الله بعدما كلم الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة. كلمنا في الأيام الأخيرة في ابنه"(عب١: ١-٢). تظهر هذه الكلمات أن الأيام الأخيرة هي أيام ظهور المسيح. لقد بدأ ملكوت الله بدخول المسيح إلى العالم.

يكتب بطرس الرسول مشيراً للفداء الحادث بواسطة تجسد المسيح قائلاً: "عالمين أنكم افتُديتم لا بأشياء تفنى بفضة أو ذهب من سيرتكم الباطلة التي تقلدتموها من الآباء.

بل بدم كريم كما من حمل بلا عيب ولا دنس دم المسيح. معروفاً سابقاً قبل تأسيس العالم ولكن قد أُظهر في الأزمنة الأخيرة من أجلكم"(١بط١ :١٨-٢٠). لقد كان مجيء المسيح لخلاص الجنس البشري مقدراً قبل تأسيس العالم، ولكنه تحقق أخيراً في الأزمنة الأخيرة. ودخل الرسل القديسون الذين وُجدوا مستحقين للإعلان العظيم في حياة الأزمنة الأخيرة.

لا تشير نهاية الدهور في الإنجيل إلى نهاية الزمان، ولكن أيضاً لصيرورة المسيح إنساناً طالما أنه أعطانا إمكانية أن نعيش حياة الأمور الأخيرة. يكتب بولس الرسول عن تجارب اليهود في العهد القديم قائلاً: "فهذه الأمور جميعها أصابتهم مثالاً وكُتبت لإنذارنا نحن الذين انتهت إلينا أواخر الدهور"(١كو١٠:١١).

توجد أيضاً إشارة إلى الأمور الأخيرة في حديث المسيح مع مرثا أخت لعازر الذي ذكرناه من قبل. فقد أكد لها السيد المسيح أن أخوها سيقوم ثانية. فأجابت أنها كانت تعرف أنه سيقوم في اليوم الأخير، ثم قال لها المسيح: "أنا هو القيامة و الحياة من آمن بي و إن مات فسيحيا. وكل من كان حياً وآمن بي فلن يموت إلى الأبد"(يو١١:٢٣)، وبعد ذلك بقليل أقام لعازر.

هذا الحديث والمعجزة التي تبعته معبران، فهما يظهران أن المسيح هو القيامة والحياة، وبالتالي هو بمجيئه للعالم جلب أيضاً القيامة والحياة. ينبغي علينا أن ننظر لقيامة لعازر في هذا الإطار. **لم يُقِم المسيح لعازر لمجرد مشاعر الحب**، ولكنه أراد أن يوضح أن ذلك كان عربوناً لقيامة الناس وأنه هو ذاته القيامة وأنه بتجسده انتفى الموت وبالتالي أتى ملكوت الله إلى العالم بتجسده. **وهكذا ليس ملكوت الله الحياة بعد الزمان ولكنه الاختبار الفعلي لله في هذه الحياة.**

يوضع الزمان واختبار الأمور الأخيرة في التسابيح أيضاً في هذا الإطار. فنحن نسبح في تسبحة القيامة قائلين: " الكلمة المساوي للآب في الأزلية وعدم الابتداء، المولود من العذراء لخلاصنا، لأنّه سرّ بالجسد أن يعلو على الصليب ويحتمل الموت وينهض الموتى بقيامته المجيدة"[٣٢].

هكذا، في العهد الجديد، ليس ملكوت الله توقع أخروي فقط ولكنه حقيقة أتت. يقول القديس غريغوريوس بالاماس محللاً هذه الحقيقة أنه يبدو في الكتاب المقدس أن اختبار ملكوت الله يحدث بثلاثة طرق.

---

[32] - Great Vespers stichiron in the 5th tone, cf. Nasser p. 161.

الطريقة الأولى هي أن ملكوت الله قادم، وبالتالي تكون التوبة مطلوبة كما أعلن ذلك يوحنا السابق للمسيح. والطريقة الثانية هي أن ملكوت الله قد أتى وخصوصاً "في داخلكم"(لو١٧: ٢١). والطريقة الثالثة هي أن ملكوت الله سوف يأتي بكل ملئه ومجده. فالمسيح نفسه، ورؤية الله غير المخلوقة هي ملكوت الله.

يقول القديس غريغوريوس بالاماس: "توبوا لأنه قد اقترب ملكوت الله. وليس فقط أنه اقترب ولكنه أيضاً سيكون موجوداً بوضوح عن قريب. وطالما أنه كنتيجة لذلك قد اقترب ملكوت الله، وهو داخلنا، وسوف يكون موجوداً عن قريب فلنجعل أنفسنا مستحقين له من خلال أعمال التوبة"[٣٣].

من أجل هذين السببين، أي بسبب أن ملكوت الله قد أتى وبسبب أنه سيأتي في نهاية الزمان دون أن نعرف متى سيحدث ذلك، فبالتالي تكون كل لحظة من الزمن "الساعة الأخيرة"(١يو٢: ١٨) بحسب قول يوحنا الإنجيلي.

كنتيجة لذلك لا يكون الزمن في المفهوم الأرثوذكسي خطّياً، بمعنى أننا لا ننتظر ملكوت الله في المستقبل، ولا هو دائري بالمعنى الأفلاطوني أي أنه بلا بداية ولا نهاية، ولكننا نستطيع أن نقول أنه على شكل صليب. بمعنى أنه على الرغم من أننا مساقون للحياة بعد الموت وللبركات الأبدية، إلا أننا نستطيع أن نعيش هذه البركات المستقبلية في هذا الزمان أيضاً. **بالتالي لا يعمل الزمن في المفهوم الأرثوذكسي كثيراً مثل الماضي والحاضر والمستقبل ولكنه يعمل كزمن مكثف خلاصي وليتورجي.**

هذا يعني قبل كل شيء أن "الأمور الأخيرة" في التقليد الأرثوذكسي ليست هي الحياة بعد الموت وبعد المجيء الثاني للمسيح، ولا هي حياة الدهر الآتي، ولكنها شركة واتحاد مع المسيح، والتي تحدث بالفعل في هذه الحياة. **علم الأخرويات المفصول عن الماضي والحاضر ليس أرثوذكسياً ولكنه تشويه لتعليم الكنيسة عن الأمور الأخيرة.**

(٣) ماضي وحاضر الأمور الأخيرة

عندما نتحدث عن الأمور الأخيرة كما أوضحنا فإننا نعني بصورة رئيسية الأمور التي سوف تحدث في الحياة بعد الموت وفي الحياة قبل وبعد المجيء الثاني للمسيح وظهوره

---

33 - Gregory Palamas works, EPE 9, p. 252ff, Homily 10 (GK).

في العالم ليدين الناس. ولكن في التقليد الأرثوذكسي التفسيري كما سنرى فيما يلي، نحن لا نعيش الأمور الأخيرة كتوقع مستقبلي ولكن كحقيقة واقعة. **بالتالي تكون الأمور الأخيرة في الرجال القديسين ثلاثية الأبعاد، فهم ينتمون للماضي والحاضر والمستقبل.** سوف نفحص ذلك بصورة أكثر تحليلاً فيما يلي.

(أ) ما هو ملكوت السموات

من الواضح في كل التقليد الآبائي أن ملكوت الله ليس حقيقة مخلوقة يحكمها العالم ولكنها رؤية النور غير المخلوق. وطالما أن رؤية النور غير المخلوق هي تألّه الإنسان واتحاده بالله، فإن ملكوت السموات يكون الاشتراك في مجد الله. وبالتالي سيكون مجد الله مشتركاً بين المسيح والقديسين المتحدين بالله، ولكن مع الفارق أن المسيح هو مصدر المجد غير المخلوق والملكوت حيث أنه الله، على حين أن القديسين سيكونون مشاركين فيه بالنعمة. يؤكد القديس اسحق السرياني قائلاً: "تقصد الأسفار المقدسة "بملكوت الله" رؤية الله الروحية"[٣٤].

في الموعظة على الجبل، طوّب المسيح المتواضع والوديع قائلاً: "طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات. طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض"(مت٥: ٣-٥). إذ يحلل القديس غريغوريوس السينائي السكوني هذا النص، وخصوصاً معنى ملكوت الله يقول: "أرض الودعاء هي ملكوت السموات". وهو يشرح أن ملكوت السموات هو حالة المسيح الإلهية التي وصلنا لها أو نحن في عملية الوصول لها، ومن خلال النعمة وُلِدنا ثانية في حياة القيامة الجديدة كأبناء الله. أو أيضاً الأرض المقدسة هي "الطبيعة البشرية المتحدة بالله" عندما تتأله أو حتى عندما تتطهر. بالإضافة إلى ذلك فإن الأرض المقدسة هي السكون الإلهي والسلام الذي يفوق العقل[٣٥]. وهكذا يكون ملكوت الله هو الاشتراك في نعمة الله بواسطة القديسين المتحدين بالله.

من المؤكد أنه أمر معروف جيداً أنه ستكون هناك حالات للناس مختلفة بحسب عمق اتحادهم بالله. وكلمات القديس غريغوريوس عن هذه النقطة أيضاً معبرة. فهو إذ يحلل كلمات المسيح لتلاميذه: "في بيت أبي منازل كثيرة"(يو١٤: ٢) يقول أن ملكوت

[34] - Isaac the Syrian: Ascetical homilies, Hom. 72, p. 353.
[35] - 137 texts, 47, Philok. 4, p. 221.

الله هو واحد ولكن في داخله مستويات مختلفة بحسب "مراحل الصعود الروحي المختلفة وحالات النمو في العالم الآخر". في السماء سوف يضيء الجميع ولكن "نجم يمتاز عن نجم في المجد" بحسب قول بولس الرسول (١كو ١٥: ٤١). وبالتالي سوف يضيء القديسون المتحدون بالله "بحسب فضيلتهم ومعرفتهم ودرجة اتحادهم بالله"[٣٦].

يحلل نفس القديس ذلك مستخدماً مثال خيمة الإجتماع. فخيمة موسى كان لها حجابين وخيمتين جزئيتين. وبهذه الطريقة يشبه ملكوت السموات الخيمة التي صممها الله لموسى. "فكل من هم كهنة للنعمة" سوف يدخلون عبر الحجاب الأول، ولكن الأكثر كمالاً فقط هم الذين يعبرون الحجاب الثاني. والحجاب الثاني، الذي هو حجاب عقلي سوف يدخله فقط أولئك الذين دخلوا هذه الحياة من خلال سحاب معرفة الله واحتفلوا بالليتورجية الثلاثية كرؤساء كهنة كاملين بعقلهم وكلمتهم وروحهم، مقتنين المسيح كمقدس لهم وكرئيس كهنتهم الأعظم[٣٧].

هكذا يكون الكهنة في النعمة، أي القديسون الذين خلال حياتهم دخلوا في استنارة النوس سوف يوجدون مستحقين لدخول الخيمة الأولى، على حين أن رؤساء الكهنة في المسيح أي اللاهوتيين الحقيقيين الذين يرون الله سوف يدخلون الخيمة الثانية إذ تلقوا الاستنارة بصورة أوضح.

هذا يعني أنهم بحسب طهارة قلوبهم واستنارة نوسهم في هذه الحياة سوف يُمنحون أيضاً الخبرة المناسبة والمعادلة. وبالتالي نصل بالضرورة لنتيجة وهي أن ملكوت السموات هو رؤية الله "وجهاً لوجه" وهو شركة واتحاد الإنسان بالله.

إن أمثلة السيد المسيح عن ملكوت السموات معبرة وتصيب الهدف. ففي العديد منها يشَّبه ملكوت السموات برب بيت يقيم عرساً. إنني أود أن أذكر أحد هذه الأمثلة. فقد قال الرب: "يشبه ملكوت السموات إنساناً ملكاً صنع عرساً لابنه وأرسل عبيده ليدعوا المدعوين إلى العرس"(مت٢٢: ٢-٣). إذ يفسر ثيوفيلاكتس هذا المثل يعطي ملاحظات مهمة مرتبطة بالموضوع الذي نناقشه. فهو يقول أننا عندما نعيش كأناس ذوي أهواء وضعفات، يبدو الله أيضاً مثل إنسان. وعندما نعيش كآلهة بواسطة النعمة "فإن الله يكون حاضراً في وسط تجمع للآلهة". وعندما نعيش مثل الحيوانات "فإنه أيضاً

36- Ibid. 44, p. 220.
37 - Ibid. 43.

يصبح بالنسبة لنا مثل نمر ودب وأسد". يقدم الله في هذا المثل كإنسان يحتفل بعرس ابنه. وهو يتكلم عن عرس ابنه "مزوِّجاً إياه لكل نفس جميلة. فالمسيح هو العريس، والكنيسة والنفس هي العروس".

بالتالي يُظهِر مثل العرس اتحاد المسيح بالناس المرتبطين به. لقد دعاهم إلى العرس والعشاء. فملكوت السموات يشبه العشاء "كما هو الحال في الأزمنة الأخيرة عندما يُظهَر أخيراً، مثل هذا العرس وعند المساء أو عند نهاية الدهور". من الواضح هنا أنه يشير إلى سر تجسد الابن وكلمة الله، أي عندما اتحد الإلهي بالطبيعة البشرية بلا رجعة وبلا اختلاط ولا امتزاج ولا انفصال. هذا العشاء الذي يُشَبَّه به ملكوت السموات يسمى هنا إفطاراً "لأنه حتى في الدهور السابقة أُعلِن السر، حتى لو كان قد أُعلِن بصورة أكثر غموضاً"[٣٨].

يقودنا ذلك إلى استنتاج أن ملكوت السموات أتى مع تجسد المسيح وأن هذا السر أُعلِن أيضاً في ما سبق وإن كان بصورة أكثر غموضاً. سوف نقوم بفحص هذه النقطة فيما يلي. ولكنني أتمنى أن أكرر من جديد أن ملكوت الله وملكوت السموات هما مترادفان مع رؤية النور غير المخلوق واتحاد الإنسان وشركته مع الله.

(ب) الأمور الأخيرة كالأولى

من التعاليم الواضحة لآباء كنيستنا القديسين أن الله لم يخلق الإنسان مائتاً، وأن الله ليس هو سبب الموت، ولكنه خلق الإنسان بإمكانية الوصول للاتحاد بالله والثبات فيه. ويقول القديس غريغوريوس السينائي على وجه الخصوص أن جسد الإنسان كان قد خلق على غير فساد، "وأن هذه هي الحالة التي كان سيكون عليها عندما يقوم"، وأن النفس كانت قد خُلِقَت بدون أهواء[٣٩]. وبتعبير آخر، أن جسد الإنسان خُلِق من قِبَل الله على الحالة التي سيكون عليها بعد قيامة الأموات، أي على غير فساد. وفي الحقيقة كانت النفس بلا هوى، وهذا يعني أن الله ليس هو سبب الشر.

يؤكد بعض الآباء القديسين على أن آدم بعد خلقه مباشرة كان في مرحلة الاستنارة، ويؤكد آباء آخرون على أنه كان في حالة اتحاد بالله. كلا هذين التقليدين

38 - PG 123, 384f, Theophylactus of Bulgaria: On the Gospel of Mathew chapter 22.

39 - 137 texts, 82, Philok. 4, p. 228.

موجود في تعليم القديس يوحنا الدمشقي الذي كان معروفاً جيداً أنه صنع موجزاً لتعليم كل الآباء القديسين. لقد قمت في إحدى دراساتي الأخرى بتحليل تعليم القديس يوحنا الدمشقي هذا، حيث يبدو أن عقل آدم كان مستنيراً وكانت له رؤية الله. على أية حال، فالاستنارة هي أول مرحلة لرؤية الله[٤٠].

كنتيجة لذلك، عاش آدم في فردوس مدرك معقول، وكان في شركة مع الله واختبر ملكوت الله، ولكن كان عليه أن يتثبت في هذه المرحلة ثم يتقدم للأكل من شجرة الحياة. ولكنه إذ بقى على غير خبرة عملية و لم يطع إرادة الله فشل في هذا المسعى. بالإضافة إلى ذلك، تظهر الطريقة التي يفسر بها القديس يوحنا ذهبي الفم سيرة آدم وحواء في جنة عدن أن الإنسان الأول كان مملوءاً من الروح القدس وأنه لم يكن يرتدي أقمصة الجلد التي للفساد والموت، وأنه كان لابساً الروح القدس وكان يتحدث مع الله، وكل هذه الأشياء هي الصفات المميزة للإنسان المتحد بالله، وهي سمات أناس ملكوت السموات الآتي. ومع ذلك يوجد فرق في حقيقة أن الطبيعة البشرية الآن اتحدت بالطبيعة الإلهية في شخص كلمة الله وعندئذ تباركت الحياة وبدأ التأله النهائي[٤١].

أود أن نفحص وصف القديس مقاريوس المصري لحياة آدم في الفردوس بدون أن أقدم تحليلاً مفصلاً لهذين الأبوين من آباء الكنيسة حيث أنني قدمت ذلك في دراساتي الأخرى. فهو إذ يصف حالة آدم قبل السقوط يقول أنه كان مقتنياً الروح القدس وكان متحداً بالكلمة، "لقد كان الكلمة معه". وعلى الرغم من أنه كان عرياناً إلا أن كلمة الله كانت تستره: "كان الكلمة معه، وكان هو كل شيء بالنسبة له: المعرفة والخبرة والميراث والتعليم".

بعد ذلك يكتب أنه مثلما عمل الروح القدس في أنبياء العهد القديم "وعلّمهم وسكن فيهم وظهر لهم خارجياً، هكذا كان الحال مع آدم". لقد علمه الروح القدس، ولكن كلمة الله نفسه كان كل شيء بالنسبة له أيضاً، وبهذه الطريقة كان آدم "موضع مسرة الله"[٤٢] بمقدار ما كان مطيعاً للوصية. وفي جنة عدن كان آدم في شركة مع المسيح الكلمة، الأقنوم الثاني للثالوث الأقدس، كما كان أيضاً في شركة مع الروح القدس.

---

[40] - See Archim. Hierotheos Valchos: Kairos tou poiisai, p. 94f (GK).
[41] - See Archim. Hierotheos Vlachos: Antolika vol. I, p. 130f (GK).
[42] - Macarius of Egypt, Homily 12, CWS p. 99.

إن الملحوظة التي قدمها القديس مقاريوس المصري عن أن الروح القدس كان يعمل في آدم قبل السقوط مثلما عمل في الأنبياء، "وعلمهم وسكن فيهم وظهر لهم خارجياً"، تقودنا إلى استنتاج آخر وهو أنه على الرغم من سقوط آدم وطرده من الفردوس، إلا أن الله استمر في شركته وعلاقاته مع أصدقائه، وبهذه الطريقة كان هناك العديد من الأصدقاء لله حتى قبل تجسد الكلمة. وبالتالي، بحسب تعليم القديس غريغوريوس بالاماس، كانت نعمة الله تعمل قبل الناموس وبعد الناموس، وقبل تجسد المسيح وأثناء التجسد وبعده.

العهد القديم مملوء بظهورات الله. **وبالطبع ليست هذه الظهورات ظهورات بصرية ولكنها إعلانات ورؤى الله من خلال الاتحاد به**. وهذا هو السبب الذي يجعلنا نقول أنه كان هناك اتحاداً بالله في العهد القديم، مع الفارق أن الموت لم يكن قد أُلغي على المستوى الوجودي بعد، وأن الطبيعة البشرية لم تكن قد اتحدت بالطبيعة الإلهية في شخص اللوغوس بعد. وهكذا أتت رؤية الله من الداخل خلال الاتحاد به، ولكن جسد المسيح المتجسد لم يكن قد وُجِد بعد ولم يكن المقدَسون أعضاء في جسد المسيح بعد.

ينبغي علينا أن نشير هنا إلى أن كل ظهورات الله في العهد القديم كانت ظهورات للكلمة غير المتجسد وأنها لم تكن ظهورات للآب. لم يرَ الأنبياء ، الذين كانوا أصدقاء لله، الآب ولكنهم رأوا الابن. وعلى أية حال كانت لهم شركة مع الآب أيضاً من خلال الابن. ولكي نعبر عن ذلك بصورة أفضل ينبغي علينا أن نقول أنهم رأوا الآب أيضاً في الابن.

يقول يوحنا الإنجيلي في بداية إنجيله: "الله لم يره أحد قط. الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو خبَّر"(يو ١:١٨). يفسر القديس كيرلس الإسكندري هذا النص فيربطه بقول المسيح: "فكل من يسمع من الآب وتعلم يقبل إليّ. ليس أن أحداً رأى الآب إلا الذي من الله"(يو ٦: ٤٥-٤٦)، ومن جهة أخرى يربطه بجوهر الله الذي لا يُتطلع إليه ولا يُرى من قِبَل الإنسان. وهو في الواقع يقول: "لأن الآب هو مرئي بالطبيعة للابن فقط، وبالتالي لكل من يوجد مستحقاً لرؤية وإدراك الطبيعة الإلهية، وليس لأية كائنات أخرى بالمرة"[43].

إنه أمر معروف جيداً أن العديد من تسابيح كنيستنا تقول بوضوح أن ظهورات الله في العهد القديم هي ظهورات للكلمة غير المتجسد. توجد أيضاً شواهد كتابية على

---

[43] - On the Gospel of John, Bk. 1, ch. 10, PG 73, 177c.

ذلك. فبولس الرسول إذ يتكلم عما شربه العبرانيون في البرية يكتب قائلاً: "لأنهم شربوا من الصخرة الروحية التي تبعتهم والصخرة كانت المسيح"(١كو١٠: ١-٤). نفس هذا المسيح أشار إلى الخبز الذي أكله العبرانيون في البرية وسؤل من قِبَل سامعيه "يا رب أعطنا هذا الخبز باستمرار" فأجاب: "أنا هو خبز الحياة... الذي نزل من السماء"(يو٦: ٣١-٤١). لقد أعطى الآب الخبز وهذا الخبز هو اللوغوس.

هكذا تُظهر العديد من التسابيح، التي تعبر عن علم لاهوت الكنيسة، هذه الحقيقة العظيمة عن أن الله المعلَن في العهدين القديم والجديد هو اللوغوس، الأقنوم الثاني من الثالوث الأقدس، مع اختلاف واحد هو أنه كان في العهد القديم غير متجسد وكان متجسداً في العهد الجديد. فنحن نسبح في إحدى التسابيح قائلين: " لقد أتمّ المسيح النبوءة الداودية بإظهاره عظمته في صهيون للتلاميذ. فأعلن نفسه مسبّحاً وممجداً دائماً مع الآب والروح القدس. وقد أعلن لهم نفسه في البدء كلمة الله بلا جسد. ثم إنساناً قد تجسّد من أجلنا لفرط محبته للبشر. ومات وقام منبعثاً بذات سلطانه" [٤٤].

الله الذي ظهر على جبل سيناء وجبل طابور هو الكلمة نفسه: "هذا الذي تكلم مع موسى برموز على جبل سيناء قديماً قائلاً: "أنا أهية الذي أهية"، والذي تجلى اليوم على جبل طابور مظهراً لتلاميذه جمال الصورة إذ اكتسب لنفسه المادة البشرية"[٤٥]. والملاك الذي ظهر للثلاثة فتية في آتون النار هو الكلمة الذي صار جسداً: "هذا الذي أنقذ الثلاثة فتية القديسين من آتون النار، لمّا صار إنساناً تألم كمائت"[٤٦]. هذا الذي قاد شعب العبرانيين من أرض مصر إلى أرض الموعد هو كلمة الله الذي تألم ودُفن بأيدي أبناء أولئك الذين خلصوا في ذلك الحين: "إنّ أولاد الذين نجوا قد أخفوا تحت الثرى الإله الذي أخفى المارد المضطهد قديماً في أمواج البحر"[٤٧]. إنني أعتقد أن هذه التسابيح هي الأكثر تعبيراً ولا تقدم تفاسيراً مختلفة.

إنه أمر مميز جداً أنه في القرن الرابع كان هناك اتفاقاً مطلقاً بين الأرثوذكس والأريوسيين على أن الملاك ورب المجد اللذين ظهرا للأنبياء كانا الكلمة الذي عند تجسده أظهر مجد الآب للرسل. ولكن بالطبع علّم الأرثوذكس أن اللوغوس الذي رآه

---

44 - Great Vespers stichiron in the 7th tone, Nasser p. 184.
45 - Great Vespers August 6, Nasser p. 574.
46 - Easter, 7th ode, Hapgood p. 231.
47 - Holy Saturday canon, Canticle 1, Lenten Triodion< Faber, p. 646.

الأنبياء كان هو الله غير المخلوق على حين أن الأريوسيين قالوا أن اللوغوس نفسه كان مخلوقاً وأنه خُلق من اللاوجود وأنه لم يولد من جوهر الله الآب[٤٨].

لو كان هناك العديد من النصوص في كتابات الآباء التي تقول أن الأنبياء رأوا الله الآب، ينبغي علينا أن نتطلع لهذه النصوص ونفسرها في إطار لاهوت كنيستنا، وبالطبع في إطار تفسير القديس كيرلس الذي استشهدت به بأعلى. هذا يعني أن أقانيم الثالوث الأقدس لها نفس القوى وهي متحدة باستمرار في الجوهر والطبيعة. لا يوجد لوغوس بدون الآب والروح القدس، ولا يوجد روح قدس بدون الآب والكلمة، ولا يوجد آب بدون الكلمة والروح القدس. وبالتالي ظهر الكلمة للأنبياء والرسل القديسين، وفي الكلمة نرى الآب. من أجل ذلك، عندما يُقال أن الآب مرئي في العهد القديم فينبغي أن يُفهم ذلك على أنه رؤية الآب في الكلمة غير المتجسد.

إن إجابة المسيح على طلب فيلبس الملح "يا رب أرنا الآب وكفانا" هي إجابة مميزة إذ قال: "أنا معكم زماناً هذا مدته و لم تعرفني يا فيلبس. الذي رآني فقد رأى الآب فكيف تقول أنت أرنا الآب. ألست تؤمن أني أنا في الآب والآب فيّ. الكلام الذي أكلمكم به لست أتكلم به من نفسي لكن الآب الحالّ فيّ هو يعمل الأعمال. صدقوني أني في الآب والآب فيّ"(يو١٤: ٨-١١).

يبدو إذاً أن الأمور الأخيرة، أي اختبار ملكوت الله في المستقبل، اختبرها آدم قبل السقوط وقبل طرده من الفردوس، واختبرها أيضاً أنبياء العهد القديم حيث أنهم رأوا الله الكلمة وكانت لهم شركة معه. من المؤكد أنه طالما أن الموت لم يكن قد قُضي عليه بعد فإنهم بعد رحيل نفوسهم من أجسادهم أُخذوا إلى الجحيم الذي حررهم منه المسيح عندما نزل إليه.

(جـ) الأمور الأخيرة كالحاضرة

أعطى تجسد ابن الله وكلمته للإنسان فرصة أخرى وأدى إلى تغيير التاريخ بالمعنى الحرفي. فباتحاد الطبيعة الإلهية بالطبيعة البشرية في أقنوم الكلمة اكتسب الإنسان ملء

---

48 - John Romanides: Dogmatic and symbolic theology of the Orthodox Catholic Church, vol. 1, ed. Pournaras, Thessaloniki 1973, p. 240f (GK).

المسيح وبالتالي حصل على دواء الحياة. والكنيسة التي كانت روحية من قبل هـــي الآن جسد لأنها جسد المسيح، والمسيح هو رأسها.

تظهر العديد من التسابيح في صلواتنا هذه الحقيقـــة العظيمـــة. ففـــي إحـــدى استيشيرات (تسابيح) عيد الميلاد نرتل قائلين: "اليوم انحل الرباط القديم الذي لإدانة آدم وانفتح الفردوس لنا وانحدرت الحية. ففي القديم خدعت الحية المرأة في الفردوس، ولكنها الآن ترى المرأة وقد صارت أماً للخالق"[٤٩]. وفي تسبحة أخرى يقدَم تجسد المسيح أيضاً كاستعادة لآدم وكتجديد له في الفردوس: "ولد في بيت لحم خالق الكل والملك قبل كل الدهور، الذي فتح عدن، وقلب سيف النار، وهدم حائط الانقسام المتوسط، واختلطت القوى السمائية بالذين على الأرض"[٥٠]. والتسبحة التالية معروفة جيداً: "استعدي يا بيت لحم لأن جنة عدن قد فُتحت للجميع. استعدي يا أفراثا، لأن شجرة الحياة أزهـــرت في المغارة من العذراء، ولأن رحمها ظهر كفردوس يفوق الحواس مزروعة فيه النبتة الإلهية، التي منها سنأكل ونعيش ولن نموت كآدم. حقاً، سوف يولد المسيح رافعاً الشبه الـــذي سقط في القديم"[٥١].

تظهر حقيقة أنه بتجسد المسيح أتى ملكوت الله على الأرض في إعلان كل من يوحنا السابق والسيد المسيح نفسه: "توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات"(مت٣:٢) و(مت٤:١٧). تجسد المسيح هو السر العظيم المخفي بحسب قول القديس مكســيموس المعترف: "الذي لأجله تكونت كل الأشياء"، والذي هو "القصد الإلهي المقدَر في أصل الكائنات"، و"خلق الله جواهر الكائنات وهذه النهاية في ذهنه". تجسد المسيح هو غرض كل الخليقة، وبالتالي كان كل العالم المعقول والمحسوس معروفاً من قبل وأتى إلى الوجود من أجل أم الله، وأم الله أتت للوجود من أجل ربنا يسوع المسيح، أي من أجل تجسده كما يحلل ذلك باستفاضة نيقوديموس الذي من الجبل المقدس[٥٢].

لكن تجسد المسيح لم يفتح لنا الفردوس المغلق فقط، ولم يظهر لنا مجد آدم قبـــل السقوط فقط، ولا هو أعلن فقط الغرض من خلق الإنسان، ولكنه أظهر أيضـــاً مجـــد ملكوت الله بعد المجيء الثاني للمسيح. يظهر هذا بوضوح في لاهوت تجلي المسيح.

---

49 - Vespers Dec. 25, Festal Menaion, Faber, p. 265.
50 - Dec. 24 Matins, cf. Nasser p. 396.
51 - Dec. 24 Vespers, Nasser p. 396.
52 - Nicodemus the Hagiorite: A handbook of spiritual counsel, CWS p. 206.

فالنور الذي رآه التلاميذ عند التجلي لم يكن رؤية ووميض من نور، ولم يكن شيئاً أتى إلى الوجود ومضى من الوجود، ولم يكن طبيعة ثالثة للمسيح مخفية، ولكنه مجد القوى غير المخلوقة. وكما يفسره القديس غريغوريوس بالاماس، الذي يسمى بحق لاهوتي النور، فإنه يقول أن هذا النور كان جوهر البركات الآتية التي هي ملء ملكوت الله. **لقد رأى التلاميذ ملكوت السموات على جبل طابور، وليس فقط أنهم رأوه ولكنهم اختبروه على المستوى الوجودي حيث أنهم هم ذواهم تجلوا في تلك اللحظة.**

يشرح القديس غريغوريوس بالاماس أنه عندما قال المسيح لتلاميذه: "الحق الحق أقول لكم إن من القيام ههنا قوماً لا يذوقون الموت حتى يروا ملكوت الله قد أتى بقوة "(مر٩:١) كان يقصد مجد تجليه. وهو إذ يفسر هذا الحدث الخاص بالمسيح يقول أن المسيح الملك موجود في كل مكان وبالتالي يكون ملكوته موجوداً هو أيضاً في كل مكان. وهكذا " **لا يعني إتيان ملكوته أن عليه أن يأتي من مكان آخر، ولكنه يعني أن عليه أن يُعلَن من خلال قوة روح الله**"[٥٣].

يُظهر تجلي المسيح واشتراك التلاميذ في هذا النور أن ملكوت الله، وبالتالي الأمور الأخيرة، هي ليست مجرد أحداث خاصة بالدهر الآتي ولكنها حقائق حاضرة بالنسبة لأولئك المتحدين بالله. فكل قديس يشارك في الروح القدس يشارك بالفعل في ملكوت الله والأمور الأخيرة في هذه الحياة. بالإضافة إلى أن أعلى درجات الإعلان هي في الروح القدس. فالقديسون من الآن فصاعداً يتلقون ملكوت الله وكل الأشياء الأخيرة كعربون، ويظهر ذلك في استنارة النوس والصلاة العقلية ورؤية الله واستنارة النفوس والأجساد. فالرفات المقدسة التي تصنع معجزات هي مظاهر لهذه الحقيقة.

اعترف بولس الرسول نفسه بأنه صعد للسماء الثالثة، ومن هناك اختُطف إلى الفردوس. وبحسب القديس مكسيموس المعترف يشير ذلك إلى مراحل الكمال الروحي التي هي تطهير القلب، واستنارة النوس، واتحاد الإنسان بالله. وبحسب القديس نيقوديموس الذي من الجبل المقدس فإن اختطافه إلى الفردوس يشير إلى أنه أُطلع على كل أسرار الفردوس الذي كان فيه آدم وسيكون فيه الأبرار. فقد حصل بولس الرسول في هذه الحياة على خبرات الحياة في الأشياء الأخيرة.

---

[53] - Gregory Palamas, Homily 34, Quoted in Mantzarides: The deification of man, SVS 1984, p. 124.

كان من الممكن أن أذكر العديد من النصوص، ولكن ينبغي عليّ أن أشير إلى نص يظهر هذه الحقيقة، فهو يكتب إلى أهل كورنثوس قائلاً: "الآن أعرف بعض المعرفة لكن حينئذ سأعرِف كما عُرِفت"(١كو١٣: ١٢). ينبغي على الأخص أن نلاحظ الأفعال "سأعرف كما عُرِفت". بمعنى أنه سوف يعرف ما عرفه في الماضي. ويظهر بوضوح من هذا النص الرسولي، على الأخص، أن الأمور الأخيرة تشبه الأولى.

ملكوت الله هو رؤية مجد الله. توجد لحظات يعرف فيها القديسون مثل بولس الرسول البركات الآتية في هذه الحياة. يتعلق الأمر بنفس المعرفة، ولكن طالما نحن نحمل جسداً فليست هذه هي الحالة الدائمة.

من المميز أن ما بين عبارة "أنا معروف" وعبارة "سوف أعرف" نجد عبارة "الآن أعرف بعض المعرفة" و"فإننا ننظر الآن في مرآة"، وهذا يعني أن ما بين رؤية الله الممنوحة للقديسين في هذه الحياة في بعض اللحظات والأماكن، وبين رؤية الله بعد مجيء المسيح الثاني، أو حتى بعد مغادرة النفس للجسد، توجد استنارة وهي المعرفة الجزئية التي هي الصلاة العقلية.

تعطي الحياة الكنسية للإنسان إمكانية اختبار هذه الحقيقة الأخروية كحاضر. ويحدث ذلك من خلال الأسرار والنسك طالما أن الاثنين مرتبطين ببعضهما البعض بغير انفصال.

تدخلنا المعمودية المقدسة داخل الكنيسة وتجعلنا أعضاء في جسد المسيح؛ ويعطينا الميرون المقدس مواهب الروح القدس، وتعطينا المناولة المقدسة جسد المسيح ودمه لكي نحيا.

من الجدير بالذكر أننا عندما نشترك باستحقاق في القداس الإلهي وفي كل الجوانب التي تفترضها الأسرار وليس بطريقة سحرية فإننا نعيش كل أحداث حياة المسيح وحتى أحداث مجيئه الثاني. ففي القداس الإلهي الذي وضعه القديس يوحنا ذهبي الفم يقول الكاهن: " ونحن بما أننا ذاكرون هذه الوصية الخلاصية، وكل الأمور الصائرة من أجلنا، الصليب والقبر والقيامة ذات الثلاثة أيام، والصعود إلى السماوات، والجلوس عن الميامن، والمجيء الثاني المجيد أيضاً... ". وفي قداس القديس باسيليوس يعترف الكاهن بعد التناول قائلاً: "لقد تمّ وانتهى على قدر طاقتنا، سرّ تدبيرك، أيّها المسيح إلهنا. لقد حصلنا على تذكار موتك، ونظرنا قيامتك، وامتلأنا من حياتك، التي لا نهاية لها، وتمتعنا بنعيمك الذي لا ينفد. فارتضِ أن نكون كلّنا أهلاً له في الدهر الآتي أيضاً، بنعمة

أبيك الذي لا بدء له وروحك القدوس الصالح والمحيي، الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين، آمين".

على الرغم من أنه يظهر فيما استشهدنا به أن ملكوت الله والأمور الأخيرة تُختبَر في الحاضر أيضاً كعربون، إلا أننا سوف نقدم تعليم العديد من القديسين التي تظهر فيها بصورة أوضح هذه الحقيقة التي هي تعليم الكنيسة الواضح، ومن الطبيعي أن تكون تلك هي خبرة القديسين".

بعد أن أعلن القديس اسحق السرياني أن ملكوت السموات هو رؤية الله الروحية يقول: "ومن ثم يختبر هذه البهجة التي تنتمي لملكوت السموات"[٥٤]. وفي موضع آخر، إذ يصف خبرة مجيء النعمة الإلهية والبهجة والفرح اللذين يأتيان على كل جسد الإنسان فإنه يضيف قائلاً: " ولكن عندما تسكن في الإنسان البهجة التي تتدفق خلال جسده كله، فإنه يظن في تلك الساعة أنه لا شيء آخر بخلاف ملكوت الله يحفظ ذلك"[٥٥].

يعطي القديس مقاريوس المصري تشبيهاً بالقصور الملكية لكي يظهر العلاقة الموجودة بين البركات المستقبلية ومواهب النعمة الإلهية التي يتمتع بها الإنسان بالفعل في هذه الحياة. فهو يقول أن الشخص الذي يرتاد القصر ويعرف كل الأسرار ومجد الملك والذي لا يُستَقبل كغريب لا يخاف لو صار هو نفسه ملكاً وتكلل. يحدث نفس الشيء مع المسيحيين الحقيقيين: " وهكذا أيضاً المسيحيين الذين سوف يملكون في هذا الدهر لا يستغربون أي أمر جديد طالما أنهم عرفوا بالفعل أسرار النعمة منذ زمن بعيد". ثم يضيف القديس أنه في ذلك الوقت كما في الدهر الآتي، سوف يعيش الأبرار في ملكوت الله وفي النور والمجد دون أن يروا أي شيء بخلاف المسيح عن يمين الآب بنفس الطريقة التي يرى بها الأبرار الآن جمال وعجائب ملكوت الله، أولئك الذين أُسروا بالفعل في هذا الدهر الآتي منذ الآن. وهو يعبر عن ذلك بعبارات أخاذة قائلاً: "وهكذا أيضاً الحال مع أولئك الذين هم، حتى منذ الآن، مفتونون بهذا الدهر الآتي وأُخِذوا كأسرى. فهم يتأملون هناك الأشياء الجميلة والرائعة التي تحدث"[٥٦].

---

54 - Isaac the Syrian, Ascetical Homilies, Homily 72, p. 353.
55 - Ibid. Homily 68, p. 333.
56 - Macarius of Egypt, Homily 17, op. cit. p. 136.

بحسب القديس نيكيتا ستيثاتوس عندما تشعر أن الدافع للأهواء خامــل وغــير فعال، وأن الانسحاق يغلب على عينيك من الاتضاع فعندئذ "اعلم أن ملكوت الله قد أتى عليك وأنك حامل للروح القدس"[٥٧].

إن تعليم كنيستنا هذا والمعَبّر عنه من قِبَل العديد من القديسين يظهر بوضوح في تعليم القديس سمعان اللاهوتي الحديث. فهو يعترف هو ذاته في العديد من المرات أنــه رأى النور غير المخلوق، وبالتالي رأى ملكوت الله. أظن أن الاستشهاد بهــذا القــديس سيجعل موضوعنا مفهوماً أكثر. فسوف نرى حقيقة الاشتراك في البركات الآتية وعطايا النعمة الإلهية حتى في هذه الحياة.

إننا سوف نقتني ذلك باستمرار في داخلنا، أي رؤية الله واســتقبال ملكــوت السموات من قِبَله الذي هو الروح القدس"[٥٨]. يصف نفس القديس خبرة شخصية لــه وشهادة على الرؤية وشركة في ملكوت الله فيكتب نصاً مميزاً قائلاً:

" هناك رأيت الحياة الأبدية وعدم الموت
التي وهبها الله لأولئك الذين يطلبونه
واكتشفت أن ملكوت السموات كان في داخلي

الذي هو الآب والابن والروح،
ألوهية غير منفصلة في ثلاثة أقانيم
الذي فضّله أولئك على العالم بجملته

و لم يعتبروا العالم كمجد وشرف وغنى يُعبَد،
إنهم يحتفلون وموجودون في حضرته...."[٥٩].

يتعجب القديس سمعان من الطريقة التي يصبح بها ممكناً دخول ملكوت الله بعد الموت لو أن المرء لم يصل للإحساس به في الحياة الحاضرة فيكتب قائلاً: "كيف يمكــن

---

57 - Nicetos Stethatos: 3rd century, 58, Philok. 4, p. 157.
58 - SC 113, 236.
59 - SC 174, 106.

لشخص لا يقتني في نفسه ملكوت السموات بطريقة واعية أن يدخله بعد الموت؟ كيف يمكن لمن لا يرى الابن ساكناً فيه مع الآب والروح القدس أن يكون معهم في المستقبل؟"[٦٠]. إن هذه الكلمات هي ذاتها موحية ومخيفة في آن واحد، فهي تشير لارتفاع الحياة الروحية ومقياس الخبرة ونهاية هدف وجود الإنسان. بالإضافة إلى ذلك هي تشير إلى خبرة الأمور الأخيرة في هذه الحياة بالفعل.

لكن القديس سمعان اللاهوتي الحديث كان أكثر تعبيراً في مقالته التي عنوانها: "بخصوص يوم الرب المخوف والدينونة الآتية التي تعمل داخلنا حتى قبل الموت، نحن الذين تطهرنا بالفعل بالدموع؛ الدينونة التي لكونها قد تولدت داخلنا في الحياة الحاضرة لن نواجهها في الحياة الآتية".

كما هو واضح حتى في العنوان، لا يتمتع بملكوت الله فقط أولئك الذين اتحدوا بالله بالفعل في هذه الحياة، ولكن أيضاً القديسون الذين تطهروا بدموع التوبة سوف يهربون من الدينونة[٦١]، والسبب في ذلك هو **أنه بالنسبة للشخص الذي يعيش متنسكاً تكون الدينونة عاملة منذ الآن وعلى الأخص بالنسبة له يكون المجيء الثاني للمسيح آتياً بالفعل.**

بتحليل هذا التعليم نجد أن القديس سمعان يعلم أن استعلان الألوهية هو بصورة رئيسية دينونة بالنسبة لأولئك الذين استعلنت لهم. وبالتالي يشعر بعض الناس بالخاصية الحارقة للنعمة على حين يشعر البعض الآخر بالخاصية المنيرة لها كما يقول الآباء القديسون. وبالنسبة للذين هم بلا إيمان ولذوي الأهواء تبقى نعمة الله غير متاحة ولا مرئية على حين أنها تُرى معلنة في المؤمنين الذين يحفظون وصايا الله بخوف ورعدة ويقدمون توبة حقيقية، وتتسبب في جلب الدينونة الآتية في داخلهم. تطهر النعمة الإلهية مثل أولئك الناس بحيث "أن مثل أولئك الأشخاص لن يُدانوا في الدينونة الآتية لأنهم قد دينوا بالفعل". كل الذين هم أبناء النور وتطهروا من الأهواء، والذين هم أيضاً أبناء لليوم الآتي "لن يأتي عليهم أبداً يوم الرب لأنهم فيه بالفعل منذ الآن وإلى الأبد"[٦٢].

بتحليل النص عن المجيء الثاني للمسيح ، يقول القديس سمعان اللاهوتي الحديث أن حديث المسيح مع الأبرار والخطاة غير التائبين يبدأ منذ الآن، "هذا ما سوف يقوله الرب

---

[60] - SC 113, 278.
[61] - SC 129, 258.
[62] - Ibid. p. 264-270.

وما يقوله الآن..."[٦٣] **لأنه بالنسبة للمؤمنين حدث مجيء الرب بالفعل، وهو مستمر، وحدث بالنسبة لكل أولئك الذين يتمنونه"[٦٤].**

إننا لا ننتظر المستقبل لكي نرى ملكوت الله، ولكننا نستطيع أن نراه الآن بالفعل، فهو يكتب قائلاً: "ليس فقط في الدهر الآتي ولكن أولاً في الحياة الحاضرة ثم أيضاً في الدهر الآتي". بالطبع سيكون ذلك مختلفاً بحسب عمق رؤية الله وعمق الشركة. "وحتى على الرغم من ذلك فإنه يكون أكثر غموضاً هنا، وأكثر كمالاً هناك". يتلقى المؤمنون بوضوح الثمار الأولى لملكوت الله في هذه الحياة. وهذا يعني أنهم لا يتلقون كل الوعود الآن بالفعل، ولا هم يرجون التمتع بها في الحياة الآتية على حين ينتظرون الآن "محرومين وبدون مذاقة للأشياء الصالحة الآتية"[٦٥].

يقول القديس سمعان في موضع ما من عظته اللاهوتية أن المسيح هو نور العالم. وبالتالي فإن أولئك الذين لا يرتدون هذا النور هم لا يختلفون عن الجثة: "لو كان هو إذاً النور، ونحن نقول أننا لا نشعر بأولئك الذين يرتدونه فكيف نكون مختلفين عن الجثة؟". ثم يستمر مطوباً أولئك الذين يرون النور وبالتالي يختبرون ملكوت الله بالفعل.

إننا لا ننوي الاستشهاد بكل التطويبات ولكننا سنورد فقط بعض العبارات المميزة: "مباركون أولئك الذين يرتدون الآن هذا النور لأنهم سيقفون أمامه بلا خجل في الدهر الآتي"، "مباركون أولئك الذين يعيشون دائماً في نور المسيح لأنهم منذ الآن وإلى دهر الدهور يكونون إخوته وورثته وسيكونون كذلك دائماً"[٦٦].

لا تدع لنا كلمات القديس سمعان اللاهوتي الحديث وتطويباته الرائعة مجالاً لأن نكمل الموضوع. ولكي ننهي الموضوع أود فقط أن أقول أن الأخرويات الأرثوذكسية هي سرمدية، بمعنى أن حياة ملكوت الله وكل أحداث الأمور الأخيرة اختُبِرَت في الماضي من قِبَل آدم وأنبياء العهد القديم والقديسين، وهي أيضاً مختبَرة الآن في الحياة الحاضرة كعربون، وسوف تُختبَر في المرحلة الأخيرة بعد قيامة أجسادنا. **ولو كانت الأخرويات غير سرمدية ومرتبطة فقط بالمستقبل فإنها تكون غير أرثوذكسية.**

---

[63] - Ibid. p. 306.
[64] - Ibid. p. 308.
[65] - Ibid. p. 308-310.
[66] - Ibid. p. 314-316.



الخاتمة

إن الموت هو اللغز الأعظم الذي طالما شغل عقل الإنسان، وعلى الرغم من كونه نتيجة للخطية إلا أنه سبب لها أيضاً. **فالموت الذي نحمله داخلنا منذ الولادة هو الذي يحدد مسار حياتنا. فلو لاحظنا ردود أفعالنا لاكتشفنا أنها تنبع جميعها من معضلة المـــوت، فمن خبرة الموت يتولد الشعور بفقدان الأمان والخوف ومحبة الذات، وهذه بـــدورها تولِّد محبة القنية والتراخي والعديد من الأهواء الأخرى.**

يفصل الموت الأحباء، ويفتت وحدة الأُسر، وينشر اليأس والقنـــوط. ويـــرتبط الحب ارتباطاً وثيقاً بالموت. **فالمرء يحب لكي يتغلب على الضيق والألم النـــاتجين عـــن الموت الذي يختبره في وجوده الشخصي**، ولكنه حتى على الرغم من أنه يحب إلا أنـــه يشعر أن الموت يقترب أكثر وأنه في يوم ما سيكون السبب في إنهاء هذا الحب. **إن أيـــاً من يرى الحب خارج خبرة الموت يكون مخطئاً إذ أن الحب يرتبط بالألم، ألم البحـــث عن الحب وألم الخوف من فقدانه.**

بالتالي فإن الشخص الذي يتأمل الموت يكون كمن يستنبط حقيقة، فلا توجـــد حقيقة أكيدة مثل الموت. لقد قال "هيدجر" الفيلسوف العظيم والذي كان يـــبحث عن معنى الوجود "أن توجد هو أن توجد من أجل الموت". وفي الحقيقة فإن "معنى الوجـــود الأصيل هو الإعلان عن وجود من أجل الموت".

إن المسيحية، التي هي الفلسفة الحقيقية، هي دراسة المـــوت. فقـــد واجـــه القديسون هذه المشكلة التي قهرت الإنسان بطريقة صحيحة. فنسَّاك الصحراء كـــانوا تلاميذ حقيقيين للموت. وعلى كل حال فدراستهم هذه تمت من خلال اختبار نعمة الله ودون أن تشع فيهم اليأس والقنوط، ولكن الحرية والسلام والحب والأمل والانطلاق من قيود الحواس والمادة. هذا هو السبب الذي جعلهم رجالاً حقيقيين ومتميزين في المجتمع.

لقد أكد الآباء القديسون على أهمية تذكر الموت. فقد نظروا إليه على أنه الوسيلة الأكثر فاعلية لاكتساب مخافة الله التي تولد منها التوبة. وبالتالي فإنهم يطوبون الشخص الذي يتذكر باستمرار رحيله من هذه الحياة"[٦٧]. فتذكر الموت بغير انقطاع هو "تدريب جيد للجسد والنفس"[٦٨]. يولِّد اهتمام المسيحي بالموت الحزن الذي يقود للخـــلاص[٦٩].

---

67 - Isaac the Syrian: Ascetical Homilies, Homily 15, p. 86.
68 - Hesychios the Priest, Philok. 1, p. 178, 95.

ويحتوي تذكر الموت على العديد من الفضائل إذ أنه يقود المرء لممارسة فضائل عـدة. تذكر الموت "يولِّد الحزن، ويمنح التدرب على ضبط النفس في كل الأشياء، إنه مُـذِّكِر بالجحيم، وهو أم الصلاة والدموع، ويحث على حفظ القلب والتجرد من الأشياء المادية. إنه ينبوع اليقظة والإفراز... وتطهير القلب من الأفكار الشهوانية ويحتوي على العديد من وصايا الرب"[٧٠].

هكذا كان الآباء القديسون متأكدين أن المرء يحقق خلاصه من خلال تـذكره للموت. وتماماً مثلما يكون من المستحيل ألا يتذكر الجائع الخبز، هكذا أيضاً يكون من المستحيل "ألا يتذكر الشخص المهتم بخلاص نفسه الموت والدينونة"[٧١].

ينصحنا الآباء أن نتذكر الموت بلا انقطاع في نومنـا ويقظتنـا؛ "دع ذكـرى الموت تذهب معك عند النوم وتستيقظ معك"[٧٢]. كما أنهم يحثوننا: "دعونـا نتـذكر الموت على الدوام"[٧٣].

من المؤكد أن تذكر الموت يرتبط ارتباطاً وثيقاً بكل الأمور التي تعقب المـوت. فلا يتعلق الأمر هنا بمجرد الشعور بأنه سيأتي وقت ينبغي علينا أن نموت فيـه، ولكنـه يتعلق بمعرفة روحية عن أن لحظة الرحيل هذه هي لحظة حاسمة مـن أجـل المسـتقبل الأبدي. بمعنى أن المسألة ليست فقط هي حقيقة أن المرء سوف يحرم من الحياة الحاضرة ومن أولئك الذين يحبهم، مثلما يشعر الأشخاص الجسدانيون، ولكن معرفة أنه سـتأتي الدينونة والمحاكمة التي تعتمد عليها الحياة الأبدية. هذه هي الحقيقة المرعبة.

وكما نرى في كتابات الآباء القديسين فإن تذكر الموت يتم من خلال طريقتين: الطريقة الأولى هي تذكر منطقي بأن نهاية حياتنا الأرضية سـوف تـأتي وسـتتبعها الدينونة. وهذا النوع من التذكر مهم أيضاً طالما أنه يحررنا من الارتباط بالأرضيات ومن العبودية للماديات والمحسوسات.

---

[69] - Ilias the Presbyter, Philok. 3, p. 48, 12.
[70] - Philotheos of Sinai, Philok. 3, p. 30, 38.
[71] - John of the Ladder, step 26, CWS p. 258f.
[72] - Ibid. Step 15, p. 178.
[73] - Isaac the Syrian: Ascetical Homilies, Hom. 64, p. 317.

أما الطريقة الثانية فهي تذكر مواهبي للموت، أو بمعنى آخر هي **إحساس وجودي بالموت**. وهذا النوع هو عطية روحية عظيمة تكون من جهة ثمرة لاختيار الله، ومن جهة أخرى قوة خارقة تدفع المرء لصلوات متقدة ونحيب مسترسل وجهاد مستمر لحفظ وصايا المسيح بحيث يتحول عالمه الداخلي بالكلية.

يصف الأرشمندريت العطر الذكر صفرونيوس ساخاروف بطلاقة مذهلة هذه الطريقة المذهلة لتذكر الموت التي هي عطية روحية عظيمة يمنحها الله. فبإلهام من النعمة الإلهية وبطريقة غير مألوفة للعالم، يرى فقره الداخلي والنسيان الأبدي لذكراه وعدم وجود معنى للحياة. فهو يرى الموت في داخله وفي كل ما يحيط به. ويشعر أن كل الناس واقعون تحت سلطان الموت، وأن كل الخليقة تموت معه. وبينما هو في هذه الحالة فإنه يصلي بقوة وحرارة إلى الله الذي هو بلا بداية ولا نهاية. وعندئذ وبنفس الدرجة يختبر الله الحي بطريقة مؤلمة[٧٤].

لا ينبغي على المرء أن يظن أن مذاقة الموت هذه هي مذاقة مرعبة تظلم روح الإنسان وتجعله محروماً من طاقاته الحيوية الرئيسية ومن قدراته على الاستمرار في حياته. **من الممكن أن يحدث ذلك لو واجه المرء الموت بدون نعمة الله، ولكنه لو تطلع للموت بوحي روحاني، أي برجاء في الرب، فإنه يمتلئ أكثر بالحيوية**. وعندئذ تدخل الطاقات الحيوية لجهازه النفسجسماني، وينمو رجاؤه في الحياة الأبدية وفي التغلب على الموت، ويُزرع اللاهوى في كيانه، ويصبح بوجه عام شخصاً أكثر اجتماعية وأصالة. ونحن نعلم جيداً اليوم أن مجتمعنا يعاني من ندرة الأشخاص الأصلاء.

على الرغم من أن المسيحيين يعيشون في مكان محدد وزمان محدد، إلا أنهم "من عالم آخر، وهم أبناء آدم السماوي، سلالة جديدة، أبناء للروح القدس، إخوة للمسيح ساطعون، مشابهون لأبيهم الذي هو آدم الروحاني. إنهم ينتمون لمدينته ولسلالته وقوته". وبالتالي عندما يغادرون هذه الحياة بصحبة الرب فإنهم "يذهبون إلى أولئك الذين يعيشون في السماء بسعادة بالغة، ويستقبلهم أولئك المنتمون للرب، وقد أعدوا لهم هناك منازل وملابس بهية ساطعة"[٧٥].

---

74 - Archim. Sophrony Sakharov: We shall see Him as He is, Essex, 1988, p. 12ff.
75 - Macarius of Egypt, Homily 16, 8, CWS p. 132.

إن الوطن الحقيقي هو السماء، وبالتالي فهم يغلبون الموت بقـوة المسـيح، ذاك الذي غلبه من قبل، ويتملكهم الرجاء لأنهم راحلون من المكان المؤقت ومن الأسـر إلى الوطن الحقيقي.

يتغلب المرء إذاً على الموت في المسيح، وأولئك الذين يتحدون بالمسيح لا يخافون الموت ولكنهم يرونه كعبور إلى الحياة. إننا نرى ذلك في بلايـين القديسين والشـهداء والأبرار والمتزوجين الذين رحلوا بفرح ورجاء إلى المسيح.

إن موت القديسة غورغونيا أخت القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيـات هـو موت معبر كما يصفه هو ذاته في عظة الجنازة. "لقد اشتهت موتها لأنها في الواقع كانت لها دالة قوية من نحو الله الذي دعاها. وهناك في قلبها نما حبها للمحبوب، ذاك الـذي أجرؤ وأقول أنها كانت محبوبته".

لقد جعلها تعرف يوم رقادها، وكما يقول القديس غريغوريوس فإنه عندما حان اليوم المعين جهزت نفسها للموت والرحيل، "وخضعت للقانون الشائع في مثل هـذه الأحوال وآوت لفراشها"، وعندما فهمت أن ساعة انفصال روحها عن جسـدها قـد أتت، استلقت في فراشها وانتظرت الموت. لقد نامت بعد أن أوصت زوجها وأولادها وأصدقاءها وتكلمت بوضوح عما يحدث في السماء وهكذا جعلت يومها الأخير "يوم احتفال مقدس". لقد أصبح يوم رحيل روحها بالنسبة لها يوم عيد. وفي حديث القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات عن موتها قال أن أخته "تحررت، أو بالأحرى أُخِـذَت إلى الله، أو طارت بعيداً ، أو استبدلت محل إقامتها، أو سبقت رحيل جسدها بقليل". وفي نهاية عظة الجناز أضاف القديس غريغوريوس التفاصيل التي كانت معبرة عن التغلب على الموت، ففي الحجرة التي كانت ترقد فيها القديسة غورغونيا وعند اقتراب رحيلها مـن هذا العالم ساد "صمت مقدس كما لو كان موتها مراسم دينية. وكان القـديس يـردد مزموراً، واقترب منها والدها لكي يسمع ما كانت تقوله حيث أدرك أنها كانت تـردد الكلمات الأخيرة لمزمور طقس الجناز". وكما يقول القـديس غريغوريـوس النـاطق بالإلهيات أن طريقة موتها كانت شهادة على الدالة العظيمة التي رحلت بها"[٧٦].

---

[76] - Gregory the Theologian, On his sister Gorgonia, NPNFNS, vol. 7p. 243f.

هذه هي الطريقة التي يرحل بها القديسون المحبون لله عن هذا العالم. فهم يرحلون على رجاء القيامة وهم واثقون أنهم سيلتقون بالعريس المحبوب. **تخفي ساعة الموت لغزاً، وهذا ما يجعل الإثارة عظيمة.** ففيها يسود خليط من المشاعر: توبة، صلاة، خوف، رجاء، توقع اللقاء. **من أجل ذلك لا ينبغي على الشخص المحتضر فقط أن يصلي، ولكن ينبغي على كل المحيطين به أيضاً أن يساندونه بصلواتهم إذ ينبغي مواجهة هذه الساعة المقدسة بخوف مقدس وحس روحي.**

لقد منحني الله أن أكون حاضراً العملية الكاملة لموت رجل قديس وهو عطر الذكر الشيخ كالينيكوس مطران إديسا. فقد كانت كل حياته فترة استعداد للموت الذي كان يشغله ويحفزه باستمرار. وكان لديه انتباهاً شديداً للموت تأكد في العديد من الأحداث.

لقد عايشت على مدار سبعة أشهر طقس موت رجل قديس منذ لحظة ظهور المرض عليه حتى رقاده. فقد كان طوال سبعة أشهر في بستان جثسيماني فكان يصلي بلا انقطاع من أجل محاكمته السماوية. لقد عاش بقوة روحية ويقظة ثابتة وصلاة دائمة. وخضع خضوعاً تاماً لمشيئة الله، من أجل ذلك منحه الله اختبارات عديدة كتبت عنها جميعها في كتاب قمت بنشره لتكريم ذكراه. لقد كنت في الحقيقة شاهداً على كيفية رقاد "رجال المسيح الصغار الشجعان"، وأدركت الموت المجيد لرجل طاهر قديس. لقد اختبرت معنى هزيمة الموت.

"طوبى للأموات الذين يموتون في الرب منذ الآن"(رؤ١٤:١٣). طوبى لأولئك الذين عاشوا بخبرة تذكر الموت. طوبى لأولئك الذين شعروا في قلوبهم باشتياق وحب للمسيح العريس. طوبى لأولئك الذين تعلموا وعرفوا جيداً أنهم رجال "حقبة أخرى"، وأرض أخرى ووطن آخر. طوبى لأولئك الذين انجذبوا للمحبوب والحب. **طوبى لأولئك الذين غلبوا الموت بالفعل في هذه الحياة.** طوبى لأولئك الذين ماتوا على رجاء القيامة. طوبى لأولئك الذين تركوا هذا العالم وهم يعترفون قائلين "وننتظر قيامة الأموات". طوبى لأولئك الذين يستطيعون ترديد المزمور "بالسلامة أيضاً أضطجع وأنام". طوبى لأولئك الذين عاشوا كأموات عن الخطية، ولأولئك الأموات الذين قاموا من الخطية. طوبى لأولئك الذين يرحلون عن هذا العالم وهم واثقون أنهم سيذهبون لملاقاة الآباء وأناس الله.

"طوبى للأموات الذين يرقدون في الرب منذ الآن".

إنني أطوِّب أولئك الذين عرفوا قوة الحياة، وأتوق لدراسة الموت الذي عاشوه، وأشعر أنني أتحرك بشوق قلوبهم للسماء. كما أنني أطلب صلواتهم لكي يلمسني هذا الشوق فأموت في سلام وتوبة، فهذه هي شهوتي الكبرى.

لقد وضع الدائم الذكر الأرشمندريت صوفرونيوس صلاة تضمنت على طلبتين: الأولى أن يطيل الله أيام حياته حتى يستطيع أن يقدم له توبة حقيقية، وأما الثانية فهي أن يعطيه الله معرفة مسبقة بميعاد موته حتى يستطيع أن يستعد لملاقاته.

"هبني يا رب أن أعرف الحق قبل رحيلي من هذه الحياة. أطِل أيام حياتي حتى أقدم توبة حقيقية. لا تأخذني في منتصف أيامي وعندما يروق لك أن تضع نهاية لحياتي دعني أعرف ذلك قبل أن أموت بحيث تستطيع روحي الاستعداد للقائك.

كن معي يا رب في ذلك اليوم العظيم والمقدس بالنسبة لي وهبني فرح الخلاص. طهرني من كل خطية ظاهرة وخفية، ومن كل عدم خضوع للوصية مستتر في داخلي، واحسبني مستحقاً أن أعطي لك جواباً حسناً أمام منبرك المخوف. آمين"[٧٧].

إن هاتين الطلبتين هما من أفضل توسلاتي لله.

إنني أطلب من القارئ أن يصلي إلى الله من أجلي لكي يمنحني هذين التوسلين.

دعونا نصلي باستمرار:

" أن نتمم بقية زمان حياتنا بسلام وتوبة الرب نسأل"

" أن تكون أواخر حياتنا مسيحية سلامية، بلا حزن ولا خزي، وجواباً حسناً لدى منبر المسيح المرهوب نسأل".

لنصرخ لله بحرارة: "استجب يا رب".

---

[77] - Archim. Sophrony Sakharov: On prayer, Essex, 1993, p. 258 (GK).

وليمة الملكوت

مَن كان حسن العبادة ومحباً لله فليتمتع بحسن هذا الحفل البهج.

مَن كان عبداً شكوراً فليدخل فرح ربه مسروراً.

مَن تعب صائماً فليأخذ الآن الدينار.

مَن عمل من الساعة الأولى فليقبل حقّه العادل.

مَن قَدِم بعد الساعة الثالثة فليعيّد شاكراً.

مَن وافى بعد الساعة السادسة فلا يشكّ مرتاباً فإنه لا يخسر شيئاً.

مَن تخلّف إلى الساعة التاسعة فليتقدم غير مرتاب.

مَن وصل الساعة الحادية عشرة فلا يخشَينّ الإبطاء، لأنّ السيد كريم جوّاد فهو يقبل الأخير كما يقبل الأول، يُريح العامل من الساعة الحادية عشرة كما يريح مَن عمل من الساعة الأولى.

يرحم مَن جاء أخيراً ويرضي مَن جاء أولاً.

يعطي هذا ويهب ذاك.

يقبل الأعمال ويُسرّ بالنيّة، يكرِّم الفعل ويمدح العزم.

فادخلوا كلّكم إلى فرح ربكم.

أيّها الأوّلون ويا أيّها الآخِرون خذوا أجرتكم.

أيها الأغنياء ويا أيّها الفقراء افرحوا معاً. سلكتم بإمساك أو توانيتم أكرموا هذا النهار.

صمتم أو لم تصوموا افرحوا اليوم.

المائدة مملوءة فتنعّموا كلكم! العجل سمين فلا ينصرف أحد جائعاً، تناولوا كلّكم مشروب الإيمان، تنعّموا كلّكم بغنى الصلاح.

لا يتحسّر أحد شاكياً الفقر لأنّ الملكوت العام قد ظهر، ولا يندبْ أحد معدداً آثاماً لأن الفصح قد بزغ من القبر مشرقاً.

لا يخشَ امرؤ الموت لأن موت المخلّص قد حررنا. هو أخمد الموت لمَا مـات، وسـبى الجحيم لما انحدر إليه، فتمرمرت حينما ذاقت جسده، وهذا عينه قد سبق إشعياء فعاينه فنادى قائلا:

تمرمرت الجحيم لما صادفتك داخلها، تمرمرت لأنها قد أُلغيت، تمرمرت إذ قد هُزِئ بها، تمرمرت لأنها قد أُبيدت، تمرمرت لأنها صُفِّدَت، تناولت جسداً فألفته إلها، تناولت أرضاً فألفتها سماء، تناولت ما كانت تنظر فسقطت من حيث لم تنظر، فـأين شوكتك يـا موت؟ أين انتصارك يا جحيم؟

قام المسيح وأنتِ صُرِعتِ.

قام المسيح والجن َسقطت. قام المسيح والملائكة فرحت.

قام المسيح فانبثت الحياة في الجميع.

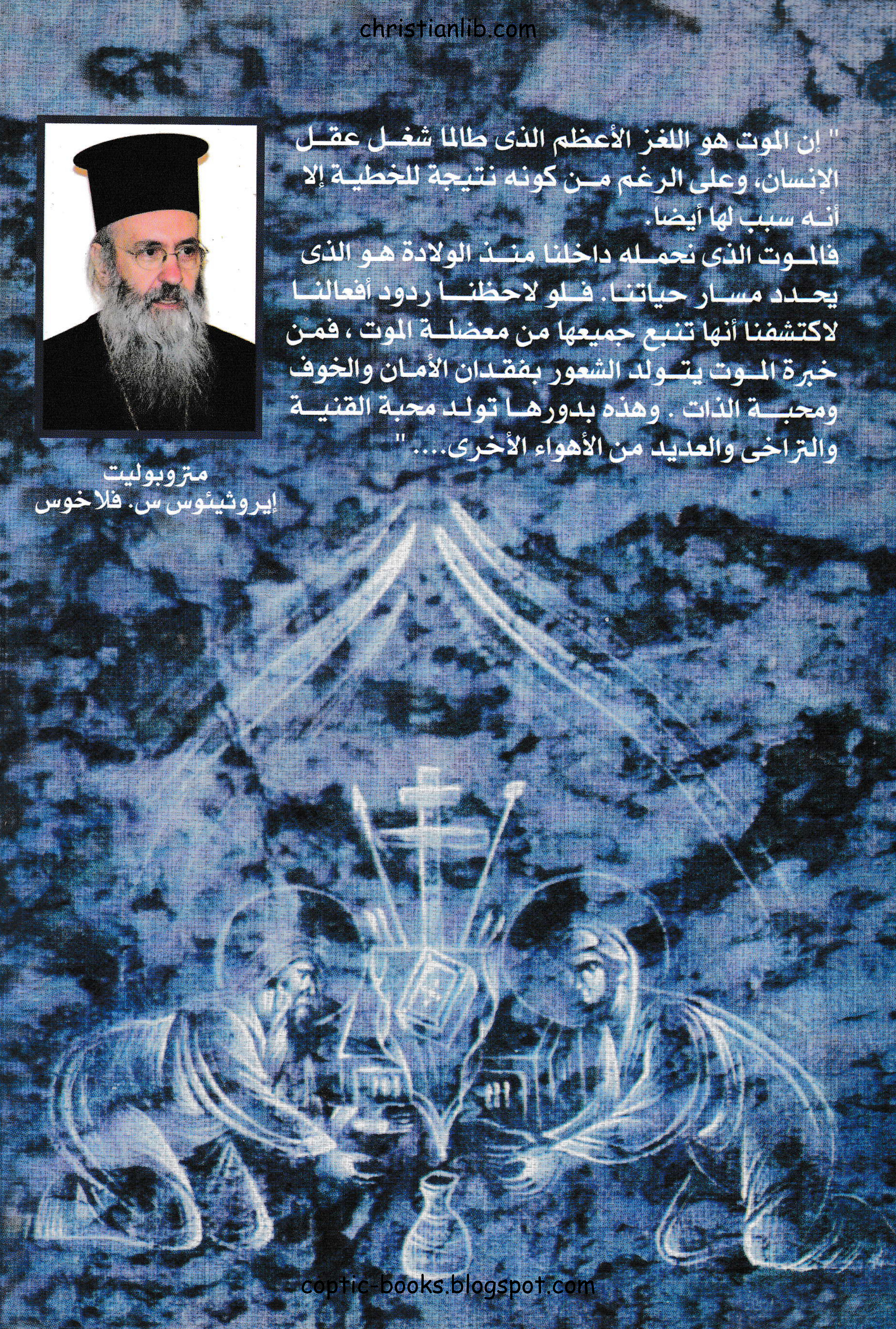
قام المسيح ولا ميت في القبر.

قام المسيح من بين الأموات فكان باكورة الراقدين.

فله المجد والعزة إلى دهر الداهرين. آمين.

تفسير اختصارات المراجع

CS	Cisterian Studies, Cisterian Publications, Kalamazoo, Michigen.
CWS	Classics of Western Spirituality, Paulist Press and London SPCK.
EPE	Ellines Pateres tis Ekklisias, Thessaloniki.
FC	Fathers of the Church, Catholic University, Washington, D. C.
NPNFns	A Select Library of Nicene and Post-Nicene Fathers, second series.
PG	Patrologia Graeca, comp. J-P. Migne, Paris.
PO	Patrologia Orientalis.
SC	Sources Chretiennes, les Editions du Cerf, Paris.
SVS	St. Vladimir's Seminary Pres, Crestwood, NY.



" إن الموت هو اللغز الأعظم الذى طالما شغل عقل الإنسان، وعلى الرغم من كونه نتيجة للخطية إلا أنه سبب لها أيضا.
فالموت الذى نحمله داخلنا منذ الولادة هو الذى يحدد مسار حياتنا. فلو لاحظنا ردود أفعالنا لاكتشفنا أنها تنبع جميعها من معضلة الموت ، فمن خبرة الموت يتولد الشعور بفقدان الأمان والخوف ومحبة الذات . وهذه بدورها تولد محبة القنية والتراخى والعديد من الأهواء الأخرى...."

متروبوليت
إيروثيئوس س. فلاخوس